قرطبة الإسلامية

في

القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

تأليف

د. محمد عبد الوهاب خلاف

الدار التونسية للنشر

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

© جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

أفريل 1984

تقديـــم

بقلم الدكتور محمود علي مكي
أستاذ الأدب الأندلسي ـ بجامعة القاهرة

شهدت الدراسات الأندلسية خلال السنوات الأخيرة نهضة طيبة ، فقد لقى التراث الأندلسي مزيدا من العناية ، فنشر الكثير من نصوصه ، كما توجهت إليه جهود الباحثين سواء في أوربا أو العالم العربي ، حتى أصبح الآن بعد حقب طويلة من الاهمال هو أكثر ميادين الدراسة العربية حظا من الاهتمام .

وكان التاريخ بطبيعة الحال من أول المجالات التي عالجتها أقلام الباحثين الأوربيين الذين سبقونا إلى ميدان الدراسات الأندلسية . وأود أن أنوه برائد هذه الدراسات المستشرق الهولندي رانهارت دوزي الذي خدم التاريخ الأندلسي خدمات جليلة منذ أن اضطلع بنشر بعض أمهات تراثه مثل القسم الأول من كبرى الموسوعات الأندلسية : « نفح الطيب » للمقري والقسمين الأولين المعروفين آنذاك من « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي و« المعجب » لعبد الواحد المراكشي والقسم الأندلسي من « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وغير ذلك من الأصول . وكانت الخطوة التالية لهذا الجهد المضني من تحقيق النصوص هي الشروع في كتابة تاريخ عام للأندلس . واضطلع بذلك بالفعل حينما أخرج في سنة **1881** الطبعة الأولى من كتابه الكبير « تاريخ المسلمين في اسبانيا » بالفرنسية في ثلاثة

مجلدات تناولت تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى دخول المرابطين أي على طول القرون الأربعة الأولى . وتعد هذه هي المحاولة العلمية الأولى لكتابة هذا التاريخ .

ثم توالت جهود العاملين في ميدان الدراسات الأندلسية ، فقام تلاميذ دوزي في أوربا واسبانيا بوجه خاص باتّباع خطواته في نشر النصوص الرئيسية للتاريخ الأندلسي وفي الكتابة حول جزئياته ، ففي اسبانيا نهضت هذه الدراسات نهضة كبيرة على يد مستشرق جليل ينتهي نسبه إلى أصل عربي هو فرانسسكو كوديرا زيدي ، ويعدونه بالنسبة للدراسات الأندلسية في اسبانيا بمثابة دوزى في أوربا . وقد توفر هذا العالم مع عدد من تلاميذه منذ أواخر القرن الماضي على نشر ما أطلقوا عليه اسم « المكتبة الأندلسية » التي تضمّ أمهات معاجم التراجم مثل كتب ابن الفرضي وابن بشكوال وابن الأبار والضبي وابن خير الاشبيلي . واستطاعت مدرسة كوديرا (أو « بنو كديرا » كما تطلق عليهم أوساط الاستشراق الاسباني) أن تخرج لنا أجيالا متوالية من الباحثين مازالت جهودهم تعد حتى اليوم معالم بارزة في تاريخ الدراسات الأندلسية . ونذكر من أعلامهم خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس ثم جيل تلميذهما غرسية غومى عميد الاستشراق الاسباني اليوم .

وأما في أوربا فقد حمل الراية بعد دوزى المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي واصل عمل دوزى ، فبدأ بنشر العديد من النصوص الأندلسية الرئيسية . وكانت الخطوة التالية بعد ذلك أنه أعاد النظر في التاريخ الذي كتبه دوزى فنقحه وهذبه وصوب بعض أخطائه ثم أصدر الطبعة الثانية منه في سنة 1931 . ولكن ليفي بروفنسال لم يكتف بذلك ، بل أنه بعد أن تجمع له عدد كبير من الأصول المخطوطة — قام بتحقيق بعضها ونشره وانتفع من سائرها أن يعيد كتابة تاريخ الأندلس منذ بدايته على نحو جديد أقرب إلى المنهج العلمي مما رأيناه في عمل دوزي ، ومستندا إلى عدد أكبر وأوثق من النصوص الجديدة . فجاء كتابه « تاريخ اسبانيا الاسلامية » المنشور في ثلاثة مجلدات في منتصف هذا القرن أجمع وأوفى ما كتب حول هذا الموضوع . على أن الملاحظ في هذا الكتاب هو أن صاحبه رأى بعد أن توفرت بين يديه مادة جديدة خصبة أن يقتصر على

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

دراسة التاريخ الأندلسي خلال القرون الثلاثة الأولى أي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة ونشوب الفتنة البربرية

ومن الجانب العربي تزايد الاهتمام بالحضارة الأندلسية خلال العقود الثلاثة الأخيرة ، وتعاقبت أجيال من الباحثين في مصر وسائر أنحاء العالم العربي على تحقيق فريد من النصوص الأندلسية وعلى إخراج دراسات متزايدة الجودة ، حتّى أصبحت جهود الباحثين العرب الآن تغطي جزءا كبيرا من تاريخ الحضارة الأندلسية .

وقد كان من الطبيعي أن توجه عناية الباحثين العرب في البدء للتاريخ السياسي ، فهو القاعدة التي ينبغي أن تبنى عليها كل دراسة للحضارة . غير أن التاريخ السياسي ليس كل شيء . فهو ليس إلا بمثابة هيكل عظمي ينبغي أن يكتسي لحما وعصبا حتى نستطيع أن نراه جسدا سويا . والذي يكفل اكتمال هذا الجسد هو تبين نبض حياة الشعب وأحواله الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ومن هنا بالذات تأتي الصعوبة الكبرى . فالمدونات التاريخية القديمة كانت توجه جل اهتمامها إلى الأحداث السياسية والعسكرية ولا سيما ما ارتبط منها بشخصيات الحكام . أما ما سوى ذلك فإنه كان يأتي عرضا وعلى نحو غير مباشر ولهذا فقد كان العبء ثقيلا على من يريد أن يبحث الجوانب الأخرى من حياة مجتمعات العصور الوسطى ، إذ كان عليه أن يتصيد اشارات موجزة عابرة هنا وهناك من خلال المدونات والكتب التاريخية ، ثم يحاول أن يبني تصوره لحياة تلك المجتمعات من عدد آخر كبير من المصادر المتفرقة الأدبية أو الفقهية أو الجغرافية أو معاجم التراجم أو غير ذلك .

وقد كانت هذه هي المهمة التي حاول العمل على انجازها الأخ الدكتور عبد الوهاب خلاف إزاء شريحة محددة من شرائح التاريخ الأندلسي وهي «الحياة الاقتصادية والاجتماعية في قرطبة خلال القرن الخامس الهجري» ، فتوفر خلال سنوات على هذه الدراسة التي نال بها إجازة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة 1976 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وكان من توفيق الباحث أن حصر موضوعه من الناحيتين : المكانية والزمانية . أما من ناحية المكان فإنه لم يوزع جهده على الأندلس كلها ، بل قصر عمله على قرطبة التي ظلت عاصمة الأندلس خلال القرون الثلاثة السابقة ثم أصبح لها مصنع خاص بعد ذلك . وأما من ناحية الزمان فقد حدده الباحث أيضا بالقرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي) وهو يمثل حقبة بالغة الأهمية في التاريخ الأندلسي ، إذ أن الأندلس تستقبل هذا القرن بتلك الفتنة البربرية التي قدر لها أن تقضي على خلافة بني مروان المجيدة ، وبعد ذلك ينفرط عقد الدولة وتفقد الأندلس وحدتها السياسية وتماسكها الاجتماعي وتتحول إلى عدد كبير من الدويلات التي تعرف في التاريخ باسم « ممالك الطوائف » ، ويستمد ضغط الممالك المسيحية المجاورة لبلاد الاسلام حتى ينتهي الأمر قرب أواخر هذا القرن باستيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة في سنة 478 (1085 م .) ويكون هذا بداية لنهاية الاسلام في تلك البلاد ، ويقبل تاريخ الأندلس على منعطف خطير آخر يتمثل في استنجاد الشعب المسلم بتلك القوة الجديدة التي ظهرت في صحراء المغرب المجاورة وهي دولة المرابطين . ويدخل المرابطون الأندلس ، وتفقد هذه البلاد استقلالها السياسي لأول مرة ، إذ تصبح بعد ذلك بسنوات وحتى نهاية القرن الخامس مجرد ولاية في دولة الملثمين العتيدة التي ضمت المغرب والأندلس لأول مرة في وحدة سياسية كاملة .

في مثل هذا القرن المضطرب الحافل بالأحداث كان على الباحث الزميل الدكتور خلاف أن يدرس أحوال المجتمع القرطبي مركزا على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي . وقد كان عملا ثقيل المؤونة باهظ التبعة كثير المشكلات ، وذلك لقلة ما في المصادر القديمة من المادة . فكان عليه أن يستخرج ما في كتب التاريخ مما يمكن أن يلقي أضواء على الجوانب التي تهمه ، وهذا كما بيّنت لم يكن يتجاوز اشارات مقتضبة عابرة مبثوثة في الكتب التاريخية ، وأهمها كتب ابن حيان التي احتفظت المصادر التالية بصفحات منها مثل كتاب البيان المغرب لأبن عذارى والذخيرة لابن بسام وأعمال الأعمال لابن الخطيب . وكان عليه أن يستكمل مادة بحثه من الكتب الجغرافية مثل كتب الرحالة المشارقة وما بقي من التراث الأندلسي مثل كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري أو

جغرافيات الرازي والادريسي والبكري وياقوت ، ومن معاجم التراجم مثل كتب ابن بشكوال وابن الأبار وابن عبد الملك المراكشي وابن سعيد وأمثالها .

على أني أود أن أنوه خاصة بتوفيق الباحث في استخدامه المصادر المتعلقة بالحسبة أو أحكام السوق مثل كتب ابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي والسقطي والجيلدي ، ثم كتب الفقه العامة مثل رسالة ابن أبي زيد القيرواني وغيرها ، وأخيرا كتب الأدب ودواوين الشعراء الأندلسيين خلال القرن الخامس مثل ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابن زيدون وغيرهم .

وقد كان مما أضفى على هذا العمل قيمة علمية خاصة تلك المادة التي عرف الباحث كيف يحسن استخراجها من كتاب « الأحكام الكبرى » للفقيه أبي الأصبغ عيسى بن سهل وهو كتاب جليل الفائدة مازال بعد مخطوطا في عديد من مكتبات المغرب والجزائر . وقد تنبه ليفي بروفنسال من قبل لأهمية هذا الكتاب وأحسن الانتفاع منه ولا سيما في الجزء الثالث من مؤلفه حول التاريخ الأندلسي ، ولكنه بقي حتى اليوم كنزا لم يتيسر للمشتغلين بهذا التاريخ استصفاء فوائده . فهذا الكتاب يعرض لنا عددا هائلا من القضايا والمعاملات لأهل الأندلس عامة وللقرطبيين خاصة ، مع فتاوي الفقهاء حولها وحيثيات تلك القضايا وما صدر فيها من أحكام . وكثير من هذه القضايا مما جرى بين سمع المؤلف وبصره في القرن الخامس (فالمؤلف توفي في سنة 486 /1093) وهي تتناول حياة الأندلسيين اليومية من معاملات تجارية أو منازعات حول أحوال شخصية ، ومن خلالها يمكن أن نتبين بوضوح نبض حياة المجتمع الحقيقية ولا سيما فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية .

تخطيط المدينة

وهكذا استطاع الأخ الدكتور خلاف أن يقدم لنا هذا العمل الجيد الممتع حول قرطبة خلال هذه الحقبة ، فتكلم عن تخطيط المدينة ورسم لنا صورة شائقة لقصورها ومنتزهاتها ودورها وحماماتها ومساجدها وكنائسها ومقابرها وأسوارها ووسائل المواصلات فيها .

ثم حدثنا عن السياسة الاقتصادية في المدينة وعن أنواع النشاط التجاري فيها من واردات وصادرات وما كان يضطرب في أسواق قرطبة من معاملات ، وألوان الصناعات القائمة فيها ، ومستوى المعيشة لدى القرطبيين .

وأخيرا عرض لنا صورة الحياة الاجتماعية في قرطبة ، فتكلم أولا عن العناصر التي كان يتألف منها المجتمع القرطبي وحدثنا عن حياة الأسرة وما كان يجري فيها من زواج وطلاق ، وعن أعياد أهل قرطبة ومواسمهم واحتفالاتهم إلى آخر ذلك مما يفتح لنا نافذة نطل منها على حياة الناس الخاصة ومشاغلهم اليومية في العاصمة الأندلسية العتيدة .

والبحث في جملته إسهام طيب في ميدان الدراسات الأندلسية نرجو أن يتابعه المؤلف في مسيرته العلمية المستقبلة . بل إننا نرجو أن يتاح لمثل هذه الجوانب من التاريخ الأندلسي عدد من الباحثين يوفونها حقها ، فهي بغير شك لا تقل أهمية وخطرا عن الكتابة حول التاريخ السياسي إن لم تكن أكثر فائدة وأجل نفعا .

وفق الله الأخ الدكتور خلاف وسدد خطاه وأعانه على أن يواصل اعمل في هذا الميدان الخصب الجليل . ومن الله نستمد التوفيق ..

القاهرة في سبتمبر 1978

□ محمود علي مكي

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

المقدمــة

﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾
(سورة البقرة ــ الآية 32)

لقد كان الاهتمام حتى الآن في الدراسات التاريخية الأندلسية موجها للتاريخ السياسي ، ومع ذلك فإن التاريخ السياسي للأندلس لم يكتب بشكل علمي اللهم إلا الجزء الذي ينتهي بسقوط الخلافة ، والذي قام بكتابته المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال .

أما القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فلم يدرس دراسة كافية ، وحتى هذه الدراسات المتعلقة بالتاريخ السياسي ليست كافية ، لأنها تكتفي بعرض الأحداث الكبرى وحياة الملوك والقادة ، ولكنها لا تهتم بحياة الشعب الحقيقية .

ويهدف هذا البحث إلى دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والربط بينهما ، ودراسة أثرهما في تكوين المجتمع القرطبي في القرن الخامس الهجري ، مع عدم إهمال النواحي السياسية وأثرها في تطور الوضع الاقتصادي والاجتماعي .

ولم يتناول هذين الجانبين بالبحث والدراسة سوى قلة من المهتمين بتاريخ الأندلس عامة وقرطبة بوجه خاص ، حتى هذه القلة كان اهتمامها منصبا على جزئيّات لا يمكن أن تعطّي صورة كاملة للحياة الاقتصادية والاجتماعية في هذه المدينة ، وإلى جانب هذا فإن الرسالة موضوع البحث تركز اهتمامها بوجه خاص على الحياة الاقتصادية وتأثيرها على المجتمع القرطبي وفئاته ، سواء ما كان منها نابعا من البلاد ذاتها أو كان طارئا عليها ، وهذا الطارىء قد اختلفت جذوره وتباينت أصوله ، فبعضه أوروبي والبعض الآخر إفريقي أو مشرقي الأصل .

وتهتم الرسالة أيضا بإيضاح نبض الحياة الاجتماعية وتفاعلها مع الأحداث السياسية والاقتصادية .

ولقد شهد القرن الخامس الهجري انتثار عقد الوحدة في الأندلس ونشأة ممالك الطوائف ، لذلك كانت الطريقة المثلى لدراسته هي أن ندرس جزئياته واحدة واحدة ، ولهذا فقد عمدت إلى جزئية من هذه الجزئيات ، وهي قرطبة بوجه خاص ، فاختصصتها بالدراسة باعتبارها وحدة واضحة المعالم .

إن كل ما نجده في ثنايا المخطوطات والمصادر التاريخية والأدبية ، وكتب الحسبة والمصادر الجغرافية ومعاجم التراجم لقليل ومبعثر ، ولكن بتجميع هذه المعلومات المتفرقة يستطيع الباحث أن يكون صورة واضحة المعالم إلى حد ما لما كان يعتمل داخل هذا المجتمع ، وأثر ذلك في إبراز سمات المجتمع القرطبي الجديد في القرن الخامس الهجري .

وبحثنا ليس إلا محاولة متواضعة لبيان هذا الجانب من حياة الشعب في قرطبة ، خصوصا في مظاهرها الاقتصادية والاجتماعية .

وقد جعلت البحث ثلاثة فصول :

الفصل الأول عن خطط قرطبة وأبرز معالمها في القرن الخامس الهجري ، وتحدثت فيه عن تخطيط المدينة وأبرز معالمها ، وهي القصور والمتنزهات والدور والحمامات ووسائل المواصلات والنقل في المدينة وموارد المياه والسقاية والمساجد والمقابر والكنائس وأسوار قرطبة وأبوابها .

والفصل الثاني في الحياة الاقتصادية في قرطبة في القرن الخامس ، تحدثت فيه :

أولا عن السياسة الاقتصادية لقرطبة في ظل خلفاء الفتنة ، ثم سياسة بني جهور الاقتصادية وبني عباد والمرابطين ، ثم أوضحت أن فتح المرابطين للأندلس كان لأسباب اقتصادية ، وتحدثت عن فرض ضريبة المعونة وسياسة استغلال موارد الثروة .

ثانيا التجارة ، وتحدثت فيها عن الواردات والصادرات والتسعير والاحتكار .

ثالثا الأسواق وأهميتها وأنواعها والرقابة عليهاوأوضحت دور المحتسب في مراقبة الأسواق لحماية المستهلك .

رابعا الصناعة وتحدثت فيها عن الصناعات المعدنية والزراعية والغذائية والتقليدية .

خامسا النظم المالية وتكلمت فيها عن المعاملات المالية وعن العملات التي سكت في قرطبة خلال القرن الخامس الهجري . ثم تحدثت عن دور السكة في قرطبة طوال هذا القرن ؛ وكذلك عالجت أحكام المعاملات في قرطبة في القرن الخامس الهجري وتحدثت عن أساليب التعامل التجاري ، وأنواع المعاملات في قرطبة وتشتمل على عشرين قضية مختلفة الأنواع ؛ ثم أنهيت هذا الحديث بالكلام عن السمات العامة للمعاملات في قرطبة في القرن الخامس الهجري مستخلصة من مخطوط ابن سهل .

سادسا مستوى المعيشة وتحدثت فيها عن النفقات ومستوى الأسعار وتأثير الحياة السياسية على مستوى المعيشة .

والفصل الثالث الحياة الاجتماعية في قرطبة في القرن الخامس الهجري ، وتحدثت

أولا عن عناصر المجتمع القرطبي وهم الأندلسيون والبربر والصقالبة وأهل الذمة . **وثانيا** عن الحياة العامة في قرطبة ، وتكلمت عن الزواج وأوضحت نماذج فعلية للمشكلات التي كانت تحدث في قرطبة في هذا القرن من نوازل ابن سهل . وكذلك عن الطلاق ومشهد الشارع في قرطبة وما تعرض له من أحداث سياسية

هامة خلال هذا القرن . وتكلمت عن الأعياد والمواسم والاحتفالات والعادات التي كانت سائدة فيها ، وأنهيت هذا الفصل بوسائل اللهو والطرب في المدينة .

وجعلت للبحث خاتمة أوضحت فيها ما توصلت إليه في بحثي من جديد عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقرطبة في تلك الفترة،ثم الملاحق وهي عبارة عن ثبت بأسماء قضاة الجماعة في قرطبة في القرن الخامس الهجري ، وخريطة لتخطيط مدينة قرطبة في القرن الخامس الهجري ، ثم خريطة جغرافية للأندلس وأخرى لعواصم ممالك الطوائف ، ثم بعض لوحات مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الذي اعتمدت عليه كثيرا في هذا البحث ، والذي سوف أقوم إن شاء الله بتحقيقه . وأنهيت البحث بثبت المصادر والمراجع .

★ ★ ★ ★

مصادر البحث :

ولعل أهم المصادر التي اعتمدت عليها هو مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل ، فقد استفدت من المخطوط في توضيح الرؤية للجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، وكان جل اعتمادنا عليه في دراسة أحكام المعاملات في قرطبة في القرن الخامس الهجري ، وقمت بتحقيق تلك القضايا المختلفة التي أوردها ؛ وتأتي أهمية هذا المخطوط أنه يستخدم لأول مرة في رسالة جامعية باللغة العربية .

ثم المقتبس لابن حيان « بعض سنوات منه » تحقيق الدكتور محمود علي مكي « وسنوات أخرى » تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ؛ والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، وهو يعتمد في كثير من الحوادث التاريخية على المؤرخ ابن حيان من كتبه المتين والبطشة الكبرى التي مازالت مفقودة حتى الآن ، وكتاب البيان المغرب بأجزائه المختلفة لابن عذارى ويعتمد فيه على كتب فقدت للمؤرخ الرقيق وصاحب المسهب وابن حمادة وابن القطان ، واعتمدت على كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بملوك بني زيري بغرناطة لعبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري ، وابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ،

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وتاريخ ابن خلدون ، وابن الخطيب في كتبه أعمال الأعلام ، والإحاطة في أخبار غرناطة ، والحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، وأبي الفداء المختصر في أخبار البشر ، وكتاب نفح الطيب الذي اعتمد فيه مؤلفه على كتب أندلسية للشقندي وابن حزم وغيرهما وكان اعتماد هؤلاء المؤرخين على كتب تاريخية أندلسية معاصرة للقرن الخامس الهجري إلا أنها الآن في حكم المفقودة .

ومن المصادر الأدبية : الذخيرة لابن بسام ، وقلائد العقيان في محاسن الأعيان ، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان ، والحلة السيراء لابن الأبار ، وطوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم ، وابن دحية في المطرب في أشعار أهل المغرب .

واستفدت من دواوين ابن زيدون وابن دراج وابن شهيد .

ومن كتب المعاجم والتراجم : الصلة لابن بشكوال ، والتكملة ، والحلة السيراء ، والمعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي لابن الأبار ، والذيل والتكملة للمراكشي ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، وجذوة المقتبس للحميدي ، وتاريخ قضاة قرطبة للخشني ، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي .

ومن المصادر الجغرافية التي استعنت بها مؤلفات ابن خرداذبة وابن الفقيه والاصطخري والرازي وابن غالب والبكري والإدريسي وياقوت والحميري .

ومن الكتب الخاصة بالموارد المالية والنظم أهمها مخطوط ابن سهل الذي سبق الكلام عنه ، وكتب الحسبة المختلفة منها كتاب ثلاثة رسائل في الحسبة لابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي وكتاب في آداب الحسبة للسقطي والتيسير في أحكام التسعير للمجيلدي .

ولم يفتني أن أعتمد على مراجع النقوش والنميّات ، وقد استفدت في بحثي بكتابي كوديرا وبريتو بيبس وهما عالمان متخصصان في هذا الفرع من العلم ، واستفدت من دراستيهما في تبين النظم المالية والأوضاع الاقتصادية في قرطبة

خلال القرن الخامس الهجري .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في هذا الجهد المتواضع ، والله الموفق .

د. محمد عبد الوهاب خلاف

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

الفصــل الأول

خطط قرطبة وأبرز معالمها في القرن الخامس الهجري

- ☐ تخطيط المدينة
- ☐ القصور والمتنزهات
- ☐ الدور
- ☐ الحمامات
- ☐ وسائل المواصلات والنقل في المدينة
- ☐ موارد المياه والسقاية
- ☐ المساجد
- ☐ المقابر
- ☐ الكنائس
- ☐ أسوار قرطبة وأبوابها

★ ★ ★ ★

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

تخطيط المدينة

لقد كانت حدود قرطبة وأملاكها في عهد بني جهور تشتمل على :

أولا : مدينة قرطبة وأرباضها .

ثانيا : قرى قرطبة .

وقد وصف ابن بشكوال خطط المدينة وصفا دقيقا ، فذكر أن عدد أرباض قرطبة « واحد وعشرون ربضا (1) » ، في كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره ، تلك الأرباض تحيط بقصبة قرطبة المسورة وهي كما يلي :

جنوب قرطبة المدينة : عدوة النهر وربض شقندة وربض منية عجب ، أما الجهة الغربية فتشتمل على تسعة أرباض : ربض حوانيت الريحان وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربط بلاط مغيث وربض مسجد الشفاء وربض حمام

(1) ابن غالب : منتقى فرحة الأنفس ص 296 مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد/ 1 جزء/2 « عشرون ربضا » ، مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ص 168 ، نفح الطيب 7/2 ، 13 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام 103 .

الألبيري (2) مسجد مسرور وربض مسجد الروضة (3) وربض السجن القديم . والجهة الشمالية تشمل ثلاثة أرباض : ربض باب اليهود (4) وربض مسجد أم سلمة (5) وربض الرصافة .

والجهة الشرقية : تشمل سبعة أرباض : ربض شبلار وربض فرن بريل وربض البرج (6) وربض منية عبد الله وربض منية المغيرة (7) وربض الزاهرة (8) وربض المدينة العتيقة (9) . ووسط هذه الأرباض « قصبة قرطبة » التي تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض بدون سور فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع . وذكر صاحب النفح عن ابن غالب أنه كان محيط هذا الحائط أربعة وعشرين ميلا ، وشقندة معدودة في المدينة لأنها مدينة قديمة كانت مسورة (10) .

أما أحواز قرطبة فتشمل عدة أقاليم لكل منها عدة قرى ، وكان مجموع القرى كما ذكرها العذري سبعمائة وثلاثا وسبعين قرية (11) .

أما أقاليم قرطبة فقد أختلفت المراجع في ذكر أسمائها ، وإن كان العذري يذكرها بأنها خمسة عشر إقليما (12) . غير أنه عند تفصيلها ذكر اثنى عشر

(2) مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة « ربض الأبوري » 168 .
(3) وصف جديد لقرطبة : ص 168 « ربض الروضة » .
(4) المرجع السابق : ص 168 (ربض اليهود) .
(5) أعمال الأعلام 103 « ربض قوت راشة » المنسوب إلى أم سلمة .
(6) وصف جديد لقرطبة ، ص 168 « ربض الفرج » .
(7) المرجع السابق ، ص 169 « ربض المغيرة » .
(8) المرجع السابق ص 169 ، نفح الطيب 13/2 .
(9) المرجع السابق « ربض المدينة » .
(10) وبمراجعة ابن غالب في منتقى فرحة الأنفس ص 296 وجدنا « أن محيط جميع أرباضها ومساكنها وزرع دوره من جهاته الأربع ثلاثة وعشرون ميلا » وربما يكون هذا صحيحا إذا لم يدخل شقندة .
(11) العذري ، ترصيع الأخبار من ص 124 — 127 .
(12) المرجع السابق 124 .

إقليما فقط ، وبمقارنتها بما ذكر ابن سعيد (13) وجدنا اختلافا في تسميات الأقاليم ، فقد ذكر ابن سعيد المسافات بين قرطبة وأعمالها فذكر أن المسافة بين الحدود وقرطبة ستة عشر ميلا (14) ، وبين قرطبة ومراد خمسة وعشرون ميلا ، وبين قرطبة والقصير ثمانية عشر ميلا ، وبين قرطبة وغافق مرحلتان ، وبين قرطبة وإستبة ستة وثلاثون ميلا ، وبين قرطبة وبلكونة مرحلتان ، وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلا ، وبين قرطبة وبيانه مرحلتان ، وبين قرطبة وأستجة ثلاثون ميلا ، وكورة رندة كانت في القديم من عمل قرطبة ثم صارت من مملكة إشبيلية وهي أقرب وأدخل في المملكة الإشبيلية (15) .

وأضاف ابن سعيد : «أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزّاهرة اتصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال حسبما ذكر الشقندي في رسالته» (16) ، وذكر القاضي عياض : « أن دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان » (17) .

تلك كانت قرطبة القرن الرابع الهجري ، واحتفظت بأقاليمها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري تقريبا في عهد بني جهور .

فلنعرض إذن في شيء من التفصيل لمعالم المدينة في القرن الخامس الهجري .

★ ★ ★ ★

القصور والمتنزهات

لقد نشطت حركة التشييد والعمران في عهد عبد الرحمن الناصر كما نعلم ، وعلى الرغم من القصور (18) التي أسسها أمراء بني أمية وخلفاؤها فإنه لم يتبق

(13) حسبما نقله عنه صاحب نفح الطيب 5/2 .

(14) الميل الأندلسي 2/1 1 كيلومتر .

(15) نفح الطيب 5/2 .

(16) المرجع السابق 5/2 ، 203/4 .

(17) المرجع السابق 61/2 .

(18) انظر الدراسة الطيبة عن القصور للدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس صفحة 405 .

منها إلا أطلال قصور الزهراء التي اكتشفها الأثريون الأسبان . وكانت مباني الزهراء تمتد من سفح جبل العروس مولية وجهها شطر الجنوب ويحيط بها سور مزدوج ، وكانت القصور في الجزء العلوي من المدينة ممتدة من الشرق إلى الغرب ولكن أقدمها وأكثرها فخامة — ونعني بها القصور الشرقية الفسيحة لا يزال أمرها مجهولا . ويضيف جومث مورينو قائلا (19) : « ونجهل النظام الذي كانت تقوم عليه ، وإن كان يمكن استنتاج أنها كانت تتألف من نوعين من البناء الدار — وهي على النمط الكلاسيكي الغربي — : ذات بهو تحيط به الحجرات ، والقصر ذاته أو الجزء العام الفخم الذي احتذى فيه مثال (**الأبادانة**) الشرقية ، وكان يتألف من أروقة متوازية أشبه ما تكون ببلاطات المساجد . ومن القصور المشهورة ذات البساتين (20) : الكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع والدمشق (21).

وهناك وصف بديع لابن بشكوال يصف فيه قصر قرطبة من حيث البناء وطرق توصيل المياه إليه ، والبساتين والبحيرات الجميلة التي به والزخرفة التي على جدرانه ، فقد قال : « ابتدع الخلفاء من بني مروان ، منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها ، في قصرها البدائع الحسان وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أدخلوها إلى القصر الكريم وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب والإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة (22) .

(19) الفن الإسلامي في إسبانيا ص 78 .

(20) نفح الطيب 12/2 .

(21) قصر الدمشق بقرطبة وهو قصر يصفه الفتح بن خاقان فيقول إن بني أمية « شيدوه بالصفاح والعمد ، وجروا في إتقانه إلى غاية وأمد ونمقت ساحته وفناؤه واتخذوه مراحهم ومضمار انشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق » وينقل عن أبي بكر بن عمار ما قاله فيه من أشعار

(22) حسبما نقله عنه المقرىء نفح الطيب 11/2 — 12 .

وذكر العذري أن دور القصر ألف ذراع ومائة ذراع (23) ، أما أبواب القصر فهي : باب السدة وباب الجنان وباب العدل وباب الصناعة وباب الملك وهو داخل المدينة وباب الساباط (24) ومنه كان يخرج الإمام من بني أمية إلى المسجد الجامع (25) ، وهناك القصر الفارسي الذي كان يعد من متنزهات خارج قرطبة ووصفه أبو الوليد بن زيدون وصفا شيقا (26) .

ولقد أسهب المؤرخون المسلمون في وصف المباني والإنشاءات التي تمت في عصر عبد الرحمن الناصر ، فقد ذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة (27) « أن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ونيف على ثلاثمائة سارية منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية ، وأن مصاريج (28) أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب ، وكلّها ملبسة بالحديد والنحاس المموه والله سبحانه وتعالى أعلم ، فإنها من أهول ما بناه الإنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا » . ولقد أسهب ابن حيان في وصفه لمدينة الزهراء قائلا : « ألفيت بخط ابن دحون الفقيه قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء أول سنة 325 هـ/ 936 م وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت (المعدل ستة آلاف صخرة) سوى الصخر المعروف في التبليط فإنه لم يدخل في العدد وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وأفريقيا وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنّائين وحسن ابن محمد وعلي بن

(23) انظر نصوص عن الأندلس ص 122 ــ 123 ودور قصر أمارتها ألف ذراع ومائة ألف ذراع ، انظر وصف جديد لقرطبة تحقيق د.حسين مؤنس ص 168 صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية المجلد 13 لقرطبة 168 .

(24) العذري ص 123 ، وصف جديد لقرطبة 168 .

(25) وصف جديد لقرطبة 168 .

(26) فقال خليلي لا فطر يسر ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

انظر نفح الطيب 19/2 .

(27) نفح الطيب 102/2 نقلا عن ابن حيان .

(28) مصاريع جمع مصراع وهو شراعة الباب .

جعفر الإسكندراني وكان الناصر يصلهم على كل رخامة كبيرة وصغيرة عشرة دنانير » (29) .

ولكن الفقهاء كانوا يرون في هذا الاهتمام بالقصور والمنشآت ضربا من البدع حتى أن القاضي منذر بن سعيد كان يذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفة القصور والمجالس (30) والإسراف في الإنفاق عليها لأن « متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء » وذلك في خطبة له في صلاة الجمعة عندما استغرق الناصر في بناء الزهراء وعطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات حتى أبكى الخليفة (31) .

أما قصر الزاهرة ومدينتها التي أراد المنصور بن أبي عامر تخليد ذكره بإنشائها فإن الشروع في تشييدها كان في سنة 368 هـ/ 978 م واتخذ المنصور قصر الزاهرة مقرا لحكومته بعد عامين من بنائه ، وكان يقع على الجانب الأيمن للوادي الكبير (32) . وكشفت الدراسات الأثرية والحفائر التي أجراها دون ريكاردو ڤيلاتكت سنة 1910 وتقع في مزرعة جورجوخويلا Gorgjuela في مكان يسمى بالموروكيل أو آجيلاريخو Aguilagejo على بعد كيلو مترين فيما يلي الزهراء إلى الغرب وفي سفح الجبل إلى اكتشاف العامرية وهي لا تعدو أن تكون مدينة للمنصور ، ولذلك أطلق عليها اسم العامرية وكان هذا البناء نظيرا للقصر الغربي للزهراء مع انتظام في توزيع أجزائه ، وكان يشمل ثلاثة أروقة بقاعاتها وغرفها .

ولن نتعرض لتفصيلات أكثر عن القصور الخلافية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، لأن الذي يهمنا هنا هو هل بقيت هذه الدور والقصور والإنشاءات في القرن الخامس الهجري .

---

(29) نفح الطيب 103/2 ـ 104 نقلا عن ابن حيان .

(30) انظر نفح الطيب 105/2 ــ 107 ، انظر عن قصر الزهراء : العذري ، نصوص عن الأندلس ص 123 .

(31) عن تزيين وزخرفة المجالس انظر نفح الطيب ، 104/2 .

(32) الفن الإسلامي ص 193 .

وقد أوضحت المصادر أنه بانقراض دولة بني عامر وقيام المهدي خربت الزاهرة (33) ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح وصارت قاعا صفصفا (34) .

ولقد حكى أن بعض ما نهب فيها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية (35) ، وأصاب الخراب أيضا قصر الزهراء أثناء سنوات الفتنة البربرية والحرب الأهلية التي امتدت طوال ربع قرن منذ اندلاعها سنة 399 هـ (1008 م) حتى إعلان سقوط الخلافة سنة 422 هـ (1030 م) .

وكان الوزير أبو الحزم بن جهور قد اتخذ داره مقرا لحكم البلاد ولم ينتقل إلى قصور الأمويين ، ولم تذكر المراجع أن بني عياد والمرابطين بقرطبة اتخذوا قصر قرطبة مقرا للحكم .

ومن منتزهات قرطبة المشهورة قصر السرادق شمال قرطبة (36) ومنتزه السد (37) ومنتزه قصر الرصافة في شمال قرطبة الذي كان يزرع فيه غرائب الغروس وأكارم الشجر (38) ، ثم المنتزهات الخاصة بالطبقة الارستقراطيّة كالمنية المصحفية وحير الزجالي ، وهو من أبدع المواضع وأجملها وأتمها حسنا وأكملها (39) وذكر مؤرخو الأندلس منى كثيرة منها (40) منية الناعورة (41)

---

(33) ابن عذارى 74/3 ، 101 — 102 ، نفح الطيب 121/2 ، الفن الإسلامي 193 .

(34) القاع : الأرض السهلة المطمئنة — الصفصف : المستوى الذي لا نبات فيه .

(35) انظر نفح الطيب 121/2 — 122 .

(36) نفح الطيب ، 21/2 .

(37) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(38) المرجع السابق 14/2 ، 155 .

(39) المرجع السابق 161/2 .

(40) المرجع السابق 172/2 .

(41) قال ابن خلدون أن الناصر اتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة حسبما نقله نفح الطيب 112/2 .

ومنية العامرية ومنية السرور (42) ومنية الزبير (43) ، منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة .

ولقد أصبحت هذه المتنزهات في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي متنزهات عامة لجميع طبقات المجتمع ولم تلق العناية الكافية من الحكومات القرطبية (44) .

★ ★ ★

الــــدور

تمتاز المدن الأندلسية عامة بشوارعها الضيقة المتعرجة الملتوية وأزقتها المغلقة وميادينها القليلة ، ومن هنا نستنتج خلوها من الأبنية الكبيرة الفخمة وسط هذه المنازل المتواضعة المتلاصقة تلاصقا شديدا والمتداخلة بشكل استدعى كثرة وجود الممرات الضيقة والعقود المحدودة فوق الشوارع (45) . وذكر ابن سعيد أنه في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أنه « يحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة اتصلت إلى أن كان يمشي فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال » (46) .

وذكر القاضي عياض أن دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان (47) . وذكر صاحب وصف جديد لقرطبة الإسلامية « أن العمارة اتصلت بها في أيام

---

(42) بناها المنصور بن أبي عامر انظر النفح 118/2 .

(43) هذه المنية مما استحدث في أيام المرابطين والزبير بن عمر الذي نسبت إليه كان من عمالهم على قرطبة . وقد أورد المقرىء أشعارا كثيرة في وصفها وذكر مجالسها (نفح الطيب 18/2) .

(44) للأديب أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي (ت 623 هـ) قصيدة في متنزهات قرطبة كانت تدعى « كنز الأدب » نقلها المقري في النظم (م/80 ــ 82) .

(45) ليوبولد توريس بلباس : الأبنية الإسبانية الإسلامية ، تعريب علية العناني ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، ص 97 . عدد السنة الأولى ، 1953 ، مدريد .

(46) نفح الطيب 5/2 ، 203/4 نقلا عن ابن سعيد .

(47) المرجع السابق ، 61/2 .

دولة بني أمية ثمانية فراسخ وفي عرضها فرسخين ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون ميلا في الطول وستة أميال في العرض . كل ذلك ديار وقصور وبساتين ومساجد وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات بطول ضفّة الوادي المسمى بالوادي الكبير (48) » ، وذكر أيضا أن « دور قرطبة المسور بطول الأرباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع» (49) . وأحصيت دور قرطبة التي بها وبأرباضها في أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر فكانت مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعة وسبعين . أما دور الأمراء والأكابر والوزراء والرؤساء والقواد والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار ، وثلاثمائة دار ، سوى مصاري (50) الكراء والحمامات والخانات .

أما تأثير الفتنة البربرية على الدور فقد كان البربر يغيرون على مدينة الزهراء ينهبون ويخرّبون ويحرقون ويقتلون (51) ، ونهبوا منازل الجانب الغربي من قرطبة وسكنوها (52) ، حتى كان عددها في أيام المرابطين والموحدين مائة ألف دار وثلاثة عشر دارا للرعية ، ودور أهل الدولة والخدام والأجناد ستة آلاف دار وثلاثمائة دار (53) . يقول ابن عبدون عن الدور أنها « الأكنان لمأوى الأنفس والمهج فيجب تحصينها وحفظها لأنها مواضع رفع الأموال وحفظ المهج (54) » لذلك يجب اتباع أسلوب وطريقة محكمة في بناء الدور ، ثم قال : « ينظر أولا في

---

(48) مؤلف مجهول ، وصف جديد لقرطبة الإسلامية تحقيق حسين مؤنس ، ص 122 ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد 13 مدريد ، 65 — 1966 .

(49) المرجع السابق ، 168 .

(50) مصارى يراد بها الغرفة الصغيرة أعلى البيت أو فوق الدكان ، انظر المرجع السابق ، هامش 1 ، ص 169 .

(51) ابن عذارى 102/3 .

(52) ابن حزم ، طوق الحمامة ، 117 ، وقال ابن حزم : « ولقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة ، وقد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد امّحَتْ رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى وصارت مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعابا مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذباب ومعازف للغيلان وملاعب للجان ومكامن للوحوش ، المرجع السابق ، 94 .

(53) وصف جديد لقرطبة ، 171 .

(54) ابن عبدون ، 34 .

تعريض الحيطان وتقريب الخشب الوافر الغليظ القوى للبنية، وهي التي تحمل الأثقال وتمسك البنيان » (55) .

وحدد ابن عبدون حجم وسمك الخشب المستخدم في البنيان قائلا : « يجب أن تكون جهة ألواح البنيان في عرضها شبرين ونصفا لا أقل من ذلك (56) . وكان الصناع والبناؤون تحت رقابة المحتسب في كل مرحلة من مراحل بناء الدور ، فكانت طريقة بناء الدور في قرطبة (57) لا تختلف عنها في بقية ممالك الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فهو أسلوب جرى العرف عليه فكان البيت عبارة عن عدة حجرات وفناء به البئر ، وأحيانا هناك غرفة أو غرفتان علويتان من الداخل ويصل إليها عن طريق درج مبنى بالطوب أو سلالم خشبية كانت تصنع من أخشاب سميكة وتثبت بمسامير (58) ، وكان فناء الدار به أحيانا الطاحونة الثابتة أو المتحركة .

أمّا المواد المستخدمة للبناء «فهي كتل الآجر التي يجب أن تكون وافرة معدة لهذا المقدار من عرض الحائط (59)» وكانت قوالب الطوب (60) معروفة الحجم والسمك ولها نماذج مختلفة وهي مصنوعة من خشب صلب ومعلقة في مسامير أعلى حائط الجامع يحافظ عليها كي يرجع إليها متى ما نقص منها أو زيد فيها (61) أما مصانع القراميد والآجر فهي خارج أبواب المدينة ، ويجب أن يجاد طبخ الآجر والقراميد ولا يستعمل الطوب حتى يبيض (62) ، وينتقل الطوب إلى داخل المدينة عن طريق الدواب أو العجلات .

---

(55) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(56) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(57) انظر الفصل الخاص بأحكام المعاملات .

(58) ابن عبدون 36 ، الترجمة الفرنسية ، ص 80 .

(59) بن عبدون ، 34 .

(60) قوالب الطوب يقصد بها هنا النماذج التي ينبغي أن يصب فيها الطوب فهي التي تحدد شكله وحجمه .

(61) نفس المرجع ، نفس الصفحة ، الترجمة الفرنسية 75 .

(62) المرجع السابق نفس الصفحة ، الترجمة الفرنسية 75 76 .

وحدد المحتسب وعرفاء البنّائين **الأنواع** المختلفة من شكل **الآجر ولكل شكل** استخدامه الخاص ، مثل النوع الذي يعرف « ضرس وقفا » لطي الأبار ، وآجر آخر للسطوح وآخر من هواء الأفران (63) . وينهي المحتسب أن يضع الآجر أو القراميد أو الطوب بقالب بال قد نجر ونقص من وفره شيء (64) .

ويرى توريس بلباس أن الأبنية العامة في المدن الأندلسية ، على اختلاف أنواعها بما في ذلك المساجد والأضرحة التي لم يتعد ارتفاعها مترا ونصف متر ، كان يراعي في بنائها الفائدة العملية فقط مما جعل مظهرها الخارجي متواضعا ، يستثنى من ذلك فقط الأبواب الحربية التي تؤدي إلى أسوار ملاصقة لها كان لها مظهر الأبهة والغنى الزخرفي (65) .

ولقد حفلت نوازل ابن سهل بأنواع مختلفة من القضايا الطريفة عن الدور ، والتي حدثت في قرطبة في القرن الخامس الهجري ، والتي رأينا إثباتها دون الدخول في تفاصيل تلك القضايا ، وآراء فقهاء قرطبة وقاضي الجماعة فيها ، منها « مسألة دار ادعى فيها على من هي في يده فأنكر معاملة المدعي ثم أظهر ابتياعه إياها منه » (66) . وقضية أخرى دارت أحداثها في رجب 464 هـ/ 1071 م وهي « شورى في بيت متهدم بين دار حسان ودار شنوعة اليهودي (67) » ، وادعاء شنوعه أن تلك الدار المتهدمة من أملاكه ونظر في تلك القضية صاحب السوق أبو طالب محمد بن مكي ، والقاضي أبو المطرف بن سوار حينما كان قاضيا للجماعة ومن المشاورين محمد بن [illegible] « وقضية إقرار باكتراء دار ودعوى سلف » (68) ومن باع دارا ثم أنكر وقال : « بل رهنته » (69) .

---

(63) المرجع السابق ، 35 .

(64) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(65) الأبنية الإسبانية الإسلامية ، 97 .

(66) انظر تفاصيل تلك القضية بمخطوط ابن سهل ورقة 265 .

(67) ابن سهل ، ورقة 257 ــ 258 .

(68) المرجع السابق ، ورقة 246 ــ 247 .

(69) المرجع السابق ، ورقة 229 .

وقضية أخرى في الحسبة وهي استغلال ابن السقاء مدبر دولة بني جهور سلطته في إثراء نفسه وتملكه الدور ، ولكن بعد وفاته أفتى الفقهاء بالاستيلاء على تلك الدور لصالح الدولة (70) . وقضية « شوري في دار بين شركاء بعضهم يسكنها وباقيهم يسأل اخلاءها لبيعها » (71) . وفي مثل تلك القضايا كان رأي الفقهاء أن الدار لا تحتمل القسمة ، فلذلك تخلى الدار وتكرى أو تباع . وهناك قضية « من اشترى دارا فيها بير ينساب فيها ماء حفرة بقرب الدار » (72) ، وكان رأي المشتري أن هذه الحفرة تحط من ثمن الدار .

وقضية « من اشترى دارا فأصاب بها عيوبا تخفى بعضها ويظهر باقيها » . وقضية «اختلاف الشهادة في عيوب دار مثل تشقق حيطانها » (73) . وهناك بعض القضايا التي عالجناها في الفصل الخاص بأحكام المعاملات في قرطبة ، ومنها قضية في البيع الشامل التي من صورها أن البائع لم يحدد صراحة في العقد شمول بيع الدار للطاحونة أو السلم فلمن تكون هذه التوابع (74) . وقضية بيع الدار « التي بها ثمارا ناضجة وقد طاب ثمرها ولم يشترط المبتاع الثمرة » (75) .

* * * *

الحمـــامات

تختلف الحمامات الإسلامية في الأندلس عن الحمامات الرومانية في أن الأخيرة أكثر عظمة وأكبر حجما وأعظم ترفا ، وإن كانت الأولى مشتقة من الثانية . ويظهر التأثير الروماني في عادة إنشاء الحمامات وطريقة بنائها في كلمة

---

(70) المرجع السابق ، ورقة 223 .

(71) المرجع السابق ورقة 223 ــ 224 ، وهناك قضية أخرى مشابهة ، انظر نفس المرجع ورقة 180 .

(72) المرجع السابق ، ورقة 175 .

(73) المرجع السابق ، ورقة 171 ــ 172 .

(74) المرجع السابق ، ورقة 142 ، الفصل الخاص بالأحكام القضية رقم/ 4 .

(75) المرجع السابق ، ورقة 137 ، الفصل الخاص بالأحكام قضية رقم/ 2 .

Furnaciوهي كلمة لاتينية محضة أطلقها العرب على القدر المستخدم لتسخين الماء وأحيانا أخرى كان العرب يستخدمون كلمة قدر (76) .

ولقد كانت الحمامات الرومانية ذات جدران غليظة وارتفاع بسيط ، تغطى أجزاءها الأساسية أقباء ظاهرة من الخارج فتضفى عليها شكلا خاصا . ولما كان العرب يراعون الفائدة العمليّة في جميع أبنيتهم ، فإنهم استخدموا هذه الأقباء فقط حيث كانت درجة الحرارة المطلوبة شديدة . ذلك لأن السقف الخشبي في هذه الحالة يكون معرضا للتلف السريع بواسطة البخار ، فضلا عن أنه يجعل جزءا كبيرا من الحرارة يتسرب إلى الخارج (77) .

ويتألف الحمام من مدخل ثم ثلاث أو أربع حجرات أساسية مغطاة دائما بأقباء وكلها لغرض الاستحمام ، ويكملها في نهاية الجهة المقابلة حجرات الوقود وخلافها ، وقد زالت معظم هذه الحجرات لضعف بنائها . ويدخل إلى الحمام بباب منخفض يؤدي إلى اسطوان أو ممر ضيق متعرج ، ويلي ذلك في كثير من الحمامات صحن صغير مغطى أو مكشوف يلحق به مرحاض .

ويلي الأسطوان حجرة تسمى « البيت البارد » وفيها كان يخلع المستحمون ملابسهم ، وفي بعض الحمامات المترفة كان يسبق الحجرة الباردة أخرى لخلع الملابس والاستحمام ، أما في الشتاء فكان المستحم يخلع ملابسه في الحجرة الوسطى الدافئة لقربها من القدر الساخن .

ويلي « البيت البارد » قاعة وسطى أعظم حجما وأهمية ، في وسطها فضاء مربع مغطى بقبة مراتها مغطاة بأقباء تحملها أعمدة تحف بجوانب الصالة كلها أو في جانبين أو ثلاثة منها وتسمى « البيت الوسطاني » ، وأخيرا تصل إلى « البيت الساخن » وهو حجرة ضيقة طويلة كالأولى مغطاة في نهاياتها بالحنايا المعروفة وفي الحائط الذي يقع في صدر الحجرة قدر كبير من النحاس الأحمر تخرج

(76) ليوبولد توريس بلباس : الأبنية الإسلامية الإسبانية ، ص 109 .

(77) المرجع السابق ، ص 110 .

منه أنابيب رصاصية حاملة الماء الساخن إلى أحواض مصنوعة من الرخام أو الحجر أو الطوب الأحمر وتسمى صهاريج ، وهي موضوعة في دخلات الحجرات الساخنة وتختفي في بعض الأحيان تحت تجاريف تفتح في الحوائط وهناك أبنية أخرى للماء البارد .

وفي الأبنية المتواضعة حيث لا توجد مياه جارية كانت تحمل من أماكن أخرى ، وتحل الزلع والجرار محل الأحواض الطريقة الوحيدة لإضاءة كل هذه الحجرات المغطاة بالأقباء كانت بواسطة فتحات أو كوات في السقف ذات شكل نجمي تتخلل الأقبية وتسمى (مضاوي) وتقفل بزجاج ملون . وترصف الحجرتان الأخيرتان ــ الساخنة والدافئة ــ بقطع من الرخام إذا كان الحمام مترفا .

والمكان المستخدم في تسخين المياه يوجد تحت القدر ، ويتسرب الدخان والهواء الساخن من أرضيات الجزئين المجاورين ثم يخرج من مداخن ملصقة بالجدران ، وهناك حجرة ملاصقة للقدر مخصصة للوقود وغيرها مما يلزم في مثل هذا وتسمى « أفنية » ، ولها مدخلها المستقل وليس بينها وبين سائر الحجرات الآنفة الذكر أي اتصال . وتتدرج درجة الحرارة في الحجرات المغطاة بالأقباء ، فالأولى لا تسخن وإن كان يساعد على تسخينها بعض الشيء ملاصقتها للحجرة الوسطى حيث درجة الحرارة أكثر ارتفاعا لمرور الهواء الساخن تحت أرضيتها .

وكانت الحمامات المترفة في المدن الهامة تجمل بتغطية أسافل جدرانها بالخزف وزخرفة حيطانها بالرسوم ، وإدخال صنابير معدنية ونافورات بتماثيل حيوانية ، وأحيانا كانت تستخدم بعض التماثيل الرومانية في تجميل هذه الحمامات ، وأحد هذه التماثيل عثر عليه الأندلسيون في خرائب طالقة Italica ونقلوه في القرن الحادي عشر إلى أحد حمامات إشبيلية المسمى بحمام الشطارة ، وهذا التمثال يمثّل امرأة بالحجم الطبيعي ذات جمال خارق ويجلس في حجرها طفل ممسكا بثديها ، ويصعد إلى قدميها ثعبان يريد أن يلدغ الطفل وتنظر المرأة إلى الطفل والثعبان معا نظرة معبرة عن حنان يمتزج بالذعر (78) .

(78) المرجع السابق ، ص 112 .

ويحكي صاحب النفح أن سكان الريف الذين سحروا به كانوا يتركون أعمالهم لتمضية الوقت ناظرين إليه (79) ، وتأثر به بعض الشعراء فوصفوه شعرا (80) .

وكان بالقرب من الباب الموصل للحجرات الداخلية رجل يجلس على كرسي عال مسؤول عن حفظ ملابس المستحمين وأشيائهم وتقديم المناشف « البشاكير » وطفل لتنظيف الشعر .

وكان الحكاك أو الخادم يعمل في حك جسم المستحم ، مستعينا بقفاز من الشعر مزيلا الطبقة الخارجية العالقة بالجلد ، ولقد خضعت الحمامات لرقابة المحتسب . فيرى ابن عبدون أنه يجب أن لا يحك مسلم نصرانيا أو يهوديا (81) ، « وأن تكون صهاريج الحمامات مغطاة ، فإن كانت مكشوفة لم تؤمن نجاستها ، فهو موضع طهارة ويجب أن لا يمشي الطباب ولا الحكاك ولا الحجام في الحمام إلا بالتبان وسراويلات (82) .

وكان على المستحم أن يدفع ثمن الدخول وإن كان زهيدا جدا ، وكانت الحمامات تابعة للدولة أو المساجد أو الجهات الدينية ، وإذا لم يكن بالحمام ماء جار فإنه كان يجلب من آبار بواسطة سواقي وينقل على دواب الحمل .

وكانت الحمامات تضاء ليلا بالشموع والشمعدانات .

أما عن عدد الحمامات بقرطبة حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فيرى صاحب وصف جديد لقرطبة أن عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام وسبعمائة حمام وأحد عشر حماما (83) . وأعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه إلى حد

---

(79) نفح الطيب ، 367/1 ـ 368 .

(80) ودمية مرمر تزهى بجيد ... تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ... ولا ألمت بأوجاع المخاض
انظر نفح الطيب ، 23/2 .

(81) ابن عبدون ، 48 .

(82) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(83) مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص 169 .

ما ، أو ربما كان يشمل حمامات قرطبة وأرباضها . أما بعد نهاية الفتنة البربرية فقد نقصت حمامات قرطبة وأرباضها إلى سبعمائة حمام وأحد عشر حماما (84) . لقد كانت الحمامات العامة منتشرة في كل ربض من أرباض المدينة في قرطبة ، هذا إلى جانب أنه كان يلحق بقصر الخلافة حمام القصر (86) .

ولم يختلف نظام حمام القصر عن الحمامات الشعبية المنتشرة في المدينة وأرباضها ، وكان يوجد بمدينة الزهراء حمامان : واحد للقصر وثان للعامة (86) . وكان هناك حمامات خاصة للرجال وأخرى للنساء ، وان كان المألوف أن يستعمل الجنسان نفس الحمامات في أوقات مختلفة ، كالرجال صباحا والنساء بعد الظهر ، أو للرجال أيام أخرى غير النساء ، وفي هذه الحالة أوصى ابن عبدون بأنه « لا يجلس متقبل الحمام للنساء فإنه موضع تمتع وزنى » (87) وكانت امرأة تجلس في المواعيد المحددة للنساء .

وإلى جانب وظيفة الحمام الصحية فإنه كان في الأندلس أحيانا وسيلة للتخلص من الأعداء أو الانتقام منهم ، وقد شاهد حمام في إشبيلية حادثة تؤيد ذلك .

---

(84) المرجع السابق ، 171 .

(85) ولقد اكتشفه الأثريون في قرطبة سنة 1903 في الكامبودي لوس ماريتيرس El camp de Los Maritre (أي حقل الشهداء) وهو يلتصق بقصر الخلافة ، وقد واراه التراب بعد ذلك وإن كان لم يتهدم . وهو عبارة عن حمام لعله أقدم ما عرف اعتمادا على زخرفته المؤلفة من العقود الصغيرة المؤلفة من ثلاثة فصوص مسنجة فوق أعمدة وهذه الزخرفة من الجبس مدهونة بالأحمر أقل من نصف دائري ، أما الكسوة الأرضية فمن الرخام الأبيض وتحت غرفة التسخين ممر البخار Hypo Causis وكان يمر فيه البخار فيشيع الدفء في المكان . واكتشف بالقرب من ذلك خلال درج جزء من غرفة مربعة سعتها ثمانية أمتار يحيط بها ممرّ ولا تزال في الأركان دعائم من الحجر تتصل بها أجزاء من الجدران وكانت هناك أعمدة ملتصقة ببعض تلك الدعائم ، هذا فضلا عن أربعة أعمدة أخرى غير متصلة بالدعائم وجملتها 28 عمودا . أما القبة الوسطى فكانت مثقبة مؤلفة أشكالا نجمية وزخارف أخرى وكل ذلك كانت تغطيه توريقات حمراء على أرضية بيضاء . وهذه المعلومات مستقاة من الدون رافاييل امبريث دي آريانو D.Rafael Raminez De Arellano . انظر كتاب الفن الاسلامي ص 199 — 200 .

(86) نفح الطيب 103/2 .

(87) ابن عبدون 49 .

فقد دعا المعتضد حاكم إشبيلية ثلاثة من رؤساء البربر إلى حفل للتخلص منهم والاستيلاء على سلطانهم ، وأدخلهم الحمام وسد الأبواب والنوافذ وأمر بأن ترفع درجة الحرارة حتى اختنقوا جميعا (88) .

وفي قرطبة قتل الخدم الصقالبة الخليفة علي بن حمود في حمام القصر الخليفي بقرطبة سنة 408 هـ/ 1018 م (89) وبعد ذلك بسنوات قليلة في سنة 414 هـ/ 1024 م عمل الخليفة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام على إخفاء نفسه في أتون الحمام هربا من الثائرين ضده ، واكتشف أمره ولم ينجح في محاولته وقتل (90) .

وسائل المواصلات والنقل في المدينة

المواصـــلات النهرية :

لقد كانت المواصلات النهرية تحت رقابة المحتسب ، وكان المشرف على الوادي هو الأمين (أمين الوادي) ويعاونه معاونون يقومون بتنفيذ أوامره ونواهيه ، ولقد كان نهر الوادي الكبير هو المعبر الطبيعي من جنوب قرطبة إلى جهاتها الأخرى ، كما في الخريطة المرفقة لتخطيط المدينة في نهاية البحث (91) ؛ هذا إلى جانب قنطرة قرطبة (92) . وكانت هناك المراسي الكثيرة على طول الوادي للتنقل من الجنوب إلى الشمال وبالعكس ، فكان على أصحاب القوارب المتولية لنقل الركاب من ضفة إلى أخرى المحافظة على أرواح الناس خوفا من حوادث الغرق لذلك أوصى ابن

---

(88) ابن عذارى 3/270 ــ 271 ، أعمال الأعلام 239 .

(89) ابن عذارى 3/122 .

(90) المرجع السابق 3/139 .

(91) أرباض جنوب قرطبة : ربض شقندة ومنية نصر ومقبرة نصر والشريعة ومنية عجب .

(92) وهي عبارة عن كوبري فوق الوادي يصل جنوب قرطبة بقصبة المدينة ، وللقنطرة باب عند مدخل المدينة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

عبدون بأنه (93) « يجب أن يؤمر المعدون أن يخففوا الأشحان (94) ، ويجب أن يكون في كل مرسى معديتان أو قاربان ليكون ذلك أرفق للناس وأخف للأشحان وأعجل للجواز لا سيما عند العصوف (95) ، وكذلك كان على المعديين ألا يجوزوا من عبيد البربر ولا من الخدم ولا من يعرف أنه يتعدى على أموال الناس في أيام الغلات ، ومن ظفر به وفي يده شيء من ذلك أخذ منه فإن تأبى حمل إلى صاحب المدينة » (96) ونحن أمام هذا النص نرى أنه ربما كانت تلك المعديات أشبه بأن تكون ملكا خاصا للدولة ، وكان ضمن طاقم الإشراف على هذه المعديات أعوان أمين الوادي الذي كان يعينه المحتسب وكان مسؤولا أمامه ، وربما كان لديهم سجلات خاصة مسجلا بها أسماء بعض الأشخاص الخطرين المشهورين بسوء سلوكهم لمنعهم من العبور ، وأمامنا نص يفيد هذا الرأي ذكره ابن عبدون في موضع آخر « يجب أن يكون في المراسي من يبحث عن هذه الأمور ويغيرها ويعضده القاضي والسلطان ، وأن يعرف بذلك الأمين على الوادي (97) كذلك كان يمنع كراء القوارب للنزهة لمن يشرب الخمر .

وكانت الدولة تحمي أراضي ضفتي الوادي الكبير من أن يشغلها أحد أو يستغلها أحد لبناء شيء عليها ، ولعل الغرض من ذلك هو ضمان تحكم الدولة في مكوس الواردات والصادرات ومنع التهريب ، وفي ذلك يقول ابن عبدون : « ويجب أن نحمي ضفة الوادي الذي هو مرسى المدينة للسفن أن يباع منها شيء أو يبنى فيها بنيان ، فإن ذلك الموضع عين البلد وموضع اخراج الفوائد مما يخرجه التجار ومأوى الغرباء وموضع إصلاح السفن ، فلا يكون ملكا لأحد إلا السلطان

(93) ابن عبدون 29 .

(94) وكان من الحوادث المأثورة ما ذكره ابن حيان « أن جماعة من القرطبيين قد هلكوا يوم الاستسقاء غرقا في النهر فاستقلوا قاربا ونزلوا فيه لياذا من ضيق القنطرة فرسب بهم « انظر المقتبس تحقيق د.محمود مكي ص 47 .

(95) العصوف = شدة الرياح .

(96) ابن عبدون 29 ، الترجمة الفرنسية 64 .

(97) المرجع السابق 56 .

وحده ، ويجب للقاضي أن يحمي ذلك كل الحماية فإنه موضع مجتمع التجار والمسافرين وغيرهم ويحد لصاحب المواريث أن لا يبيع منه شبرا واحدا (98) .

المواصلات داخل المدينة :

أما وسائل النقل داخل قرطبة وأرباضها فهي الدواب والعجلات التي تجرها الدواب أو الانسان ، أما الطرق (99) فقد كان يؤمر أهل الأرباض بحمايتها عن طرح الزبل والأقذار والكناسة فيها وإصلاح المواضع المتطامنة (100) التي تمسك الماء والطين ، ويجب على الكنافين مراعاة نظافة الشارع وعدم نجاسة الناس في الطرق ، لذلك « يؤمرون ألا يؤذوا الناس في الطرق ، وأن تكون القفف لا ترشح ، ولو اتخذوا أكوابا (101) لكان أحسن » (102) .

وهناك تعليمات كثيرة من المحتسب بعدم إشغال الطرق بأي شيء يتسبب في ضيقها (103) ، حتى تناسب حركة المواصلات ويسهل تحرك المارة من الراجلين وراكبي الدواب أو العجلات التي تنقل البضائع والسلع وربما الأشخاص داخل المدينة . وقد ورد ذكر العجلات في مخطوط ابن سهل عند الكلام على منع مرور العجل على المقابر (104) . كذلك يرى ابن عبد الرؤوف أنه لمنع أشغال الطرق الضيقة يمنع الناس من الدخول في القيسارية والأسواق على ظهور الدواب (105) .

---

(98) المرجع السابق ، ص 30 .

(99) انظر الفصل الخاص بمشهد الشارع .

(100) المتطامنة هي المنخفضة التي تكون عرضة لتجمع مياه الأمطار فيها وامتلائها بالوحل والطين نظرا لانخفاضها .

(101) الأكواب جمع كوب ، وليس المقصود به ما يعرف الآن بهذا الاسم وإنما هو الدلو الكبير .

(102) ابن عبدون 38 .

(103) المرجع السابق 53 ، ابن عبد الرؤوف 110 — 111 .

(104) ابن سهل ورقة 340 .

(105) ابن عبد الرؤوف 111 .

موارد المياه والسقاية

كانت المياه تتوفر في قرطبة المدينة وأرباضها من مصدرين : المصدر الأول نهر الوادي الكبير الذي كان يجري في جنوبها مخترقا أراضيها ، والمصدر الثاني هي المياه الجوفية وكانوا يستخرجونها من باطن الأرض بنظام هندسي محكم .

أما المصدر الأول وهو النهر فقد كان الماء يرفع منه بآلات رافعة تشبه السواقي التي يستخدمها الفلاحون في مصر ، وهي طريقة استخدمها عرب الأندلس بكثرة وكانوا يطلقون على هذه الآلات اسم « النواعير » جمع « ناعورة » (106) ، وكانت تقام على ضفتي الوادي الكبير . وهناك طريقة أخرى كانت مطبقة في مجريط (107) وغيرها من مدن الأندلس ، وهي إقامة شبكة من القنوات الجوفية تمتد تحت أرض المدينة وتسد حاجات منازلها من الماء بنسبة مقدرة معلومة .

ذلك لأن النواعير تصلح لرفع الماء إذا كان على مسافة قليلة العمق من سطح الأرض ، أما إذا كان عمق الماء شديدا فإنها لا تصلح لذلك ، وطريقة عمل القنوات الجوفية هو اختيار مكان من المدينة يرتفع مستوى المياه فيه على السطح فيما بينها ، والتوصل بعد ذلك بين هذه الآبار بمجار جوفية تبنى دائما من الطوب الأحمر ، وتكون من السعة والارتفاع بحيث تسع قامة رجل يمكنه المشي فيها . وفي قاع هذه المجاري توجد تلك القنوات المصنوعة من الفخار والتي تحمل الماء بين الآبار المذكورة ، ويراعي فيها أن تكون على انحدار خفيف متجهة نحو المدينة ، وهناك تحفر في باطن الأرض تحت منازل المدينة شبكة من المجاري تتفرع على الأحياء والمنازل ، وعلى النواعير والحدائق والمتنزهات العامة ، وإذا كانت هذه

---

(106) وقد نقلها عنهم نصارى إسبانيا ، وكان هذا اللفظ « Noria » والوعاء الذي يستخدم في تلقي الماء من جوف الأرض وصبه على سطحها يسمى في العربية « القادوس » ، وهذا اللفظ انتقل إلى الإسبانية : Arcaduz . انظر د. محمود علي مكي ، ص 48 . مدريد العربية ، 1967 ، دار الكاتب العربي ، القاهرة .

(107) المرجع السابق ، ص 48 — 49 .

الطريقة منفذة في مجريط فربما لم تعدم قرطبة تلك الوسيلة ، وكانت هناك طرق أخرى لنقل المياه إلى المنازل وهي طريقة استخدام السقائين ، وكانت تلك الحرفة تحت رقابة المحتسب ، وكان يحدد لهؤلاء السقائين أماكن خاصة على نهر الوادي الكبير ، قال ابن عبدون : « كان يحدد لهم مواضع السقاية على النهر حد الملء والحصر (108) ، ولا يترك أحد يتسور عليهم في ذلك الموضع ومن تعدى سجن أو أدب » (109) .

وللمحافظة على نظافة تلك المياه كان المحتسب يأمر بمنع الدواب من الشرب من أماكن السقاية ، ويمنع كذلك النساء من أن يغسلن بالقرب من هذا الموضع ويحدد لهن مواضع أخرى ، ويمنع هرق (110) الزبول والأقذار على ضفة الوادي ، لكن خارج الأبواب في الفدادين أو في الجفاف أو في مواضع معلومة لذلك لا تكون بالقرب من الوادي ، وذلك للمحافظة على نظافة الماء وضرر التلوث على صحة الناس ، وأخطار الأمراض التي تنقل عن طريق التلوث .

أما طرق نقلها للمنازل فلعل ذلك باستخدام القرب المصنوعة من جلد الماعز أو الأسطال (111) ، هذا إلى جانب الآبار التي كانت في البيوت . ولعل سهولة الحصول على الماء من هذه الآبار كان يرجع إلى أن نهر الوادي الكبير يجري في جنوب قرطبة ، مما سبب ارتفاعا في مستوى المياه الجوفية قرب سطح الأرض في المدينة وأرباضها ، وبالتالي سهولة حفر الآبار في المنازل للحصول على الماء في الأماكن البعيدة عن النهر .

أما طرق نقل المياه إلى المسجد الجامع بقرطبة وقصور الخلافة فكانوا يجلبونها من جبال قرطبة على مسافات بعيدة ، مستخدمين مواسير من الرصاص تصل

---

(108) ربما أراد بذلك أن يكون لكل حي عدد محدد من السقائين يتلاءم مع كثافته السكانية ، ولهذا فإنه أوصى بألا يتعدى أحد السقائين على غير منطقته فيزاحم بها من حدده المحتسب من القائمين بهذه المهنة فيها .

(109) ابن عبدون 32 ، الترجمة الفرنسية ، 70 .

(110) هرق من أهرق أي صب . والزبول جمع الزبل وهو الروث .

(111) الأسطال جمع سطل وهو الكوز الكبير .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

بين الجبل وبين الجامع والقصر ، وتملأ البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية والمنقوشة (112) التي توجد في القصور ، وربما كان بعض أصحاب البيوتات القرطبية الميسورة تنقل إليهم المياه بتلك الوسيلة . وكثيرا ما كان يفيض نهر قرطبة ، وأحيانا يسبب هذا الفيضان أخطارا بالدور مثل الفيضان الذي تعرضت له قرطبة في سنة 401 هـ/1010 م وكان سببا في « هدم ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر ، ومات فيه نحو من خمسة آلاف نفس ردما وغرقا وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم » (113) .

المساجـد

المسجد الجامع :

ومن محاسن قرطبة تعظيم أهلها لجامعها الأعظم (114) ، قال الرازي : « إن الجامع من إحدى غرائب الأرض الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه » (115) .

وفي وصف المسجد الجامع قال بعض المؤرخين أنه ليس في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة ، وكلما اجتمعت منه أربعة سوارٍ كان رأسها واحدا ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله .

وابتدأ بناء هذا المسجد المعظم عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل ، ولم يكمل في زمانه وكمله ابنه هشام ، ثم تعاقبت خلفاء بني أمية الزيادة فيه ، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء (116) .

---

(112) نفح الطيب 11/2 ــ 12 ، نقلا عن ابن بشكوال .

(113) ابن عذارى 105/3 .

(114) نفح الطيب 10/2 .

(115) المرجع السابق 7/2 .

(116) المرجع السابق 83/2 .

وذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة بأنه استخدم أعلاج النصارى مصفدين بالحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضا عن رجالة المسلمين (117) .

وعندما عزم المنصور بن أبي عامر على زيادة الجامع عوض أصحاب الدور التي ألحقت بالمسجد ، وقد ذكر ابن بشكوال أن المنصور كان يجلس بنفسه ويؤتى بصاحب المنزل فيقول له : « إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دارا عوضا منها (118) ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن المسجد فيها نخلة فقالت لا أقبل عوضا إلا دارا بنخلة ، فاشتريت لها دارا بنخلة وبولغ في الثمن » (119) .

وقيل إن إنفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحدا وستين ألف دينار ونيفا ، وكله من الأخماس .

وزيادة المنصور بن أبي عامر كانت عام 377 هـ/ 987 م ، وذلك بسبب زيادة عدد سكان قرطبة نتيجة لجلب قبائل البربر من العدوة وأفريقية (120) ، فضاق المسجد الجامع عن حمل الناس فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة . وبدأ ابن أبي عامر في هذه الزيادة على بلاطات طولا من أول المسجد إلى آخره (121) .

وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الإنفاق دون الزخرفة ، ولم يقصر ـــ مع هذا ـــ عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم .

(117) المرجع السابق 84/2 .
(118) المرجع السابق نفس الصفحة .
(119) المرجع السابق نفس الصفحة .
(120) المرجع السابق 86/2 .
(121) المرجع السابق نفس الصفحة .

ولن نتعرض في بحثنا هذا لعمران الجامع وأطواله وزياداته وبنائه من الداخل (122) ، وتطور الزيادة فيه (123) وأبواب الجامع (124) وأعمدته (125) ومنبره (126) والجب الذي في صحن الجامع (127) وصومعته (128) وثرياته (129) ، وإحراق الشمع والزيت والبخور (130) وتوزيع المياه في الجامع (131) ونقوشه الداخلية (132) في عهد الحكم والمنصور بن أبي عامر ، فقد عالجتها المصادر بالتفصيل .

والذي يهمنا في هذا الموضوع أنه في خلال القرن الخامس الهجري لم تبين لنا المصادر أنه حدثت زيادات أو نقصان للمسجد الجامع بقرطبة . ولقد كانت للمسجد الجامع بقرطبة مكانته الكبيرة عند القرطبيين ، حتى إنه عند رحيل أحدهم عن قرطبة كان يزوره متبركا به ، فالقاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية حينما قرر الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع متبركا ومودعا وأنشد لنفسه شعرا مرتجلا فيه (133)

أما بالنسبة للأذان في الليل فإنه يجب أن يكون بصوت منخفض حتى لا يقلق النائمين ، غير أننا رأينا ذلك لم يكن منفذا دائما ، ودليلنا ما ذكره ابن

---

(122) المرجع السابق 83/2 .
(123) ابن غالب 297 ، نفح الطيب 85/2 .
(124) نفح الطيب 88/2 .
(125) المرجع السابق 85/2 ، 87/2 .
(126) ابن غالب 298 ، نفح الطيب 89/2 .
(127) نفح الطيب 86/2 .
(128) المرجع السابق 95/2 .
(129) المرجع السابق 89/2 .
(130) ابن غالب 299 ، نفح الطيب 86/2 — 87 .
(131) المرجع السابق 92/2 .
(132) المرجع السابق 95/2 .
(133) التكملة ، ترجمة 1619 ص 576 .

سهل في نوازله في مسألة في الاحتساب على المؤذن أبي الربيع في أذانه بالأسحار وابتهاله بالدعاء (134) : « كان سليمان الشقاق متصرفا بين يدي الواعظ أبي العباس أحمد بن أبي الربيع الإلبيري الواعظ بجامع قرطبة ، فقام على هذا القائم عند الوزير علي بن ذكوان وهو في خطة إحكام السوق بالحسبة ، وذكر أنه يقوم بالأسحار في جوف الليل ويصعد على سقف المسجد الذي بقرب داره ويؤذن على السقف ويبتهل بالدعاء ، ويتردد في ذلك إلى أن يصبح . وقال القائم إن في ذلك ضررا على الجيران ، ووافقه القاضي على ذلك فأقر به إلا أنه قال إن قيامه لذلك قدر ساعة فشاور في ذلك ، وقال قد بلغكم هذا الذي خاطبتكم به فعرفوني بما ترونه موفقين ، فجاوب ابن دحون بأن « يؤمر هذا المقوم عليه أن يقطع الضرر عن جيرانه ، ويجري على ما كان يجري عليه الناس قبله من الأذان المعهود في الليل ، وعلى ما كان من أفعال الصالحين والاقتصار عليها ، وجاوب ابن جريج : « أحسن ما يفعله الناس اتباع السلف الصالح رحمهم الله وكل من فعل فعلا لا يشابه السلف الصالح بممنوع ومستحب أن يمنع منه » (135) .

التجميع بمسجد الزاهرة

لقد حاول المنصور بن أبي عامر بعد بناء مدينة الزاهرة أن يتخذ من مسجدها مسجدا جامعا إلى جانب وجود المسجد الجامع بقرطبة ، ونجح المنصور في ذلك وأصبح مسجد الزاهرة مسجدا جامعا في عهده وعهد ابنيه من بعده .

وقد استشار المنصور بن أبي عامر الفقهاء في التجميع فيه فمنعه من ذلك أكثرهم ، إذ لا يجمع في مصر واحد في جامعين ، ومضى أكثرهم على ذلك . وأفتى ابن العطار (136) في قليل منهم بجواز ذلك ، وحجته اتساع البلد وعجز

---

(134) ابن سهل 334 .

(135) المرجع السابق ، ص 335 .

(136) المتوفى سنة 399 هـ ، انظر ترجمته في ابن سهل ورقة 423 ، الصلة ترجمة 1048 ، ترتيب المدارك 4/650 — 656 .

كثير ممن يسكن هنالك عن الوصول إلى الجامع الأول حتى قاسوا بين المسجدين على أبعد الطرق بينهم فوجدوه نحو الفرسخ (137) .

وعمل ابن أبي عامر برأي من أجازه إلا أنه لم يجمع به حتى مات قاضيه ابن زرب الذي كان المنصور يستحي منه ، فدعا المنصور بن أبي عامر الفقيه أصبغ بن الفرج بن فارس الطائي (138) إلى تولي الصلاة والخطبة بمسجد الزاهرة ، وكان ممن لم ير ذلك ، فامتنع وقال : « سبحان الله يا منصور ! أنا لا أرى الجمعة أقيمت به فكيف أقوم بها ؟ » (139) فألزمه المنصور ذلك وأظهر إكراهه عليه فألح وامتنع وأقسم على ذلك ولو ناله العقاب ، فسخط عليه المنصور وعزله عن القضاء والفتيا ، إلا أنه سلم من أذاه .

وكان ممن سخط عليه المنصور لذلك أيضا أبوبكر بن وافد فأسقطه عن الشورى والشهادة وحدد إقامته ، واحتمل الباقون من ابن ذكوان والأصيلي وابن المكوى وابن جني وابن الصفّار فلم يغير عليهم شيئا (140) . وجمع ابن العطار في هذا الجامع وجلس فيه للفتيا والتعليم والتفقه ، وانفرد بالفتيا بين العمال والرعية وجعل ابن العطار قوما من رؤساء الفقهاء من سكان الربض الشرقي جوار هذا الجامع يشهدون الصلاة فيه لئلا يحقد ابن أبي عامر عليهم ، منهم الأصيلي وابن صاعد وابن الصفار وابن جني ، ولم يصنع ذلك ابنا ذكوان ثقة بمكانهما من المنصور بن أبي عامر .

وأعتقد أنه ظل التجميع بمسجد الزاهرة أيضا في عهد ابنيه عبد الملك وشنجول من بعده . أما مع بداية القرن الخامس الهجري فلقد فقد مسجد الزاهرة تلك الميزة ، وأصبح مسجدا عاديا تقام فيه الصلوات ماعدا صلاة الجمعة فقد كانت تؤدى بالمسجد الجامع بقرطبة .

---

(137) ترتيب المدارك 658/4 .

(138) المتوفى سنة 397 هـ وقيل سنة 400 هـ ، انظر ترجمته في الصلة ترجمة رقم 252 ص 108 ، 109 وترتيب المدارك 657/4 ـ 658 .

(139) ترتيب المدارك 658/4 .

(140) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وقد لعب المسجد الجامع بقرطبة دورا سياسيا في فترة الفتنة البربرية 399 هـ ـ 422 هـ/ 1008 ـ 1030 م فقد كان المسجد الجامع طيلة القرن الرابع الهجري هو المكان الذي كان يحضره الأمير أو الخليفة أو الحاجب لمشاهدة عقد ألوية الجيش الذي يغزو به بلاد النصارى (141) .

وفي سنة 399 هـ/ 1008 م ، عندما عقدت البيعة بولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر وخرج إلى غزاته ، حدث في المسجد الجامع بقرطبة في أول جمعة من جمادى الأولى وقت إنصات الناس للخطبة أول احتجاج فردى علني من فتى من عامة الناس من صناعة القطانين ، واعترض على الخطيب لما بلغ الدعاء لعبد الرحمن بولاية العهد فصاح بأعلى صوته : « آش هذا الدلس يا شيخ السوء ! » بأنكر صوت ، فلم يلبث أن ابتدره القوم فقبضوا عليه وحملوه إلى السجن (142) .

وكانت تحفظ في مقصورته أموال الأحباس ، وأثناء القتال بين المهدي وسليمان « جمع أهل قرطبة الأموال للإفرنج وسألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع لهم مال الأحباس المودع في مقصورة الجامع فرفض ، فكسروا باب المقصورة واخذوه فدفعوه إلى الإفرنج » (143) .

وفي سنة 400 هـ/1009 م ، عندما تم سليمان بن الحكم المستعين الانقلاب على ابن عبد الجبار ، نودي في الناس بالحضور في المسجد الجامع ليبايعوا سليمان ففعلوا ، وذلك في ربيع الأول من سنة أربعمائة (144) ، وكان قبل ذلك في جمادى الآخرة منذ شهر عقد ألوية جيشه في المسجد الجامع (145) .

---

(141) ابن عذارى 5/3 .
(142) المرجع السابق 54/3 .
(143) المرجع السابق 98/3 .
(144) المرجع السابق 91/3 .
(145) المرجع السابق 93/3 .

وفي سنة 401 هـ/ 1010 م في خلافة هشام المؤيد بلغ من كره أهل قرطبة للبربر ، أن من يتفوه بالصلح معهم يقتل حتى ولو كان هذا الحديث في المسجد الجامع ، فكأن المسجد الجامع أضحى مسرحا للقتل ، فقد قتل رجل من وجوه أهل العلم قال في الجامع : « اللهم أصلح علينا ! » فقتل في مكانه ، وقال آخر في الجامع : « إن الله أحب الصلح وأمر به » فقتل في الحين (146) .

وفي أثناء الفتنة البربرية كان وصول المترشحين للخلافة إلى المسجد الجامع مع اصطناع مظاهر القوة والدخول إليه في موكب فخم كفيلا بنيل الخلافة كما حدث في سنة 414 هـ/ 1023 م حينما خلع القاسم بن حمود بقرطبة وأقام أهل قرطبة إماما من بني أمية عسى أن يحيي دولتهم ، فاختاروا سليمان بن عبد الرحمن ولقبوه بالمرتضى ، فبينما هم يريدون تقديمه هجم عليهم في المسجد الجامع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار في شرذمة من الناس والجند شاهرين سيوفهم يدعو إلى نفسه فبايعوه بين مكره وراض (147) .

وشهد المسجد الجامع آخر خليفة أموي يسترحم الناس وأصحاب البيوتات في قرطبة للإبقاء على حياته ، حدث ذلك عندما قرر أهل قرطبة إبطال الخلافة وخلع هشام المعتد بالله ، نزل هشام إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة في ولده ونسائه يسترحم الجماعة بحفظه في ولده ونسائه ، وظل مكانه يومه وليلته أسيرا ذليلا حقيرا خائفا شاخص البصر ، حتى أخرج إلى حصن دون أن يأخذوا خطة بالخلع ولا شهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة (148) .

ومن هذا يتبين أن المسجد الجامع بقرطبة شهد أحداثا سياسية أثر بها على مجرى الأحداث في قرطبة في فترة الفتنة . ولم نجد تأثيرا سياسيا للمسجد الجامع في فترة الاستقرار في عهد بني جهور وعهد بني عباد والمرابطين .

---

(146) المرجع السابق 103/3 .

(147) المرجع السابق ، 135/3 — 136 ، أعمال الأعلام 134 .

(148) ابن عذارى 151/3 ، أعمال الأعلام 139 .

وشهد المسجد الجامع تدبير القرطبيين لإنهاء الخلافة (149) ، ونودي في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد من بني أمية بقرطبة ولا يَكْنُفَهم أحد (150) ، ولم تذكر المراجع إعلان إنهاء الخلافة بالمسجد ولكن أعتقد أن هذا الإعلان قرىء في المسجد الجامع بقرطبة على المصلين أيضا .

وفي عهد بني جهور لم يخطب باسم الشيخ أبي الحزم ولا ابنه أبو الوليد على منبر المسجد الجامع بقرطبة (151) ، وظل أبو الحزم بن جهور يؤذن على باب مسجده (152) طيلة رئاسته لحكومة قرطبة ، وحينما اعترف ابن جهور بالمشبّه هشام المؤيد الذي دعا إليه ابن عباد (153) خطب له فوق منبر المسجد الجامع بقرطبة (154) ، ثم رجع عن ذلك (155) . ولكن في عهد عبد الملك بن أبي الوليد بن جهوز خطب باسمه ذا السيادتين المنصور بالله والظافر بفضل الله فوق منبر المسجد الجامع (156) .

مساجد قرطبة وأرباضها :

هذا وقد كان بكل ربض من أرباض قرطبة الأحد والعشرين من المساجد ما يقوم بأهله (157) ، وقال ابن حيان إن عدة المساجد بهذه الأرباض مع المدينة العليا ألف مسجد وثمانمائة مسجد وستة وثلاثون مسجدا (158) . وذكر المقري

---

(149) ابن عذارى 151/3 .
(150) المرجع السابق 152/3 .
(151) المرجع السابق 233/3 .
(152) المغرب 56/1 .
(153) ابن عذارى 199/3 ، والمغرب 194/1 .
(154) المغرب 194/1 ، ابن خلدون 159/4 ، ابن عذارى 190/3 .
(155) المغرب 194/1 .
(156) ابن عذارى 233/3 ، 360 .
(157) نفح الطيب 7/2 .
(158) ابن غالب 296 .

نقلا عن ابن حيان أيضا : « إن عدة المساجد عند تناهيها في مدة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجدا (159) ، وفي التواريخ القديمة قيل إن بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وسبعين مسجدا (160) ، منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا ، لكن خالفهم صاحب المسالك والممالك فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وواحد وسبعون مسجدا » (161) .

وعدد المساجد أيام لمتونة والموحدين ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا (162) .

ونستعرض فيما يلي المساجد التي كانت موجودة بقرطبة وأرباضها في القرن الخامس الهجري ، يقدر ما أسعفتنا التراجم .

أ ــ « مساجد داخل المدينة »

مسجد بدر (163) ، ومسجد حكيم (164) ، ومسجد النشارين 165) ، ومسجد درب بني فطيس (166) ، مسجد سعيد بن عامر (167) ، مسجد الدرابيل (168) ، مسجد منظر (169) ، مسجد ابن أبي عيسى

---

(159) نفح الطيب 79/2 .
(160) المرجع السابق نفس الصفحة .
(161) المرجع السابق نفس الصفحة .
(162) المرجع السابق 78/2 .
(163) الصلة 361/1 .
(164) المرجع السابق 467/2 .
(165) المرجع السابق 161/1 .
(166) المرجع السابق 456/2 .
(167) المرجع السابق 194/1 .
(168) المرجع السابق 409/2 .
(169) المرجع السابق 195/1 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

القاضي (170) ، ومسجد غزلان السيدة (171) ، ومسجد عين طار (172) ، ومسجد أبي رباح (173) ، ومسجد عبادل (174) ، مسجد طرفة (175) ، مسجد المصحفي (176) ، مسجد سعيد الخير (177) ، ومسجد أبي خالد (178) ، ومسجد صواب (179) ، ومسجد أبي وهب بسويقة أبي نضير بقرطبة (180) .

ب ــ « مساجد بالربض الغربي »

مسجد السيدة قرب دار القاضي البلوطي (181) ، ومسجد ابن طوريل (182) ، ومسجد نفيس (183) ، ومسجد القمري (184) ، ومسجد يوسف بن باسيل برجة ابن درهمين (185) ، ومسجد النخيلة (186) ، ومسجد الفقيه أحمد بن عفيف ، ومسجد أسلم بحوانيت الريحاني(187) ،

---

(170) المرجع السابق 183/1 .
(171) المرجع السابق 67/1 .
(172) المرجع السابق 227/1 .
(173) ابن سهل ورقة 353 .
(174) ابن سهل 171 .
(175) ابن حزم : جمهرة انساب العرب 96 .
(176) التكملة ، ترجمة 1002 ص 343 .
(177) التكملة ، ترجمة 178 ص 54 .
(178) الصلة 262/1 .
(179) ابن سهل ، ورقة 257 .
(180) التكملة ، ص 492 .
(181) الصلة 364/1 .
(182) المرجع السابق 17/1 .
(183) المرجع السابق 16/1 .
(184) طوق الحمامة 135 .
(185) ابن سهل ، ورقة 388 ، الصلة 586/2 ، جمهرة أنساب العرب 98 .
(186) الصلة 210/1 .
(187) ابن سهل ورقة 173 ، الصلة 43/1 .

ومسجد الكهف (188) ، ومسجد الشفاء (189) ، ومسجد الروضة (190) ، ومسجد الزهراء (191)، ومسجد شريح (192) ، ومسجد مسرور (193) ، ومسجد ياسر (194) ، ومسجد الريحاني (195) ، ومسجد فخر (196) ، ومسجد الفقيه حاتم بن سليمان ابن يوسف بمقبرة بلاط مغيث (197) .

ج ـ « مساجد بالربض الشرقي »

مسجد مقبرة البرج (198) ، ومسجد أبي علاقة (199) ، ومسجد غالب (200) ، ومسجد ابن جهور (201) ، وكان أبو الحزم بن جهور يؤذن عند مسجدهم بالمربض الشرقي ويصلي فيه التراويح (202) ، ومسجد

---

(188) مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ص 168 ، نفح الطيب 13/2 .
(189) وصف جديد لقرطبة ص 168 ، المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي 46 .
(190) وصف جديد لقرطبة 168 .
(191) ابن عذارى 95/3 .
(192) جمهرة أنساب العرب 96 ، نقط العروس 73 .
(193) ابن سهل ، ورقة 347 ، وصف جديد لقرطبة 168 ، نفح الطيب 13/2 .
(194) الصلة 423/2 ، 470 .
(195) الصلة 470/2 .
(196) المرجع السابق 24/1 .
(197) ابن الفرضي ، ترجمة 355 .
(198) ابن سهل ورقة 388 .
(199) ابن الفرضي ترجمة 668 ، الصلة 320/1 ، التكملة ترجمة 56 ص 24 .
(200) الصلة 242/1 .
(201) ولم يذكر ابن خلدون اسم هذا المسجد ، وربما كان اسمه مسجد ابن جهور . انظر ابن خلدون 159/4 ، المغرب 56/1 .
(202) المرجع السابق نفس الصفحة .

الأمير (203) ، ومسجد فائق 204) ، ومسجد أبي عبيد (205) ، ومسجد الفقيه عبد الملك بن مسعود بن بشكوال (206) ، ومسجد غالب بالقرب من زقاق الشبلاري (207) ، ومسجد الأمير هشام بن عبد الرحمن (208) ، ومسجد الزاهرة (209) .

د ـ « مساجد شمال قرطبة »

مسجد أم سلمة (210) ، ومسجد الضيافة الذي دفن فيه قاضي الجماعة عبيد الله بن محمد بن أدهم المتوفى سنة 486 هـ (211) ، ومسجد أبي لواو ويعرف بمسجد الزيتونة (212) ، ومسجد الزجاجين (213) ، ومسجد متعة (214) .

هـ ـ « مساجد بجنوب قرطبة »

مسجد عجب (215) ، ومسجد الخشابين .

---

(203) ابن سهل 387 .
(204) الصلة 348/1 .
(205) الصلة 456/1 .
(206) الصلة 348/1 .
(207) المرجع السابق 242/1 .
(208) ابن سهل 338 ، الصلة 244/1 ، 252 .
(209) ترتيب المدارك 657/4 .
(210) نفح الطيب 13/2 .
(211) الصلة 293/1 .
(212) الصلة 340/1 .
(213) المرجع السابق 169/1 .
(214) ابن سهل 347 ، الصلة 49/1 ، التكملة 97
(215) ابن سهل ورقة 337 .

و ـــ « مساجد لم نتعرف على مواقعها »

وهناك العديد من المساجد لم نتعرف على مواقعها في قرطبة وهي : مسجد السقا (216) ، ومسجد حليم (217) ، ومسجد أبي عبدة (218) ، ومسجد أبان (219) ، ومسجد ابن ضرغام (220) ، ومسجد ابن جيويه (221) ، ومسجد القلاسين (222) ، ومسجد ابن إدريس (223) ، ومسجد مكرم (224) ، ومسجد الاسكندراني (225) ، ومسجد بنفسج (226) ، ومسجد طالوت (227) ، ومسجد الكوابين (228) ، ومسجد اعتزاز (229) ، ومسجد أم معاوية (230) ، ومسجد الليث (231) ، ومسجد مهران (232) ، ومسجد عبد الله البلنسي (233) ، ومسجد ابن

(216) الصلة 34/1 .

(217) المرجع السابق 604/2 .

(218) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص 46 ، مسجد الحاجب عيسى بن الحسن ابن أبي عبدة ، الصلة 254/1 .

(219) الصلة 470/2 «مسجد رحبة أبان » التكملة 251 .

(220) الصلة 475/2 .

(221) المرجع السابق 243/1 .

(222) المرجع السابق نفس الصفحة .

(223) المرجع السابق 457/2 .

(224) المرجع السابق 87/1 ، 295 .

(225) المرجع السابق 53/1 ، التكملة ترجمة 153 ص 47 ، ص 253 .

(226) الصلة 55/1 .

(227) التكملة ص 389 «وينسب إلى طالوت بن عبد الجبار بن محمد بن أيوب » ، التكملة ترجمة 279 ص 84 ـــ 85 .

(228) التكملة ، ترجمة 267 ص 80 .

(229) المرجع السابق ترجمة 194 ص 61 .

(230) المرجع السابق ترجمة 1620 ص 577 .

(231) الصلة 184/1 .

(232) المرجع السابق 473/2 .

(233) ابن سهل 108 ، الصلة 318/1 ، التكملة ص 244 .

وضاح (234) ، ومسجد الصينى (235) ، ومسجد يحيى (236) ، والمسجد الذي بشرقي مقبرة قريش (237) ، ومسجد ابن عتاب المعروف بمسجد غانم (238) ، ومسجد الفقيه أحمد بن محمد بن بشر (239) ، ومسجد رحلة الشتاء والصيف عند مقبرة مؤمرة (240) ، ومسجد الغازي (241) ، ومسجد أم هشام (242) ، ومسجد أبي الوليد (243) ، ومسجد ابن الشرح (244) ، ومسجد أم الحكم المستنعر (245) ، ومسجد فرانك (246) ، ومسجد أبي حامد (247) ، ومسجد محمد بن عبد الملك بن يحيى (248) ، ومسجد الفقيه محمد بن يوسف بن محمد الأموي النجاد (249) ، ومسجد الفقيه عبد الرحمن بن خلف بن مسعود الكناني (250) ، ومسجد خلف الله بن يوسف بن فرج الأنصاري (251) ، ومسجد ابن أبي عثمان خارج قرطبة (252) ، ومسجد

---

(234) الصلة 304/1 .
(235) المرجع السابق 297/1 .
(236) المرجع السابق 469/2 .
(237) طوق الحمامة 44 .
(238) ابن سهل ، ورقة 388 .
(239) الصلة 32/1 .
(240) المرجع السابق 19/1 .
(241) المرجع السابق 36/1 ، التكملة ص 119 .
(242) ابن سهل ، ورقة 339 ، التكملة ص 251 .
(243) ابن سهل ، ورقة 365 .
(244) ترتيب المدارك 559/4 .
(245) التكملة ص 189 .
(246) جمهرة أنساب العرب 500 « وينتسب إلى زغلل بن يعيش بن فرانك » .
(247) المرجع السابق ص 327 .
(248) المرجع السابق ص 117 .
(249) الصلة 493/2 .
(250) المرجع السابق 330/1 .
(251) التكملة ص 61 .
(252) المعجب 100 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الفقيه أحمد بن وليد بن هشام بن أبي المفوز (253) ، ومسجد ابن السقاء (254) .

وبالرغم من الفتنة البربرية فإن المساجد لم تخرب فيما عدا مسجد الزهراء ، فقد نهب العامة حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه (255) .

ولعل سبب ذلك أن الزهراء كان يسكنها البربر ، ولما خرج المستعين لقتال الإفرنج خرج عامة قرطبة إلى الزهراء ونهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر وقتلوا من وجدوا بها ، ولعلهم خربوا مسجدها خوفا من أن يكون البربر قد اتخذوه حصنا لهم .

ومن المساجد التي خربت بعد مقتل صاحبها مسجد ابن السقاء الذي عطلت فيه الصلاة في رمضان 455 هـ/ 1063 م بعد مقتل مدبر الحكم الجهوري ، فيقول ابن حيان : « سلبت كسوة المسجد وثرياه وعطلت فيه الصلاة فصار مثوى للثاوي » (256) .

* * * *

المقابـــــر

في الأندلس كانت القاعدة في المآتم هي البساطة حين يشيعون موتاهم إلى مثواهم الأخير ، وكان نظام الدفن حفر القبر الذي كان يعمق في الأرض حتى لا تفوح رائحة الموتى ولا تتمكن السباع والكلاب من نبشهم (257) ، وأن يستر

---

(253) الصلة 21 .
(254) الذخيرة 191/1/4 .
(255) ابن عذارى 95/3 . .
(256) حسبما نقله صاحب الذخيرة 191/1/4 .
(257) السقطي في آداب الحسبة 68 .

ما خرج لهم من عظام الموتى في التراب ولا يتركوه ظاهرا (258) ، وتحفر بالمواضع الصلبة من الأرض حتى لا تنهار (259) . وإذا كانت أرض المقبرة غير صلبة فإن الميت يدفن في تابوت من الخشب . ويرى ابن عبدون أنه يجب أن يزاد في طول توابيت القبور وفي سعتها قليلا ، « فإني رأيت ميتا قد أخرج من قبره ثلاث مرات ويعالج التابوت في ذلك ، ورأيت آخر يدخل فيه بالضغط » (260) .

وكانت رسوم الصلاة على الميت وغسل الجثة ثم تكفينها ودفنها لا تختلف عن المأخوذ به في المدرسة المالكية في المغرب وإفريقية في أي وجه من الوجوه (261) .

وكان هناك الكثير من الفقهاء الذين يقومون بغسل الموتى (262) . ذكر ابن بشكوال « أن الفقيه أحمد بن محمد بن عفيف كان يغسل الموتى ويجيد غسلهم وتجهيزهم وتوفي سنة 470 هـ (263)/ 1029 م ، وكذلك الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد (264) .

وكان كفن الموتى عبارة عن ثوب ، وقد يلبس الميت قميصا أو عمامة وإن كان البعض يوصي قبل موته بكفن معين ، قال ابن حيان : « إن الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أوصى أن يكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص أو عمامة » (265) .

---

(258) المرجع السابق نفس الصفحة .

(259) الطرطوشي « الحوادث والبدع » تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، 1959 ص 157 .

(260) ابن عبدون في القضاء والحسبة 48 .

(261) L. Provencal, Hist. Esp. Musl. Vol. III p. 406

(262) ابن أبي زيد القيرواني : الرسالة ، طبعة الجزائر 1968 ص 104 — 108 « فصل في غسل الميت وكفنه وتحنيطه وحمله ودفنه » .

(263) الصلة 43/1 .

(264) المرجع السابق 50/1 .

(265) الصلة ، ترجمة 557 ص 242 .

وكان المظفر عبد الملك بن أبي عامر إذا توفي أحد الفقهاء بعث إلى ذويه الأكفان رواية لمكانته ، ودليلنا على ذلك ما ذكره القاضي عياض عند ترجمته للقاضي أبي محمد الأصيلي الذي توفي سنة 394 هـ/1003 م ، إذ جهزه المظفر بن أبي عامر على عادته وبعث إلى ابنه أكفانا له وحنوطا من عنده رعاية لمكانته من أبيه المنصور (266) ، وكان قد أوصى قبل وفاته أن يدفن في خمسة أثواب (267) ، وأوصى الفقيه عمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي المتوفى في الوباء بقرطبة سنة 401 هـ/1010 م أن يكون كفنه دون القطن » (268) .

وكان الدفن يتم في المقبرة القريبة من سكن المتوفي ، وإن كان بعض الناس يفضل دفن موتاهم في مقبرة بعيدة عن سكنهم ، وربما كان ذلك راجعا لتجميع شمل الموتى من العائلة الواحدة ، ولعل دليلنا على ذلك ما ذكره ابن بشكوال في ترجمته للفقيه محمد بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن العطار ، وكان سكناه بربض ابن عيسى عند مقبرة الكلاعي (269) مجاورا الرملة ، قال ابن حيان : « توفي سنة 399 هـ/ 1008 م ودفن بمقبرة ابن عباس (270) » . وربما كان الدفن بمدينة بعيدة عن قرطبة ، فلمّا قتل علي بن حمود سنة 408 هـ/ 1017 م أرسل جسده إلى مدينة سبتة فدفن بها (271) ، وكذلك يحيى بن ذي النون حيث توفي بقرطبة سنة 467 هـ (272)/ 1074 م إذ أرسل تابوته ليدفن بمقابرهم بطليطلة (273) .

---

(266) ترتيب المدارك 648/4 .

(267) المرجع السابق نفس الصفحة .

(268) الصلة 375/1 .

(269) ابن الفرضي ، ترجمة 748 .

(270) الصلة 460/2 ، التكملة ترجمة 179 ص 57 ، ترجمة 965 ، ص 327 ، ترجمة 1154 ص 402 .

(271) البيان المغرب ، 122/3 .

(272) أعمال الأعلام ، 178 .

(273) الحلة السيراء 177/2 ، أعمال الأعلام 179 .

وكذلك رأينا أن بعض القرطبيين من كان يموت منهم بعيدا عن قرطبة كان يرسل جسده ليدفن فيها ، مثل الفقيه عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون والد الوزير أبي الوليد بن زيدون الذي توفي بالبيرة في توجهه إليها لتفقد ضيعة كانت له بها ، وسيق إلى قرطبة ودفن بها سنة 405 هـ/1014 م (274) ، ومحمد بن أحمد بن محمد بن رشد من أهل قرطبة وقاضي الجماعة بها توفي بمراكش سنة 595 هـ/ 1198 ـ 1199 م وسيق إلى قرطبة فدفن بها (275) ، ومحمد بن موسى بن الوليد من أهل قرطبة وتوفي بإشبيلية 568 هـ/ 1172 م وسيق إلى قرطبة فدفن بها (276) .

وبالطبع كانت تلك عادة ليست قاصرة على أهل قرطبة في جمع شمل الموتى من أهلها بأن يدفنوا بها ، بل رأينا أن تلك كانت سمة عامة للأندلسيين بأن من يموت منهم في بلد يساق جسده إلى موطنه الأصلي سواء كانت قرية أو مدينة ليدفن بها (277) .

(274) الصلة ترجمة 574 ص 252 ، التكملة ترجمة 1279 ص 445 ـ 446 .

(275) التكملة ترجمة 853 ص 270 .

(276) المرجع السابق ترجمة 755 ص 231.

(277) من أمثال هؤلاء : مطرف بن عيسى بن لبيب بن محمد بن مطرف الغساني ، من أهل إلبيرة ومن ساكني غرناطة ، مات بقرطبة وحمل ميتا إلى البيرة فدفن بغرناطة سنة 356 هـ/966 ـ 967 ، انظر ابن الفرضي ترجمة 1443 . ومحمد بن أحمد بن إسحاق من أهل مرسية ، توفي ببلنسية وسيق إلى مرسية ميتا فدفن بها سنة 508 هـ/1114 م ، انظر الصلة ترجمة 1256 ص 540 . والفقيه محمد بن أحمد بن طاهر من أهل دانية توفي بمرسية 566 هـ/ 1170 م واحتمل إلى دانية فدفن بها ، انظر التكملة ترجمة 747 ص 226 . والفقيه محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج من أهل غرناطة وتوفي بإشبيلية سنة 567 هـ/ 1171 م واحتمل إلى غرناطة فدفن بها ، انظر التكملة ترجمة 750 ص 229 . ومحمد بن خير بن عمر بن خليفة من أهل إشبيلية توفي سنة 575 هـ/ 1179 م بقرطبة ثم نقل إلى إشبيلية فدفن بها ، انظر التكملة ترجمة 780 ص 242 . ومحمد بن يوسف بن محمّد بن يوسف من أهل شون من عمل بلنسية ، توفي بمربيط سنة 574 هـ/1178 م وسيق إلى بلنسية فدفن بها ، التكملة ترجمة 778 ص 239 . ومحمد بن إسماعيل بن عبد الملك من أهل إشبيلية توفي بمراكش 509 هـ/1115 م وسيق إلى إشبيلية فدفن بها ، انظر الصلة ترجمة 1277 ص 549 ـ 550 .

وسنحاول ما استطعنا تحديد أسماء وأماكن المقابر الموجودة بقرطبة وأرباضها .

كانت مقابر قرطبة توجد في أماكن عديدة ، فمقبرة الربض (278) توجد عند الشريعة القديمة (279) ودفن فيها الكثير من فقهاء القرن الخامس الهجري ، ذكر ذلك ابن بشكوال ، وليس هذا دليلا على أنها مقبرة خاصة بهم وبها رياض بني مروان المبنية على قبورهم بها (280) .

ومقبرة الربض العتيقة (281) ، ومقبرة مؤمرة (282) ، ومقبرة نجم (283) ، ومقبرة بني العباس (284) في الجانب الشرقي لقرطبة (285) ، والمقبرة الموجودة خلف باب القنطرة ودفن بها الفقيه الحسن بن أيوب الأنصاري (286) ، والمتوفي سنة 425 هـ/1033 م ، ومقبرة قمريش (287) وهي مقربة من دار الفقيه المشاور بن حي ، ومقبرة متعة (288) ، ومقبرة أم سلمة (289) بشمال قرطبة وخارج سورها (290) ، ودفن فيها الفقيه عبد الله بن سعيد ويعرف بابن الشقاق ، قال ابن حيان : « توفي سنة 426 هـ/ 1034 م » .

---

(278) الصلة 68/1 ، 69 ، 114 ، 115 ، 143 ، 171 ، التكملة ص 121 ، 525 .
(279) الصلة 143/1 .
(280) طوق الحمامة ص 22 .
(281) الصلة 169/2 .
(282) المرجع السابق 19/1 ، 23 .
(283) المرجع السابق 31/1 .
(284) ابن الفرضي ترجمة 749 ، 757 ، الصلة 84/1 ، 85 ، 109 ، 115 ، 126 .
(285) جمهرة أنساب العرب 333 .
(286) الصلة 135/1 .
(287) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ص 229 ، الصلة 17/1 ، التكملة ص 419 ، 420 .
(288) ابن الفرضي ترجمة 747 ، الصلة 242/1 .
(289) المقتبس 92 ، جمهرة أنساب العرب 99 ، الصلة/135/1 ، 195 ، 259 ، التكملة صفحات 9 ، 69 ، 122 ، 246 ، 253 ، 301 ، 377 ، 502 ، 509 .
(290) « هي أم سلمة بنت محمد بن الحكم الربضي تزوجها ابن عمها لَحًّا الأمير محمد بن عبد الرحمن وانقرض سائرهم » ، انظر جمهرة أنساب العرب 99 .

ومقبرة حلال بينها وبين مقبرة اليهود الطريق السالك بجوفي قرطبة (291) ، ومقبرة ابن خازم التي دفن فيها القاضي حسن بن محمد بن ذكوان سنة 451 هـ (292)/ 1058 م ومقبرة فرانك (293) بالرصافة التي دفن فيها الفقيه صالح بن عمر بن محمد ، ومقبرة طالوت (294) ، ومقبرة روضة الصلحاء قبلي قرطبة (295) ، ومقبرة باب عامر .(296) .

وكان بعض الفقهاء يدفن بمنزله ، فالفقيه أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد دفن في منزله ببلاط مغيث (297) بقرطبة سنة 401 هـ/ 1010 م . ولقد كان للفتنة البربرية أثرها المباشر في حالات الوفاة ، فلقد دفن الفقيه عبد الله بن محمد بن ربيع بن صالح سنة 415 هـ/ 1024 م برحبة عزيزة عند دار ابن شهيد ولم يُخرج به إلى المقبرة لشدة الخوف من البرابرة (298) .

وكان البعض الآخر يدفن في صحون المساجد ، قال ابن حيان إن الفقيه محمد بن أحمد بن مطرف الكناني المقرىء توفي ودفن عند باب عامر في صحن مسجد خرب بها (299) ، والفقيه إبراهيم بن محمد بن زكرياء المعروف بابن الافليلي توفي ودفن في صحن مسجد خرب عند باب عامر وصلى عليه محمد بن جهور وتوفى سنة 441 هـ (300)/ 1049 م .

(291) الصلة/ 295/1 .
(292) الصلة ترجمة 312 ص 136 .
(293) الصلة/ 231/1 ، التكملة ص 425 .
(294) التكملة ص 84 .
(295) التكملة ص 74 ، ترجمة 880 .
(296) ابن الفرضي ترجمة 567 .
(297) الصلة ترجمة 39 ص 29 .
(298) الصلة ترجمة 580 .
(299) الصلة ترجمة 509/2.
(300) الصلة 95/1 .

وكان بعض الفقهاء تعمل لهم مقبرة على باب دارهم ، ودفن الوزير القاضي أبو المطرف ابن فطيس المتوفى 402 هـ/ 1011 م بتربة سلفه على باب منازلهم وقرب مسجدهم (301) ، والفقيه محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد المعافري ، قال ابن حيان : « توفي 439 هـ/ 1047 م ، ودفن بالمقبرة على باب داره بالمربض الشرقي (302) » ، وكذلك الفقيه عبد العزيز بن محمد بن عيسى ابن فطيس المتوفى سنة 448 هـ/ 1056 م دفن في تربة على باب منزله (303) .

وكان البعض يوصي بالدفن في مكان معين ومحدد ، فالفقيه أحمد بن عبد الله بن أحمد التميمي توفي بقرطبة في أيام يحيى بن ذي النون سنة 467 هـ / 1074 م وأوصى أن يدفن بصحن غزلان السيدة (304) ، وكان البعض يدفن عند أبواب المساجد كالفقيه عبد الملك بن مسعود بن بشكوال ، توفي سنة 533 هـ/1038 م ودفن عند باب مسجده بطرف الربض الشرقي (305) ، والفقيه إبراهيم بن محمد بن زكرياء المتوفي سنة 441 هـ/ 1049 م ودفن في صحن مسجد خرب عند باب عامر (306) .

وذكر ابن الأبار أن الفقيه محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك من أهل غرناطة المتوفي سنة 510 هـ/ 1116 م دفن بروضة أبيه (307) . وكان البعض يدفن على ضفة النهر مثل الفقيه أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي المتوفي 391 هـ (308)/ 1000 م . وكان البعض يوصي أن يدفن حيث يقبض ، أوصى بذلك المنصور بن أبي عامر فدفن في قصره بمدينة سالم (309) .

---

(301) الصلة 300/1 .

(302) الصلة 502/2 .

(303) الصلة 352/1 .

(304) الصلة رقم 134 ص 67 .

(305) الصلة ص 348/1 .

(306) الصلة ص 95/1 .

(307) التكملة : ترجمة 515 ص 146 .

(308 ابن الفرضي : ترجمة 196 .

(309) نفح الطيب 93/4 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وكان البعض يدفن داخل قصر الخلافة بقرطبة ، مثل السيدة الكبرى أم أمير المؤمنين المؤيد بالله التي توفيت سنة 389 هـ/ 998 م ودفنت في القصر بقرطبة (310) .

وكان بعض ملوك الطوائف يدفنون داخل قصورهم ، فقاضي إشبيلية ورئيسها محمد بن إسماعيل بن عباد المتوفي 433 هـ/ 1041 م دفن بقصر إشبيلية (311) ، والشيخ جهور بن محمد المتوفى 435 هـ / 1043 م دفن بداره (312) . وهناك بعض القصص التي تدل على صلاح وورع وكرامات بعض الفقهاء الموتى عند توديع النعش ، إذ يذكر أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف مثلا أنه رأى على نعش الفقيه حكم بن أحمد بن عيسى يوم دفنه 444 هـ/ 1052 م طيورا لم تعهد كانت ترفرف فوقه وتتبع جنازته إلى أن ووري في لحده (413) ، كذلك رؤى مثل ذلك على نعش أبي عبد الله بن الفخار (314) والفقيه أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله من أهل المرية والمتوفي في مراكش سنة 536 هـ/ 1141 م ، ظهرت له كرامات وندم السلطان على ما كان منه في جانبه (315) .

وذكر ابن الأبار أن الناس تزاحمت على نعش الفقيه علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي المتوفي 564 هـ/ 1168 م ، « وكانوا يتعلقون بالنطق وبالسقف ليدركوا النعش بأيديهم ثم يمسحون بها على وجوههم » (316) .

وكان بعض الناس يقومون قبل وفاتهم بنقش شواهد قبورهم أثناء حياتهم ، ولم يكن ينقص الشاهد سوى كتابة تاريخ الوفاة عليه ، وذكر ابن الفرضي أنه قرأ

---

(310) ابن الفرضي ترجمة 535 .
(311) الصلة 496/2 .
(312) الصلة ترجمة 300 ص 130 ، ابن خلدون 159/4 .
(313) الصلة ترجمة 337 ص 148 .
(314) المرجع السابق ترجمة 1113 ص 484 .
(315) المرجع السابق ترجمة 176 ص 83 .
(316) التكملة ترجمة 1858 ص 666 ـــ 667 .

تاريخ وفاة الفقيه سعيد بن عثمان بن منازل ببلده بجانة المتوفي سنة 335 هـ/ 946 م في لوح على قبره (317) . وذكر ابن الأبار في ترجمته للفقيه حسين بن أبي بكر الحضري من أهل دانية (318) قال : « قرأت في لوح رخام بإزاء قبره أنه توفي ليلة الاثنين لعشر بقين لربيع الأول سنة 500 هـ/ 1106 م ، وكان وقوفي على ذلك أثناء اشتغالي بقضاء دانية » .

وذكر ابن بشكوال في ترجمته للفقيه محمد بن خلف بن سعيد بن وهب ويعرف بابن المرابط (319) ، أنه كان مكتوبا في رخامة على قارعة الطريق عند باب بجانة : « هذا قبر القاضي أبي عبد الله بن المرابط ، توفي رحمه الله ونضر وجهه يوم الأحد لأربع خلون من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة » .

وكان أحيانا تاريخ الوفاة متبوعا بآيات قرآنية مناسبة للموقف ، وأحيانا أخرى مواعظ للقارئين (320) أو أبيات من الشعر تصف أعمال الفقيد وخدماته ، كما كان مكتوبا على قبر المنصور ابن أبي عامر (321) . وكانت وصية القاضي سعيد بن يحيى بن سعيد التجيبي من أهل طليطلة (322) الذي امتحن وسجن وتوفي في السجن بأن يدفن بكبله وأن يكتب فيحجر يوضع على قبره « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » ودفن سنة 472 هـ/ 1079 م .

---

(317) ابن الفرضي ترجمة 500 .

(318) التكملة ترجمة 78 ص 28 .

(319) الصلة ترجمة 1224 ص 527 ــ 528 .

(320) L. Provencal. op. p. 407

(321) نفح الطيب 375/1 ، الحلة السيراء 273/1 .

آثــاره تنبــيك عن أخبــاره حتـــى كأنك بالعيـــان تراه
بالله لا يأتي الزمـــان بمثلـــه أبــدا ولا يحمــي الثغــور سواه

(322) الصلة ترجمة 509 ص 218 .

وهذا معناه أن البعض كان يحفر قبره ويجهزه قبل وفاته ، قال ابن حيان : « إن محمدبن عبد الوارث القيسي النحوي احتفر قبره قبل وفاته بيوم وأعد أكفانه وجهازه » (323) .

وكانت حجارة المقابر في الأندلس إما ذات شكل مستدير أو غير محدود الشكل ، وكانت الحجارة تقطع من جبال قرطبة أو ذات شكل أسطواني خاصة في طليطلة . وكانوا أحيانا يبنون مقاما صغيرا فوق اللحد داخل حديقة وتحاط بحوائط ، مثل المقبرة المنسوبة إلى السيدة مرجان بمقبرة الربض بقرطبة ، وكانت حصينة الأبواب منيعة الأسوار (324) .

وكانت معدة للقاضي ابن زرب (325) .

وكانوا يبنون في هذه المقابر دورا للمبيت فيها ، ويرى ابن عبدون أن هدم دور المقبرة أولى الأشياء بالاحتساب (326) ، ولعل السبب في ذلك يرجع لاستنكاره أن يبيت الناس في تلك الدور .

ولقد أوصى يحيى بن عمر باتباع السنة النبوية في امتناع الناس عن البكاء والصراخ العالي على الميت (327) . ونهى كذلك عن لطم الخدود والنواح في حالة الوفاة (328) . ويرى ابن حبيب أنه يكره اجتماع النساء للبكاء على الميت سرا كان أو علانية وإن لم يكن معه نوح ، بل ويرى منع النساء من الخروج في الجنائز وإن كن غير نوائح (329) ، وإن كان مالك يرى أن إظهار الجزع حرام

---

(323) الصلة ترجمة 1085 ص 473 .

(324) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس 79 .

(325) L. Provencal. op. cit, p. 407

(326) ابن عبدون 27 ، 48 .

(327) يحيى بن عمر : أحكام السوق 143 .

(328) المرجع السابق 125 .

(329) ابن عبد الرؤوف 77 .

والنياحة حرام والبكاء مباح (330) ، كذلك شدد يحيى بن عمر على النساء في عدم الخروج إلى المقابر للترحم على الأزواج والأولاد (331) .

ويستخلص من نص لابن حزم أن الداعية تقوم في المأتم في وسط النساء في جملة البواكي والنوادب (332) ، وقال السقطي : « يمنع النوائح أن يكن حاسرات متكشفات الوجوه (333) » ، وكذلك تشدد الجرسيفي في منع النساء من اتباع الجنائز وزيارة القبور إلا مع زوج أو ذي محرم (334) ، وكذلك مع اختلاط الرجال بالنساء في المآتم (335) وقال الطرطوشي : قال مالك : « وأكره أن يخرج النّساء إلى الجنازة وإن كان (الميت) من أقاربها إلا الأبوين والزوج والولد والإخوة (336) .

أما الصلاة فإذا حضرت جاز لها الصلاة على الجنازة (337) .

ولم يكن المذهب المالكي وحده هو المتشدد في هذا الموضوع ، فالمآتم ممنوعة بإجماع العلماء على اختلاف مذاهبهم .

قال الشافعي : « وأكره المآتم وهو اجتماع الرجال والنساء لما فيه من تجديد الحزن (338) » ويكره المبيت في المقبرة ، وكذلك الاجتماع في الأيام التالية للوفاة وفي مناسبات الشهر والسنة وكذلك ما يوقد فيها من الشمع والبخور فتبذير وسرف (339) » .

---

(330) الطرطوشي : ص 159 .

(331) يحيى بن عمر : 125 .

(332) ابن حزم : طوق الحمامة 111.

(333) السقطي 68 .

(334) الجرسيفي ص 121 .

(335) المرجع السابق نفس الصفحة .

(336) الطرطوشي 163 .

(337) المرجع السابق نفس الصفحة .

(338) المرجع السابق ص 162 .

(339) المرجع السابق نفس الصفحة .

ويكره الضحك في الجنائز والتلهي عنها ، وينهى عن اتباع الجنائز بالنار والنياحة (340) .

وإن كان ابن عبدون أقل تشددا ، فهو لا يمانع من زيارة النساء للمقابر ولكن حريص على التشدد في مراقبة المقابر والطريق المؤدي إليها ومنع الباعة والشبان من التعرض لهن فيها (341) .

ويرى أنه لابأس من إرسال الطعام إلى أهل الميت ، وقد أمر بذلك النبيء عليه السلام (342) لأن ذلك من البر والتقرب للأهل والجيران فكان مستحبا .

وفي آداب المقابر يرى ابن عبدون أنه يجب أن تخلى أبنيتها من الباعة لأنهم يكشفون على النساء (343) ، ويمنع الرجال من الجلوس على أفنية القبور لمراودة النساء ويراقب المحتسب ذلك مرتين في النهار (344) . كذلك تغلق الكوى والغرف والأبواب المفتوحة من جهة المقابر لأن ذلك كشف على النساء (345) ، ويمنع القصاص والحساب الجلوس في أفنية المقابر أو الانفراد مع النساء في أخبيتهن . كذلك لا يجب أن يكون القارىء على الموتى شابا أو عزبا بل تقرأ النساء للنساء في المآتم ، وإن قرأ عميان للرجال فعلى حدة ومن وراء حجاب ، والنساء من حيث يسمعن (346) ، ويمنع من بسط الأقذار على أفنيتها مثل جلود الدباغين والرقاقين وشبه ذلك (347) .

(340) ابن عبد الرؤوف 76 .

(341) ابن عبدون 27 .

(342) ابن عبد الرؤوف 77 .

(343) ابن عبدون 27 .

(344) المرجع السابق نفس الصفحة .

(345) المرجع السابق نفس الصفحة .

(346) السقطي 68 .

(347) ابن عبدون 27 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

ويرى ابن سهل عدم وطء المسلمين المقابر راجلين أو على عجل ، ويستند في ذلك لآراء فقهاء قرطبة في القرن الرابع الهجري أمثال محمد بن لبابة وابن وليد وأيوب بن سليمان الذين رأوا منع المسلمين من وطء المقابر راجلين أو على عجل ، وكذلك يمنع النصارى من المرور عليها حتى ولو سلكوها أثناء جنائزهم (348) .

وأورد ابن سهل قضية شاور فيها بعض قضاة قرطبة الفقيه ابن عتاب في عهد امرأة أقرت فيه بعض الأشياء التي يهمنا منها في هذا المقام .. « أن يضرب خباء على قبرها ويقرأ القرآن على قبرها بأجرة ذكرتها وبيع بعض مالها لكفنها » فكان جواب عتاب في هذه النقاط «... وما عاهدت به من أمر كفنها وضرب القبة على قبرها فهذا مما لا يحتاج إلى الجواب فيه إذ نفذ من ذلك ما نفذ ، لكن قول مالك وأصحابه في ذلك أن من أوصى أن يكفن في سرف من الكفن فلا يجوز له منه إلا كفن مثله في غناه وفقره ، واختلف في ضرب القبة على القبر فكرهه بعضهم وأجازه بعضهم وفعله ، ورأيي فيه إنفاذ الوصية به لاختلاف أهل العلم فيه » (349) .

وفي أثناء الفتنة البربرية ويوم دخل البرابرة قرطبة سنة 403 هـ/1012 م لقى كثير من أهل قرطبة وعلمائها حتفهم بأيدي البربر ، ودفنوا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة ، مثل ابن الفرضي (350) ، وعبد الله بن حسين بن إبراهيم بن

---

(348) يرى فقهاء قرطبة «في مرور العجل على المقابر بمقبرة متعة وسلوك العجم بجنائزهم ، فالذي نرى أن يتقدم إلى العجالين ألا يسلكوا بعجلهم على المقابر ، وأن يكون مسلكهم بغربيها في الفناء المتسع الذي لا قبور فيه ، وينهى العجم عن المرور على مقابرنا لوطئهم قبور المسلمين ومشيهم عليها ، وقد نهي المسلمون من المشي عليها فكيف بأنجاس كفار ؟ ولهم متسع بشرقي المقبرة مع الدور أو في الأزقة الخارجة إلى الخندق بجوفي المقبرة ، قال بذلك محمد بن لبابة وقاله أيوب بن سليمان ، وليكن هذا المنع في جميع المقابر ، وقاله ابن وليد » انظر ابن سهل ورقة 340 .

(349) ابن سهل 64 .

(350) هو عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الحافظ صاحب تاريخ علماء الأندلس انظر ترجمته في الصلة 571 ص 247 .

حسين بن عاصم صاحب الشرطة (351) ، ويرى ابن الأبار أن سبب ذلك انشغال الناس بما دهمهم من تغلب البرابر عليهم وفتحهم قرطبة وغارتهم عليها وسبيهم لأهلها (352) .

وكان حكام قرطبة في القرن الخامس الهجري يشهدون جنائز الموتى (353) ، وكان الخليفة الأندلسي يشهد جنائز علية القوم من قضاة وفقهاء : شهد الخليفة محمد بن هشام المهدي وجميع رجال المملكة جنازة الفقيه الزاهد سليمان بن عبد الغافر (354) المتوفي سنة 400 هـ/ 1009 وصلى عليه .

وشهد واضح حاجب الخليفة هشام المؤيد جنازة الفقيه ابن المكوي (355) وصلى عليه القاضي أبوبكر بن وافد .

وشهد الخليفة المعتلي يحيى بن حمود جنازة قاضي الجماعة أبي العباس ابن ذكوان (356) المتوفي سنة 413 هـ/ 1022 م وجنازة الفقيه سعيد بن سلمة بن عباس صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة والمتوفي سنة 413 هـ (357)/ 1022 م .

وشهد الخليفة هشام بن محمد المعتد بالله جنازة قاضي الجماعة عبد الرحمن ابن أحمد بن بشر المتوفي 422 هـ (358)/ 1030 م ، وكان قد عزله عن القضاء سنة 419 هـ (359)/ 1028 م .

---

(351) التكملة ، ترجمة 1277 ص 444 ــ 445 .
(352) المرجع السابق ص 445 .
(353) ابن أبي زيد القيرواني : الرسالة «فصل في الصلاة على الجنائز والدعاء للميت» ص 108 ــ 114 .
(354) الصلة ترجمة 442 ص 193 .
(355) هو «أحمد بن عبد الملك بن هاشم الأشبيلي يكنى أبا عمر» ، انظر الصلة ترجمة 38 ص 28 .
(356) الصلة ترجمة 65 ص 38 .
(357) الصلة ترجمة 484 . ص214
(358) هو «عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية ، ويعرف بابن الحصار» انظر الصلة ترجمة 698 ص 313 ، 314 .
(359) ابن سهل : ورقة 327 ، الصلة 313/1 .

وكان الشيخ أبو الحزم محمد بن جهور يشهد جنائز عامة الناس وخاصتهم (360) ، وعند وفاة أم عجوز لبنى كوثر طلب بنوها أعاظم القرية لشهود جنازتها ، وكان ابن جهور يتقدمهم ، فلما ووريت ضرب على قبرها قبة عالية تمهيدا للمبيت عليها طول أسبوعها . ولقد سخر ابن حيان من هذا الحدث وعده من غرائب هذا الدهر (361) ، كما أنه وصف ذلك بأنه « من فعل الجبابرة » (362) وقال : « فقضى العجب بمشاهدة هذه النادرة في امرأة من نساء حثالة العامة مُرددة في الخمول ، لم يكن بينها وبين النباهة في كلا طرفيها نسبة ولا ظفرت ببعل مثر ولا ذريةنبيهة » (363) . وشهد ابن جهور جنازة الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكرياء المعروف بابن الإفليلي المتوفى سنة 441 هـ(364)/ 1049 م ، وجنازة الفقيه الزهراوي قال ابن حيان : « توفي الفقيه عمر بن عبيد الله بن يوسف بن عبد الله المعروف بالزهراوي سنة 454 هـ/ 1062 م وصلّى عليها محمد بن جهور (365) » .

وفي صلاة الجنازة كان الفقيه محمد بن عتاب يقرأ فاتحة الكتاب في الصلاة على الجنازة أثر التكبيرة الأولى اتباعا للحديث الثابت في ذلك عن النبيء عليه السلام (366) .

وشهد المعتمد بن عباد جنازة شيخ فقهاء الشورى بقرطبة وهو الفقيه محمد بن عتاب سنة 462 هـ/ 1069 م (367) . وقال ابن سهل إن المعتمد مشى راجلا على قدمه (368) .

---

(360) حسبما نقل عنه ابن بسام : الذخيرة 107/2/1 ، ابن خلدون 159/4 .
(361) ابن بسام : الذخيرة 106/2/1 .
(362) المرجع السابق 107/2/1 .
(363) المرجع السابق 107/2/1 .
(364) الصلة 95/1 .
(365) الصلة ترجمة 860 ، ص 379 — 380 ، الصلة 95/1 .
(366) الصلة 516/2 .
(367) الصلة ترجمة 1194 ص 517 .
(368) ابن سهل ورقة 422 ، الصلة 517/2 .

وكذلك شهد المعتمد بن عباد جنازة الفقيه أحمد بن محمد بن يحيى ويعرف بابن الحذّاء بإشبيلية وتوفي سنة 467 هـ/ 1074 م ومشى في جنازته راجلا (369) .

ولعلنا نستنتج من تلك النصوص أنه ربما شهد حكام قرطبة الجنائز لبعض الأشخاص وهم راكبون دوابهم وأن الترجل في الجنازة مرتبط بعظمة شخصية الفقيد ومكانته في المجتمع .

وحضر المأمون الفتح بن محمد بن عباد حاكم قرطبة جنازة الفقيه محمد بن هشام ابن محمد بن عثمان ويعرف بابن المصحفي المتوفي سنة 481 هـ (370)/ 1088 م .

وكذلك رأينا في نص آخر ذكره صاحب التكملة أن المستعين بن جعفر المؤتمن بن هود شهد جنازة الفقيه صاحب الأحكام خلف بن محمد بن خلف بن أحمد بن هشام العبدري من أهل سرقسطة والمتوفي بها سنة 493 هـ/ 1099 م — 1100 م ومشى أمامها راجلا من داره إلى قبره (371) .

ولكن لم تبين هذه المراجع هل كان يمشي الحكام خلف النعش أم أمامه ، ووجدنا في ترجمة عثمان بن سعيد بن عثمان المقرىء الذي توفي بدانية 444 هـ/ 1052 م أن السلطان مشى أمام نعشه (372) .

ويرى ابن أبي زيد القيرواني أن المشي أمام الجنازة أفضل (373) ، وعند وفاة الفقيه المشاور عبد الرحمن بن جرج المتوفي 439 هـ/ 1047 م صلى عليه بباب الجامع وعبر بنعشه في قارب لانقطاع القنطرة (374) .

---

(369) الصلة ترجمة 133 ص 65 — 66 .
(370) الصلة ترجمة 1221 ص 526/2 ، 527 .
(371) التكملة ترجمة 162 ص 49 .
(372) الصلة ترجمة 876 ص 387 .
(373) الرسالة : 106 .
(374) الصلة 318/1 .

ويذكر ابن بشكوال أن جنازة الفقيه عيسى بن خيرة ، مولى ابن برد المقرىء (375) ، كانت إحدى الجنائز المشهورات بالحفل .

أما زيارة المقابر فقد كانت عادة في المناسبات الدينية والأعياد والمواسم ، وإن كان الفقهاء يمنعون زيارتها لما فيها من تجديد الحزن (376) .

ولقد كان الناس يقبلون على زيارة قبور الفقهاء الصالحين تبركا بها ، فلما توفي الفقيه أحمد بن أيوب بن أبي الربيع الإلبيري واظب الناس على زيارة قبره أياما تباعا تبركا به (377) .

وذكر القاضي عياض أنه بعد وفاة الفقيه ابن العطار (378) « انتاب قبره طلاب العلم أياما ، ختم قراؤها على قبره القرآن ختمات وذلك أمر لم يعهد قبل بالأندلس » (379) .

وذكر ابن الأبار أن قبر أبي وهب القرطبي الزاهد المتوفي سنة 344 هـ/ 955 م ظل متبركا به مشهورا بإجابة الدعاء عنده ، إلى أن تغلبت الروم على قرطبة سنة 633 هـ/ 1235 م (380) .

وكان يوجد في رحاب المسجد الجامع بقرطبة مكان معين لصلاة الجنائز ، ولايترك أحد من الباعة يجلس فيه حتى تنقضي صلاة العصر (381) . وكان القاضي يرتب مؤذنا عند الباب الذي يصلي فيه على الجنائز لينذر الناس عند

(375) المرجع السابق ترجمة 943 ص 416 .
(376) الطرطوشي 162 .
(377) الصلة 53/1 .
(378) هو الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن العطار أبو عبد الله ، انظر ترجمته ترتيب المدارك 650/4 ، توفي عقب ذي الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة .
(379) ترتيب المدارك 656/4 .
(380) التكملة ترجمة 2029 ص 718 — 719 .
(381) ابن عبدون ض 23 .

الفراغ من صلاة الظهر والعصر على الصلاة على الجنائز ، ويذكر عددها وذكرانها وإناثها (382) ويمنع المؤذنون من النداء على الجنائز في داخل المسجد ويتركون على بابه (383) ، ويكره المشي أمام الجنازة بالاستغفار والتكبير (384) .

ويرى الطرطوشي أنه من البدع الإنذار للجنازة للمباهاة والتفاخر لكثرة الناس ، وكذلك الإنشاد ورفع الصوت عند حمل الجنازة (385) .

وكان بعد الانتهاء من دفن الميت يقف صاحب الميت ليشكر المعزين ، فقد توفيت ابنة أبي الوليد بن زيدون وبعد الفراغ من دفنها وقف الناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم (386) وأحيانا كانت تقال بعض الكلمات في ذكر صفات الفقيد ومحاسنه ، فرأينا بعد دفن الفقيه ابن المكوي قال أبو محمد بن الشقاق على قبره : « رحمك الله أبا عمر ، فلقد فضحت الفقهاء بقوة حفظك في حياتك ولتفضحنهم بعد مماتك ، أشهد أني ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجوهها كعلمك » (387) .

(382) المرجع السابق نفس الصفحة .
(383) ابن عبد الرؤوف 74 .
(384) المرجع السابق 76 .
(385) الطرطوشي 142 .
(386) نفح الطيب 105/5 .
(387) الصلة ترجمة 38 ص 28 ـــ 29 .

وكان الشعراء والأدباء يرثون من يتوفى من أصحاب الفضل والملوك والقضاة (388) ، ويرى الطرطوشي في التعزية أن « يعزي الكبير الصغير ، والرجل المرأةُ ، وإلا أن تكون شابة فلا يعزيها إلا ذو رحم » (389) .

وأضاف قائلا إن التصدي للعزاء بدعة ومكروه عند علمائنا المالكيين .

وكان لوفاة الزوج أثره السيء على زوجته ، حتى إن بعض الزوجات كن يحزن حزنا شديدا على هذا الفراق . وقال ابن حزم (390) إن زوجة يحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق بلغ أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة موته وجعلته آخر العهد به بوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

---

(388) رثاء ابن شهيد للقاضي ابن ذكوان ، انظر نفح الطيب 332/4 ، 333 ، رثاء ابن حزم لأبي محمد جابر المعروف بالعطار ، التكملة ترجمة 1 ص 4 ، رثاء ابن زيدون للمعتضد « ديوان بن زيدون » ص 152 ــ 157 ، رثاء ابن زيدون والدة المعتضد بن عباد ، المرجع السابق 123 ــ 127 ، رثاء ابن زيدون للقاضي أبي بكر بن ذكوان المرجع السابق ص 81 ــ 84 ، ورثاء ابن زيدون لابي الحزم المرجع السابق 36 ــ 38 ، رثاء ابن زيدون لوالدة ابي الوليد محمد بن جهور 38 ــ 41 ، قصيدة الشاعر أبي بكر بن حازم في رثاء أبو مروان بن سراج انظر الذخيرة 311/2/1 .

ورثاء ابن دراج للسيدة أم هشام المؤيد المتوفاة 389 هـ ، انظر ديوان ابن دراج تحقيق د. محمود مكي ص 119 ــ 123 .

ورثاء وتعزية للشاعر ابن دراج للمظفر عبد الملك عن طفل توفي له في حياة المنصور أبيه ، المرجع السابق ص 451 ــ 452 .

رثاء المعتمد بن عبّاد لولديه المأمون والراضي ، انظر قلائد العقيان 13 ، والمعجب 204 ــ 205 .

رثاء الشاعر أبي بكر بن سوار ليوسف بن تاشفين بقصيدة على قبره انظر البيان المغرب 47/4 .

رثاء الشاعر ابن اللبانة للمعتمد بن عباد بقصيدة على قبره مطلعها

ملك الملوك أسامع فأنادي ... أم قد عداك عن الجواب عوادي

انظر الكامل 249/10 ــ 250 ، المعجب 225 .

(389) الطرطوشي 158 .

(390) طوق الحمامة 65 .

وكذلك نرى شواهد كثيرة من وفاء الجواري المتخذات للمتعة عندما يموت مولاهن ، فنرى جارية تمتنع من أن يضمها مشتريها بعده إلى فراشه مع سائر جواريه ، ولما كانت تحسن الغناء فقد أنكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دثر بالرغم من ضرب سيدها الجديد لها غير مرة فأقامت على امتناعها (391) .

وكذلك بين ابن حزم أن عاتكة بنت قند زوجة أخيه الذي توفي في وباء الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة 401 هـ/ 1010 م ، حزنت عليه حزنا شديدا وحل بها السقم الدخيل والمرض والذبول ، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاما (392) . وكان أهل الأندلس عامة يلبسون الملابس البيضاء حدادا على الميت ومظهرا للحزن (393) .

الكنائـــس

يظهر أن الحرية الدينية التي كانت سائدة في الأندلس في ظل ملوك الطوائف حتى دخول المرابطين إلى هذه البلاد كان لها أثر في كثرة عدد هذه الكنائس في كثير من العواصم الأندلسية ، حيث كانت جاليات المستعربين كثيرة إلى حد ما مثل طليطلة وماردة وإشبيلية ، أما قرطبة فقد كانت فيها كنائس عديدة وكذلك عدد كبير من الأديرة في داخل المدينة وخارجها . ولقد أورد لنا العذري في كتابه « نصوص عن الأندلس » وعبد المنعم الحميري في كتابه « الروض المعطار » عددا من المواضع التي تبدأ بلفظ شنت ومعناه القديس أو القديسة (394) .

---

(391) المرجع السابق 80 .

(392) المرجع السابق ص 116 .

(393) نفح الطيب 404/4 .

(394) انظر العذري : شنت ألاية ص 117 ، شنت بريه 24 ــ 142 ، شنت بليق 76 ، 79 ، شنت بول 8 ، 137 ، شنت بول 122 ، شنت بيطر 10 ، 139 ، شنت طرش 109 ، 177 ، شنت طرهش 105 ، شنت مانكش 78 ؛ والروض المعطاء : شنت بول 31 ، شنت بيطر ص 145 ، شنت مرتين 105 ، شنت ياقوب 115 ، 116 .

ويذكر التقويم القرطبي الذي يرجع تاريخه إلى سنة 350 هـ / 961 م أنه كانت هناك كنيسة كبيرة في حي الطرازين ، وقد كانت هذه الكنيسة تحتفظ برفات القديس زيلو San Zoilo ورجال الدين Spera-in-Deo ، وأنه كانت هناك كنيسة أخرى غير بعيدة عن حي الرقاقين في غرب المدينة وكانت تحمل اسم شنت أجلح San Acisclа ، وأن هناك كنيسة ثالثة كانت تسمى كنيسة القديسين الثلاثة (395) Los tres Santos كانت في الموضع الذي تقوم عليه اليوم كنيسة القديس بطرس San Pedro .

ونعرف أنه كانت في فرضاجية السهلة وفي القنبانية كنائس تحمل اسم San Martin de Torres والقديسة إيولالية Santa Eulalia . وكان يلحق بهذه الكنائس عدد من الأديرة تعرف منها ديري طبنش Tabanos وأرملاط Armilat ، وإلى جوار هذا الدير الذي يجري بجانبه نهير صغير يحمل اسم وادي أرملاط Guadalmellato بين قرطبة وقرية القليعة Alcolea لقي عبد الرحمن شبخول حتفه في سنة 399 هـ/ 1008 م (396) .

وكان ينفق على الكنائس والأديرة من أموال مدّخرة من أفناد الجالية ، وكان كثيرا ما يزور الضيوف الكنائس والأديرة (397) ويجدون المآكل والمشارب (398) المختلفة . وكان مبنى الكنيسة عبارة عن وحدة معمارية مقفلة ،

---

(395) وأسماؤهم Marcial, Enero, Fausto
انظر L. Provencal, op. cit, p. 277 — 229
(396) ابن عذاري 37/2 .
(397) وقد بات الشاعر أبو عامر بن شهيد في إحدى كنائس قرطبة ليلة فقال في وصفها :

ولرب حان قد أدرت بديره ... خمر الصبا مزجت بصفو خموره
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم ... متصاغرين تخشعا لكبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عيني لرجو هديره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم ... لسلافه والأكل من خنزيره

انظر «المغرب في حلي المغرب» 81/1 ، نفح الطيب 66/2 — 67 .
(398) وصف الإدريسي كنيسة الغراب وديرها ، انظر « صفة السودان والمغرب والأندلس » ص 108 ، 181 . الحميري : « الروض المعطار » ص 2 .

ويرى توريس بلباس أن الكنائس المسيحية تختلف عن المساجد في أن الأولى تتكون من وحدة معمارية مقفلة ذات ، محاور ثابتة ، أما الثانية فهي تتكون من أروقة متوازية (399). وكانت مآذن المساجد الأندلسية أبراجا بسيطة تخطيطها مربع وثقل في حجمها عن أبراج الكنائس الشهيرة (400) .

وكان للمستعربين النصارى مقابرهم الخاصة الغربية من الأحياء التي كانوا يسكنونها ، وكان من بين هذه المقابر مقبرة تجاور مقبرة متعة الإسلامية .

أما بالنسبة لليهود فقد كان لهم أماكن عبادتهم الخاصة في قرطبة وهي البيعة الكبرى La Sinagoga ، وكان هناك باب في شمال المدينة يطل على هذا الحي يسمى باب اليهود . ولما كان موقع هذا الباب إلى شمال المدينة بعيدا عن حي اليهود الذي تحدثنا عنه ، فإن هذا قد يسمح باستنتاج أن اليهود كان لهم تجمع سكاني آخر قريب من هذا الباب ، بخلاف الحي الواقع قريبا من قصر الخلافة . وتعرف بفضل عبارة وردت في ترجمة عارضة في « صلة ابن بشكوال » أنه كانت هناك مقبرة لليهود وتوجد في شمال قرطبة يفصلها طريق عن مقبرة المسلمين (402) .

* * * *

أســوار قرطبــة وأبوابهـا

يتفق كل مؤرخي قرطبة المسلمين على أن مركز التجمع الرئيسي (أو المدينة) كان محاطا منذ أيام الرومان بأسوار متصلة ، وكانت هذه الأسوار مبنية بالحجر

(399) توريس بلباس ص 100 .

(400) المرجع السابق ص 104 .

(401) العذري 122 .

(402) الصلة ترجمة رقم 672 ، انظر خريطة تخطيط المدينة في نهاية البحث .

الجيري الذي كان يستخرج من الجبل الأسود Sierra Morena ، وهي سلسلة المرتفعات التي تقع إلى شمال المدينة . وهذا النوع من الحجر الجيري كان هشا ضعيف المقاومة ، ولهذا فإنه كثيرا ما كان يتهدم أو يتآكل بفعل تغيير الأحوال الجوية الطبيعية أو بفعل ما كان يقع من حروب ، مما أدى إلى عناية حكومات قرطبة المتعاقبة بترميم الأسوار وإصلاحها أو تعليتها من وقت لآخر .

ومن أول ما نعرفه من أعمال الترميم المذكورة في العصر الإسلامي ما قام به والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني في أوائل القرن الثامن الميلادي ، ثم قام بتجديد هذه الأسوار عبد الرحمن بن معاوية الداخل (403) مؤسس الدولة الأموية بعد ذلك بخمسين سنة في (149 هـ/ 776 م) . وقد بقيت هذه الأسوار المحيطة محتفظة بشكلها أما بعد سقوط قرطبة في أيدي النصارى فقد اختفت هذه الأسوار بالتدريج فلم يبق منها شيء ، ولو أن مواضع تخطيطها مازالت واضحة للعيان بحيث لا يصعب التعرف على الهيئة التي كانت عليها في العصر الإسلامي (404) .

وكانت الأسوار تحيط بقرطبة من جهاتها الأربع ، وكان الضلع الجنوبي محميّا بضفة « الوادي الكبير » ، على أن متطلبات الدفاع عن المدينة قد اقتضت مع السور الجنوبي حفر خندق مواز لضفة النهر ، ويشهد بوجود هذا الخندق المؤرخ الرقيق (405) الذي يذكر أنّ فيضانا عاليا للنهر وقع في سنة 401 هـ / 1010 م ، وترتب عليه إغراق الربض الشرقي لقرطبة وتدمير ألفين من المنازل وموت أكثر من خمسمائة . ويذكر الرقيق أن معظم أجزاء السور الجنوبي قد تهدم بفعل ذلك الفيضان ، وأن حطامه وأحجاره قد ملأت الخندق المذكور .

(403) نفح الطيب 31/1 .

(404) L. Provencal, op. cit, p. 364

(405) حسبما نقله عنه ابن عذاري : البيان المغرب 105/3 .

وكانت أسوار المدينة في شكل شبه معين متوازي الأضلاع تقريبا ، أما الضلع الجنوبي الموازي لضفة النهر فقد كانت تقطعه الطريق المتصل بالقنطرة الرومانية القديمة (التي جددها المسلمون) والتي كانت تصل قرطبة بربض شقندة ، وكانت الأسوار الجنوبية تمتد على جانبي مدخل القنطرة ، وفي الطرف الجنوبي الغربي كان السور يتجه إلى الشمال مؤلفا الجانب الغربي منه ، ثم يتجه شرقا على طول نحو ألف ومائتي متر ، ثم يتجه إلى الجنوب في خط شبه مستقيم حتى يتصل من جديد بالطرف الجنوبي الشرقي (406) ، وهكذا كان طول هذه الأسوار في جملتها لا يكاد يتجاوز أربعة كيلومترات (407) .

وهذا التقدير يتفق مع ما ذكره ابن حوقل (408) الذي يشير إلى أنه قام أكثر من مرة بالسير حول أسوار المدينة ، ولم يكن ذلك يستغرق منه أكثر من ساعة كما ذكر الإدريسي أن قرطبة المدينة وأرباضها تمثل « مدنا يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز » (409) . بل إن كل ربض كانت له أسواره المحيطة به من جميع الجهات ، وأضاف الإدريسي أن مدينة الزهراء « كانت قائمة الذات بأسوارها » (410) .

وكان يتخلل أسوار مدينة قرطبة سبعة أبواب (411) : الباب الرئيسي كان قريبا من قصر الخلافة ومسجد الجامع ، وهو الذي يسمى باب القنطرة ، وكان يطل

(406) L. Provencal, op. cit, p. 366

(407) يرى صاحب وصف جديد لقرطبة : « أن مساحة قرطبة التي دار السور عليها دون الأربض طولا من القبلة إلى الجوف ألف وسبعمائة ذراع ، وعرضها من المشرق إلى المغرب ألف وأربعمائة ذراع ، وكان دور قرطبة المسور بطول الأربض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع » . انظر «وصف جديد لقرطبة » ص 168 .

(408) صورة الأرض 112 — 113 .

(409) «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ، ص 208 ، « الروض المعطار » ص 153 .

(410) الإدريسي ، ص 212 .

(411) انظر حول هذه الأبواب :
العذري ص 122 ، وصف جديد لقرطبة ص 167 ، نفح الطيب 13/2 L. Provencal, L'Esp. M. au, X.S. (plan de la p. 205) ومقال مانويل أوكانيا خيمينث « أبواب مدينة قرطبة » في مجلة الأندلس ، العدد الثالث سنة 1935 ، ص 143 — 151 .

على الطريق المرصوف الذي كان يجري موازيا لضفة النهر ويسمى الرصيف ، ويتصل بهذا الباب القنطرة (412) الواصلة بين قرطبة وربض شقندة ، الذي هدمه الحكم الأول بعد ثورة الربض وهو الباب القبلي (413) .

ومن الطريق الخارج من القنطرة كان يتفرع طريقان ، أحدهما يؤدي إلى إشبيلية عن طريق استجة ، والآخر إلى إلبيرة وسائر مدن الأندلس الجنوبية ، وكان هذا الباب ــ « باب القنطرة » ــ يسمى أيضا « باب الوادي » و« باب الجزيرة » ، وكان عليه تمثال روماني قديم لاحدى الإلهات الوثنية ، وإن كان المسلمون يعتقدون أنه يمثل مريم العذراء (414) ، وخارج الباب جنات ونواعر وأرض وبساتين متصلة (415) .

وعلى مقربة من الطرف الجنوبي الشرقي كان هناك باب أمر بفتحه في الأسوار الحكم بن هشام الربضي ، وكان يسمى الباب الجديد (416) .

وعلى بعد ستمائة متر من هذا الباب إلى الشمال وجد باب ثالث يطل على المحجة العظمى التي كانت تسمى أيام الرومان Via Augusta والتي كانت تمتد من دقاش إلى سرقسطة طركونة ونربونة ، وكان هذا الباب يسمى « باب طليلطة » أو « باب رومية » ثم أطلق عليه اسم « باب عبد الجبار » نسبة إلى عبد الجبار بن خطاب بن نذير مولى معاوية بن هارون (417) ، وكان قد نزل قريبا منه فنسب إليه (418) . أما الباب الرابع فيقع في أقصى الشمال الشرقي وكان المسلمون

---

(412) العذري 122 .

(413) المرجع السابق نفس الصفحة ، نفح الطيب 13/2 ، وصف جديد لقرطبة 167 .

(414) ابن عذارى 14/3 .

(415) وصف جديد لقرطبة ، ص 167 .

(416) ذكره ابن بشكوال وصاحب وصف جديد لقرطبة بأنه يسمى « باب الحديد » ، انظر نفح الطيب 13/2 ، وصف جديد لقرطبة 167 ، ابن عذاري 73/3 .

(417) العذري 122 ، ابن الأبار «التكملة» ط . كوديرا ترجمة رقم 870 ص 279 ؛ أوكانيا خيمنث : أبواب قرطبة ، ص 147 .

(418) وصف جديد لقرطبة 167 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

يطلقون عليه أسماء عديدة « باب ليون » و« باب طلبيرة » و« باب اليهود » ، ثم غيره المسلمون تفاؤلا فسموه « باب الهدى » (419) .

وتسمية هذا الباب بباب اليهود هو الذي يجعل من المحتمل ــ لأول وهلة ــ أن يكون مطلا على حي يسكنه اليهود ، ومع ذلك فيبدو أن هذا الاحتمال بعيد ، إذ أن الحي اليهودي ــ على ما يبدو ــ كان يقع في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة ، بعيدا عن هذا الباب ، وعلى كل حال فإن هذا الباب كان يطل على مقبرة رومانية قديمة استخدمها المسلمون أيضا ، وربّما اليهود كذلك ، وكان يمتد منه الطريق المتجه شمالا إلى ضاحية الرصافة .

وأما الأبواب الثلاثة الباقية المفتوحة في السور فقد كانت تقع على الضلع الغربي منه ، وكانت بالترتيب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي : « باب عامر » و« باب الجوز » و« باب إشبيلية » وكان يسمى أيضا « باب العطارين » . أما باب عامر فقد كان يحمل اسم « عامر بن عمرو القرشي » وكان قد نزل قريبا منه (420) ، وهو شخصية قامت بدور في أحداث القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي . وأما «باب الجوز» فهو بغير شك الباب الذي يسمى الآن « باب المدور » Puerta de Al-modovar ويسميه بن بشكوال كذلك باب بطليوس ، ومازالت قاعدته الّتي كانت قائمة في القرن الرّابع في عصر الخلافة) قائمة حتّى اليوم ، وإن كان قد تعرّض لترميمات كان آخرها في سنة 1802 . وهناك أيضا باب الشكال وهو باب قد أقفل أيام العامريّين فلما قام محمد بن هشام المهدي بثورته كسر قفله واقتحمته الجموع القادمة من ناحية السوق والأرباض الغربية ، وهذا الباب هو الذي أظهر فيه المهدي هشاما المؤيد وأقعده بحيث يراه الناس في منظر يشرف عليه وعلى القنطرة عند غلبة البربر

---

(419) نفح الطيب 148/1 .

(420) وصف جديد لقرطبة 167 .

وأما الباب الأخير ـــ « باب إشبيلية » ـــ فلا يسهل الآن تحديده على خريطة قرطبة بسبب ما أصاب هذا الجزء من المدينة من تغيرات . وعلى كل حال فإن تسميته أيضا بباب العطارين يدل على وجوده على مقربة من حي كانت تكثر فيه حوانيت المشتغلين بهذه المهنة ، ويظهر من نص أورده ابن حزم في « طوق الحمامة (423) » كثرة من كان يتردد عليه من نساء عابثات .

ويبدو أن كل باب كان محصنا بمدخل يطل على داخل المدينة ، ومخرج يؤدي إلى خارجها ، وكانت ترابط في كل باب حامية تضمن التحكم في هذه الأبواب مدخلا ومخرجا ، بحيث تؤدي وظيفة دفاعية مهمة لحماية المدينة .

وفي أثناء الفتنة البربرية قام محمد بن عبد الجبار المهدي ببناء أبواب قرطبة (424) المتهدمة وترميمها ، ويذكر العذري (المتوفى 478 هـ/ 1085 م) أن أبواب المدينة التي يراها خمسة أبواب هي : باب القنطرة ، وباب (الحديد) ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وأن بابي عبد الجبار والجوز كانا مغلقين ، وأن باب عبد الجبّار كان مبنيا بالصخر (425) . وربما كان للفتنة البربرية أثرها في تعطيل هذين البابين وتهدمهما مما أدى بالسلطات القرطبية إلى إغلاقهما وبنائهما بالصخر .

استطعنا فيما سلف أن نعطي تصورا لخطط المدينة وأبرز معالمها في القرن الخامس الهجري ، وسنعرض بعد ذلك للحياة الاقتصادية فيها وللحياة الاجتماعية .

---

(421) حسبما نقله عند المقري . نفح الطيب 13/2 .

(422) L. Provencal, Hist. Esp. M.Vol. III.

(423) طوق الحمامة 115 .

(424) ابن عذارى 85/3 .

(425) نصوص عن الأندلس 122 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية في قرطبة في القرن الخامس الهجري

1 ــ السياسة الاقتصادية

2 ــ التجارة .

الواردات إلى قرطبة

الصادرات من قرطبة

التسعير والاحتكار

3 ــ الأسواق .

الرقابة على الأسواق

4 ــ الصناعة .

5 ــ النظم المالية .

المعاملات المالية

السكة

أحكام المعاملات في قرطبة .

6 ــ مستوى المعيشة .

1 ـ السياسة الاقتصادية

* السياسة الاقتصادية لقرطبة في ظل حلفاء الفتنة 399 هـ ـ 422 هـ .
* سياسة الجهاورة الاقتصادية .
* السياسة الاقتصادية لقرطبة في ظل بني عبّاد .
* السياسة الاقتصادية للمرابطين .
  * فتح المرابطين للأندلس لأسباب اقتصادية .
  * فرض ضريبة المعونة .
  * سياسة استغلال موارد الثروة وضرب العملة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

يرى ابن حوقل (1) ، الذي زار الأندلس في خلافة بني مروان ، أن موارد الخزانة تأتي من صفقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك . تلك كانت موارد الخلافة القرطبية ، ومنها تكونت الميزانية العامة للدولة ، وفي القرن الخامس الهجري كانت تلك صورة مصغرة لموارد كل مملكة على حدة من ممالك الطوائف الأندلسية .

وكانت ميزانية خزانة قرطبة تجبى من تلك الموارد .

لقد فشلت الحكومات القرطبية في فترة الفتنة (399 — 422) في توجيه السياسة الاقتصادية للبلاد وجهة تجلب الاستقرار والاطمئنان والرخاء الاقتصادي كما كانت في ظل الخلافة والحجابة .

وهذا أمر طبيعي ، فالدولة لم تستطع حماية مواردها ولا ممتلكاتها الخاصة ولا ممتلكات الأفراد ، وذلك بسبب الاختلاف على رئاسة الدولة من جهة ، وما

(1) صورة الأرض ، ص 104 .

تعرضت له من حروب وفتن استمرت أكثر من عشرين عاما تخرب فيها اقتصادها واستهلكت أموالها ومواردها ومدخراتها . هذا إلى جانب انفراد كل حاكم بالمقاطعة التي يحكمها ، وبذلك تقلصت قرطبة واقتصرت على المدينة وأحوازها من القرى الملاصقة لها . ولقد وقعت موارد الدولة ومؤسساتها في فترة الفتنة موقع النهب والسلب ، فذكر ابن عذارى (2) : « يقال أن عدّة من اتّبع المهدي من سفلة قرطبة ... أعمهم بالعطاء ، فمضت بالناس أيام لم يوجد فيها حجام ولا كناف ولا ذو مهنة دنيّة » (3) .

وانتهبت العامة الزاهرة وما كان فيها من الأموال والأسلحة والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب والخشب الضخم وغير ذلك مما حوته القصور وصار يباع بكل جهة ، لا يدافع عنه من يشار إليه بصلاح أو عفة ، إلى أن نزل رجال ابن أبي عامر وخدمته على الأمان ، فرفع النّهب عن الزاهرة وملكها عبد الجبار ابن عم القائم محمد ، فرفع الأيدي عن النهب لما بقي بداخلها ، وتمكن من بيوت الأموال فأخذ في نقلها إلى قصر الخلافة على سبيل من النهب إلى أن استصفى كل ما وجد بها . فيقال إن الذي وصل إلى القائم محمد من مال الزاهرة في ثلاثة أيام خمسة آلاف ألف دينار ـــ وخمسمائة ألف دينار (5,500,000 خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار) ، ومن الذهب ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار (1,500,000) ثم وجد فيها بعد ذلك خوابي مملوءة من الورق مدفونة في الأرض فيها مقدار مائتي ألف دينار » .

بتحليل هذا النص يتبين لنا أن الفتنة أثرت على الحالة الاقتصادية باستنفادها موارد الدولة ، عن طريق تخريب ونهب العامة لخزانة الدولة المتمثّلة في الأموال والأسلحة والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية وأبواب القصور وما حوته وبيع تلك الأشياء .

---

(2) ابن عذارى 61/3 ، نقلا عن كتاب الرقيق .

(3) في الأصل دلية ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وموضع النقط بياض في الأصل .

ثم أموال الخزانة العامة التي انتقلت من الزاهرة إلى قصر قرطبة وتشتمل على خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار ومن الذهب مليون وخمسمائة ألف دينار ، هذا إلى جانب خوابي مملوءة من الفضة ومدفونة في الأرض فيها مقدار مائتي ألف دينار واستغرق نقل تلك الأموال ثلاثة أيام ، ولعل استمرار تلك الفوضى يجعلنا نشك في صحة هذه المبالغ ولعلها كانت أكثر من ذلك .

وبالرغم من تلك الأموال كان ابن عبد الجبار مضيقا على أهل قرطبة ومفترسا للتّجار (4) ، وذلك لإنفاقه تلك الأموال في الحروب بل أخذ ما كان بقصر قرطبة والناعورة والرصافة (5) .

ولقد أثر على الحياة الاقتصادية في قرطبة حينئذ أيضا حادثان حدثا في سنة 401 هـ/1010 م ، هما نزول البربر وصاحبهم المستعين قرطبة سنة 401 هـ والخراب الذي سببه فيضان نهر قرطبة سنة 401 هـ/1010 م والذي استمر ثلاثة أيام (6) وتسبب في هدم نحو ألفي دار في أرباض قرطبة ، وما لا يحصى من المساجد والقناطر وموت نحو خمسة آلاف نفس ردما وغرقا ، وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم ، وهذا الخراب الذي سببه فيضان نهر قرطبة للأموال والأنفس يضاف إلى أحوال الفوضى السابقة ودخول البربر لقرطبة وتخريبهم للمدينة .

وكان لهذا أثره مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء ، حتى اضطر أهل قرطبة إلى التوجه إلى البوادي والسواحل ، ولما اشتد بهم الحال اضطر الناس لأكل الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة (7) . وأثر أيضا على استمرار سوء الأحوال الاقتصادية هزيمة البربر للقرطبيين وطلبهم الأمان ، فأمنهم المستعين وطلب منهم أموالا عظيمة ، وأغرم منها ابن السرح وحده مائة ألف دينار ، وأغرم كل واحد من الناس فوق طاقته (8) .

---

(4) ابن عذارى 99/3 .
(5) المرجع السابق نفس الصفحة .
(6) ابن عذارى 105/3 .
(7) المرجع السابق 106/3 .
(8) المرجع السابق 112/3 .

وفي عهد علي بن حمود سنة 407 هـ/1016 م عدل عن المجاملة التي كان يظهرها لأهل قرطبة ، وصب عليهم ضروبا من المغارم (9) وقبض دورهم وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم وأغرم عامتهم ، وتوصل إلى أعيانهم يقوم من شرارهم ، فلزموا البيوت وانطمروا في بطون الأرض ، حتى قل بالنهار ظهورهم وخلت أسواقهم . فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم (10) ، وفي آخر عهد خلفاء الفتنة كان أبو العاصي حكم بن سعيد القزاز وزير المعتد بالله يأخذ أموال التجار ، فيتكرم بها على البربر ويجزل لهم العطاء ، فبغضه أهل قرطبة وكان سببا في خلع الخليفة (11) .

ويرى أرشيبا لدلويس « أن الأندلس لم تتأثر كثيرا بسبب الاضطرابات التي صاحبت سقوط خلافة قرطبة ، إذ ظل ملوك الطوائف عل جانب كبير من الغني والتمدن (12) » . ونحن نوافقه على هذا الرأي ، ودليلنا على ذلك أن ملوك الطوائف قد نجحوا إلى حد كبير في استغلال إمكانيات مقاطعاتهم استغلالا اقتصاديا بشتى الطرق ، والتعسف والتشدد في جمع الضرائب منها وفرض المكوس على أهلها بطريقة تعود على هؤلاء الملوك بالنفع والثراء والغني ، أما فيما يتعلق بقرطبة فإنه لا شك في أنه كانت للفتنة على حياتها الاقتصادية آثار بالغة الضرر ، كما سبق أن أوضحنا .

واستقرت الأوضاع السياسية في قرطبة في عهد الشيخ أبي الحزم بن جهور ، الذي كان من أكثر رجالات قرطبة ثروة ، وقد وصفته المصادر بأنه كان رجلا نزيها عاقلا (13) عفيفا ، فقد حكم قرطبة بعقلية رجل المال الذي يدير أمر تجارته

---

(9) أعمال الأعلام ، 129 .
(10) ابن عذارى ، 123/3 .
(11) المرجع السابق ، 146/3 .
(12) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص 332 .
(13) الذخيرة ، 116/2/1 .

الخاصة ، فكان تاجرا وحكم قرطبة بعقلية التاجر ، وربط بين هدوء الأحوال السياسية والانتعاش الاقتصادي لقرطبة . يقول الحميدي (14) : « صير أهل الأسواق جندا ، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصلة عليهم ، يأخذون ربحها فقط ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ، ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها . وفرّق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت ، حتى إذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه » . من ذلك النص نرى أن طريقة الرئيس أبي الحزم بن جهور في الحكم من إسباغ للطمأنينة على الرعية وتأمين الأسواق جعلته يتبع تلك السياسة وأن يوزع على هؤلاء التجار وأصحاب الصناعات الأموال من بيت المال كأمانات عندهم يستغلونها ويأخذون أرباحها ، أما رؤوس الأموال فهي تحت إشرافه ومراقبته ، هذا في الوقت الذي وزع عليهم السلاح لحراسة متاجرهم وبيوتهم خوفا من الاضطرابات وتجددها .

وكان ابن جهور يتصرف في إعادة الاستقرار الاقتصادي لقرطبة تصرف التاجر الذي يدير أمر تجارته الخاصة وقد نجح فعلا في هذا الأمر ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان الخلفاء الأمويون يتصرفون في بيت المال بقدر أكبر من الحرية ، أما هو فكان بنظرة التاجر العاقل يرى أن بيت المال هو ملك للقرطبيين فلم ينقله إلى بيته ولم يضعه تحت تصرفه . قال ابن بسام (15) : «فصيّر ذلك بأيدي ثقات من الخدمة مشارفا لهم بضبطه ، فإن فضل شيء تركه بأيديهم مثقفا مشهودا عليه إلى أن يعن وجه تصرفه لا يلتبس بشيء منه ، ومتى سئل قال:ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم » .

وبالطبع حدد لنفسه وللوزراء راتبا معينا يتقاضونه في كل شهر من بيت المال ، فصار رقيبا على بيت المال ومشرفا على سجلاته ومراجعا في أي وقت لخزانة الدولة ،

(14) جذوة المقتبس ص 27 — 28 ، وانظر كذلك المراكشي : المعجب 111 — 112 ، وابن الأبار : الحلة السيراء 32/2 — 33 .

(15) الذخيرة : 115/2/1 ، ابن الأبار «الحلة السيراء» 31/2 ، ابن عذارى 186/3 .

وذلك حتى يكون متفرغا من جهة أخرى لإدارة أملاكه وتجارته ، فابن حيان (16) يضيف قوله : « فأعطي للسلطان قسطه من النظر ولم يخل مع ذلك من نظره لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينه على أغنى منه » .

فهو قد أحب المال ونجح في استثماره ، إلا أنه لم يستغل خزانة الدولة وأموالها ، حتى أن ابن حيان لاحظ بخله الشديد بالرغم من ثرائه ، واعتبر ذلك عيبا فيه فقال : « حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل » (17) .

وكان من النتائج المباشرة لسياسة أبي الحزم بن جهور الاقتصادية في المجال الداخلي تحكم قرطبة في مواردها وإشاعة الأمن في ربوعها ، فانعكس هذا على رخص الأسعار وانتعاش الأسواق وإقبال التجار من كل مكان ولهذا غلت الدور (18) .

وقد اتبع بن جهور سياسة خارجية انعكس أثرها على نشاط قرطبة الاقتصادي ، تلك هي حفظ الجوار وحسن التعامل مع ممالك الطوائف الأخرى ، (19) فأصبحت قرطبة بلدا محايدا بين ممالك الطوائف المتنازعة ، وقد صور ابن الأبار هذه السياسة أجمل تصوير حين قال : « إن جهور صارفيهم (ملوك الطوائف) كموسى آل فرعون وعظا وتذكرة » . وأن « ملوك الفتنة حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة بمكابدة الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله (20) .

ولعل ذكر هذه العبارة « حتى ألانها بضروب احتياله » يدل على ذكاء ابن جهور وقدرته ، فقد حاول جهد طاقته أن يصلح بين أمراء الطوائف ، وأن يتخذ

---

(16) فيما نقله عنه ابن بسام في الذخيرة 116/2/1 ، الحلة السيراء 31/2 ، ابن عذارى 186/3 .

(17) الذخيرة 116/2/1 ، الحلة السيراء 31/2 ، ابن عذارى ، 186/3 .

(18) الذخيرة 117/2/1 ، الحلة السيراء 32/2 ، ابن عذاري 187/3 .

(19) أعمال الأعلام ، 148 .

(20) الحلة السيراء 32/2 ، ابن عذارى 187/3 .

من إمارته القرطبية بلدا تستثمر فيها الأموال من بلاد الأندلس كلها ، وكان من نتائج ذلك كما ذكر ابن حيان (21) أن « رخت الأسعار ، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا فلبوه من كل صقع ، فظهر تزيد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها » .

هكذا كانت قرطبة في هذا العهد بلدا مفتوحا أمام كل أمير مخلوع (22) من ملوك الطوائف يلجأ إليها بأمواله ورجاله ، فأصبحت مركز جذب لهؤلاء الأمراء ورؤوس أموالهم ، وكان ذلك عاملا من عوامل رخاء الاقتصاد القرطبي وانتعاش التجارة الداخلية والخارجية فيها ، وذكر ابن عذارى : « أن ابن جهور يجري على بعضهم الأرزاق الواسعة ، إلى آخر عمره (23) » .

ولم نعثر على عملة قرطبية سكت في ظل أبي الحزم بن جهور ، وربما يكون ذلك راجعا إلى أن كل ملوك الطوائف بالأندلس قد ضربوا العملة بأسمائهم في مقاطعاتهم ، وأن قرطبة كانت سوقا لتداول هذه العملات ، أو أنه أراد أن يحمي قرطبة من أطماع الممالك الأندلسية ويثبت حياده وعدم طمعه في السلطة للقرطبيين وللملوك الطوائف عن طريق عدم ضرب عملة باسمه .

كما أراد أن يجذب إلى قرطبة العملات الأندلسية الأخرى لتتداول في أسواقها وتستثمر فيها ، ولا تكون عملتها منافسة لتلك العملات الأخرى . وأراد أن يجمع أكبر قدر ممكن من العملات الأندلسية لإعادة تعمير قرطبة بعد أن خربتها الحروب الأهلية .

أما بعد سنة 439 هـ/1047 م فإن أبا الوليد بن جهور قد بدأ في سك العملة (24) . ويرى بريتو بيبس أنه بعد سنة 430 هـ/1038 م قلت كمية الفضة التي كانت متداولة في الأندلس وقلة هذا المعدن أدت إلى نوع من تخفيض العملة .

---

(21) حسبما نقل عنه ابن عذارى ، 187/3 .

(22) ابن عذارى 213/3 ، 240 — 242 .

(23) المرجع السابق 200/3 .

(24) Antinio Prieto Vives, Los Reyes de Taifas, p. 104

وسار أبو الوليد بن جهور على سياسة أبيه الاقتصادية للمحافظة على وضع قرطبة الحيادي ، فكان يرسل السفراء إلى ملوك الطوائف ومن هؤلاء ابن زيدون (25) وذكوان بن محمد بن ذكوان (26) ، وذلك للمشاركة في إحلال الهدوء السياسي في شبه الجزيرة الأندلسية المضطربة وما يتبع ذلك من انعاش اقتصادي في قرطبة .

ومن ناحية أخرى رأينا في نوازل ابن سهل قضية تفيد أن أبا الوليد بن جهور استغل نفوذه في الاستيلاء على جزء من قطعة أرض ، وأن أصحابها خافوا من عرض الأمر على القضاء في ذلك الوقت خوفا من سلطته وبطشه ورياسته للدولة ، ولكنهم بعد زوال أسرة بني جهور عرضوا القضية على صاحب المظالم بقرطبة وهي دعوى استرداد الحيازة ، ولقد أوردنا نصها وحكمها في فصل أحكام المعاملات في قرطبة (27) ، وكان حكم القضاء هو استرداد أصحاب الحق لأرضهم المغتصبة .

والسياسة التي اتبعها أبو الحزم بن جهور تغيرت بعض الشيء في عهد ابنه أبي الوليد ، فقد وصف ابن حيان سياسة ابن السقاء الاقتصادية فذكر أنه « بسط يده إلى مال الخراج واحتوى عليه يأخذه كيف يشاء وينفقه فيما يريد (28) » . ويضيف إلى ذلك ما أورده ابن سهل في نوازله في قضية حسبة عرضت على القضاء بعد موت الوزير ابن السقاء سنة 455 هـ/1063 م نستدل منها على أنه استغل أموال الدولة في إثراء نفسه وأقاربه مستغلا نفوذه ومركزه وسلطته . وأفتى الفقهاء ابن عتاب وأحمد بن محمد وموسى بن هذيل وعبيد الله بن مالك بأن « جميع نزكه الهالكين إبراهيم (والمقصود به ابن السقاء) ومحمد (وهو أخوه)

---

(25) الذخيرة 290/1/1 — 291 .

(26) ويكنى أبا حاتم وهو أخو القاضي حسن بن محمد بن ذكوان وكان أحد من يسفر لأبي الوليد بن جهور في الإصلاح بين الملوك . ذكره ابن حيان ، انظر « التكملة» ترجمة 210 ص 65 — 66 .

(27) ابن سهل ، ورقة 150 .

(28) الذخيرة 188/1/4 .

للمسلمين ، إلا ما صح ملكه لهما بوجوبه لهما ، وأنه لا تنفذ وصاياهما إلا فيما علم مما صح ملكه لهما (29) . وقد نفذ هذا الحكم .

وإزاء تنافس ابني أبي الوليد بن جهور على الحكم والسلطة في قرطبة رأى والدهما الشيخ توزيع تلك السلطات المدنية بينهما . يقول ابن حيان (30) : « ثم خاف عليهما (أبو الوليد بن جهور) فجعل إلى أكبرهما ــ عبد الرحمن ــ النظر في أمر الجباية والإشراف على أهل الخدمة والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والعقد والإطراح والضم وجميع أبواب النفقات ، ألجأ كل ذلك إلى خطه وأمضاه تحت حكمه ، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند والتدلي لعرضهم والإشراف على أعطيتهم والركوب فيهم ... » .

لكن عبد الملك استأثر بتلك السلطات واستبد بالأمر دون أخيه ، وكانت سياسته الاقتصادية في قرطبة فيها إجحاف بالقرطبيين ، فلقد استباح أموال المسلمين (31) . ونحن أمام هذا النص نقرر أنه ربما كان مستغلا لأموال الدولة في أغراض لا تعود على القرطبيين بالنفع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن عبد الملك تورط في مساندة التحالف السياسي الذي قام بين بعض ملوك الطوائف ومعهم باديس صاحب غرناطة لمهاجمة حصن من حصون بني دمر كما نبه إلى ذلك ابن عذارى (32) .

ولا شك في أن اشتراك بان جهور في هذا التحالف جعله يجهز جيشا كلفه أموالا طائلة ، مما أثر على الحالة الاقتصادية لقرطبة في آخر عهده ، كذلك كان حصار ابن ذي النون لقرطبة أثره على الأحوال الاقتصادية الداخلية ، فضاقت

(29) ابن سهل ورقة 223 .
(30) الذخيرة 122/2/1 .
(31) ابن عذارى 260/3 .
(32) المرجع السابق 269/3 .

مكتبة المهتدين لدراسة الإسلام ومقارنة الأديان

قرطبة بأهلها وانقطعت عنهم المرافق (33) فاستغاثوا بابن عباد الذي أتى بجيشه واستولى على قرطبة . تلك الأحداث السياسية أدت إلى عدم الاستقرار الاقتصادي وإلى قلق عام في الأسواق وركود في الحالة التجارية والصناعية .

وأما الانقلاب السياسي الذي قام به ابن عكاشة لصالح بني ذي النون واستمرار حكمه لقرطبة ما يقرب من أربع سنوات (467 ـــ 471 هـ) فقد أدى إلى كساد الأحوال الاقتصادية في المدينة .

لكن خضوع قرطبة سياسيًا لإشبيلية في مشاكلها الخارجية وحروبها مع القوى المسيحية النشطة جعل خزانة قرطبة تتكلف بعض الأموال نتيجة المساهمة في تلك السياسة ، وكان ملوك الطوائف يدفعون الجزية لألفونسو السادس ملك قشتالة (34) ، ومنهم ابن عباد (35) . قال عبد الواحد المراكشي : « فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلّا يؤدي إليه الاتاوة (36) » ، ويقصد ألفونسو السادس ، ولم تبين لنا المصادر هل غرمت قرطبة مبالغ مالية لتسديد جزء من هذه الجزية لألفونسو أم لا ، ومن جانب آخر فإن الأندلسيين قد أثقلتهم الضرائب الجديدة التي فرضها ملوك الطوائف نتيجة لتجهيز الجيوش الأندلسية لمحاربة ألفونسو السّادس ، وكان من نتيجة ذلك أن فوض الأندلسيون الفقهاء عنهم لرفع تلك المكوس ، فلم ينجحوا إلّا بتوسط يوسف بن تاشفين عند ملوك الطوائف فامتثلوا لأمره ، فلما عاد إلى المغرب رجعوا إلى حالهم (37) . وربما تحمل القرطبيون أيضا جزءا من نفقات الجيش المرابطي من ميرة وعلوفة أثقلت كاهلهم .

ولقد وصف لنا عبد الله بن بلقين في مذكراته أحوال ممالك الطوائف الاقتصادية آنذاك قائلا : « ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق

(33) المرجع السابق 283/3 .
(34) ابن خلدون 156/4 ، 186/2 .
(35) المرجع السابق 158/4 .
(36) المعجب في تلخيص أخبار المغرب 193 .
(37) ابن خلدون 158/4 ، الاستقصا 50/2 .

رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليه مع احتياجهم إلى الإنفاق ما قلق به وساء الظن من أجله ، جيش يكلفونه كل عام ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة وتحف متوالية لو فرط منها في شيء لانخرمت عليهم الأحوال ، ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة أو امتناع يؤدي إلى استئصال كالذي جرى (38) » .

أما فتح المرابطين للأندلس ، هل كانت بسبب مطامع اقتصادية أم لا ؟

لقد كان توسع المرابطين وفتوحاتهم في المغرب توسعا تحدوه أسباب اقتصادية ، فقد اتجهوا صوب الأقاليم الزراعية المستقرة الغنية ، وكانت حكومتهم في المغرب أكثر تنظيما من حكومات القبائل الواقعة إلى الشرق منهم والتي بدت عاجزة إطلاقا عن إقامة حكومة (39) .

وإذا كان اتجاه المرابطين إلى الأندلس في أول الأمر اتجاها دينيا لمساندة ملوك الطوائف ، إلا أنه سرعان ما تحول هدفهم وأصبح هدفا اقتصاديا نظرا لغنى تلك البلاد وكثرة مواردها . وكان المعتمد بن عباد لا يخفى عليه هدف المرابطين الاقتصادي في التوسع ، وبالرغم من ذلك فقد سارع بالاستنجاد بهم ، ولم تغب عن ذهنه أطماعهم الاقتصادية ، ومع ذلك فإنه في غمرة حماسه لإنقاذ الإسلام في الأندلس ، لم ير بأسا من استدعائهم على الرغم من تحذير بعض أصحابه له من خطر الوقوع تحت نفوذ المرابطين . ومن هنا كانت عبارته المشهورة « ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الإفرنج (40) » .

ويظهر أن جواز المرابطين إلى الأندلس اتخذ أولا هدفا دينيا ، ثم ما لبثوا أن ظهرت أطماعهم الاقتصادية ، ودليلنا على ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشي ، من أن يوسف بن تاشفين « نزل الجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من

---

(38) التبيان 109 .

(39) حول توسع المرابطين في المغرب انظر ابن خلدون 183/6 — 186 ، القوى البحرية والتجارية 365 .

(40) وفيات الأعيان 115/7 ، نفح الطيب 359/7 ، الروض المعطار 85 ، دوزى «ملوك الطوائف» 281 — 282 .

الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ، فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوق إلى مملكة جزيرة الأندلس (41) .

وبعد موقعة الزلاقة تطلع ابن ناشفين إلى خيرات الأندلس طمعا في الاستحواذ عليها ، فذكر صاحب المعجب « أنه ــ ويقصد يوسف ــ أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفي خلال ذلك كله يظهر إعظام المعتمد وإجلاله ويقول مصرحا : « إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عندما يحده »)42) .

ولعل صراحة النص السابق تؤكد أهدافه الاقتصادية ، وقد أضاف صاحب المعجب أن يوسف بن ناشفين قد ضرب لنفسه ولأصحابه أجلا ، وحدد له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها ، وإنما فعل ذلك تطييبا لقلب المعتمد وتسكينا لخاطره ، فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر يوسف إلى العدوة وقد أوغر صدره وتغيرت نفسه ، هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوقه إلى السيطرة عليها (43) .

ولما رجع يوسف بن ناشفين إلى مراكش قال لبعض ثقاته : « كنت أظن أني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد ــ ويقصد الأندلس ــ صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ » (44) .

لقد كانت سياسة المرابطين الاقتصادية في الأندلس امتدادا لسياستهم الاقتصادية في المغرب التي تتلخص في تحكمهم في مواردها ، « ولم ير في بلد من بلادهم ولا عمل في أعمالهم ــ على طول أيام يوسف بن تاشفين ــ رسم مكس ولا خراج ، لا في حاضرة ولا في بادية ، إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم

---

(41) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، 191 .

(42) المرجع السابق 196 .

(43) المعجب في تلخيص أخبار المغرب 199 .

(44) المرجع السابق نفس الصفحة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الكتاب والسنة : من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم » (45) .

ولقد رأينا كيف توسط يوسف بن تاشفين لدى ملوك الطوائف لخفض المكوس عن الأندلسيين ، ومع ذلك فنحن نراه يطالب من أهل البلاد المغربية والأندلسية ضريبة جديدة باسم « المعونة » لمواصلة الجهاد ، فعارضه في ذلك قاضي المرية أبو عبد الله محمد بن يحيى — المعروف بابن البراء — وكتب إليه بذلك فكان رد ابن تاشفين عليه بأن القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أجازوها (46) » .

من ذلك نرى أنه فرض تلك الضريبة بعد أخذ رأي الفقهاء والقضاة في تحصيلها ، واتفقت آراء المؤرخين على انتعاش الحالة الاقتصادية في الأندلس في عهد المرابطين .

ويرى أرشيبالد لويس أن المرابطين — من جهة النظر الاقتصادية — لم يكونوا هدامين إطلاقا وظلت أملاكهم ، سواء في المغرب الأقصى أو بلاد الأندلس ، على ما كانت عليه من رخاء في ميداني الزراعة والصناعة ، يضاف إلى هذا أنهم كانوا يسيطرون على سجلماسة وهي نهاية طريق معظم القوافل المغربية إلى ذهب بلاد السنغال ، وقد استمر فيضان الذهب عبر هذا الطريق بعد أن انقطع وروده عن طريق المسالك الصحراوية العربية — وكان هذا الرخاء الذي ساد أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم الدعامة التي ارتكزت عليها حضارة المسلمين الرفيعة في الأندلس في القرن الثاني عشر (47) .

كما يرى كوديرا (48) أن سياسة المرابطين المالية والاقتصادية كانت أعلى مستوى بكثير من سياسة كل الحكومات التي سبقتهم ، ودليله على ذلك قطع

---

(45) الاستقصا 54/2 .

(46) وفيات الأعيان 118/7 — 119 ، الاستقصا 53/2 .

(47) القوى البحرية والتجارية 386 — 387 .

(48) Franscisco Codera. Decadencia of desaparicion de los almoravides en Espana (Zaragoza. 1899) p.218 .

العملة التي بقيت من أيام المرابطين ، وهي تفوق في جمالها وفي هيئتها كل قطع العملة التي عرفت من قبلهم ، والشيء الجدير بالذكر أن هذا النظام النقدي إنما أتوا به من المغرب ، فنحن نعرف أنه كان قائما هناك قبل أن يستغيث ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين ، وقبل أن يدخل هو هذه البلاد ، وأن قطع النقد المرابطية ــ ولدينا منها نماذج كثيرة جدا (49) ــ تمتاز بكمال الصناعة وجودة الضرب ، سواء ما كان منها نقودا ذهبية أو فضية ، فقد جلب المرابطون الفضة البالغة الجودة من افريقية (50) .

وهذا دليل على مستوى رفيع جدا من الرخاء الاقتصادي ، الأمر الذي اضطر دوزى ــ على الرغم من كراهيته للمرابطين ــ إلى الاعتراف به كما اعترف به المؤرخون العرب السابقون (51) .

ومن ناحية أخرى ، يرى كوديرا أن جمال هذه القطع والجودة الفائقة في سكها تدل على أنه في جميع المدن الهامة كان فن الحفر على درجة عالية من الرقي على نحو لا نجده من قبل ، بل إنها تدل على أن الإصلاح النقدي الذي قام به المرابطون لم يكن أمرا مفاجئا ولا ظاهرة عارضة ، وإنما نتيجة لتخطيط دقيق في حكومتهم . وفي الحقيقة أن العملة الذهبية ــ التي وصلت إلينا منها نماذج كثيرة ذات وزن موحد ، وهو شيء لم نره قط من قبل ــ مما يحملنا على الظن بأن النقود الأندلسية الذهبية بدأت فقط منذ أيام المرابطين في أن يكون لها وزن وعيار ثابتان (52) .

وخلال عصر ملوك الطوائف كله ، لا نكاد نجد عملة فضية تسمى الدراهم ، كانت إما من النحاس أو من فضة رديئة جدا وذات وزن متغير ، أما المرابطون فقد

(49) انظر فصل المعاملات المالية .

(50) Antonio Preito Vives, op. cit., p. 144.

(51) ابن أبي زرع : روض القرطاس طبعة تورنبرج ص 108 .

(52) Francisco codera, op. cit., p. 219

عادوا إلى ضرب النقود الفضية الجيدة ، ووضع النقود الصغيرة من كسور الدرهم ، ولم نجد لها نظيرا (53) .

ولابدّ أن حرص المرابطين على سلامة التعامل التجاري دفعهم إلى ضرب هذه السكة الجديدة وهي نصف الدرهم ، وربع الدرهم ، وثمن الدرهم و1/16 من الدرهم وكانوا يطلقون على هذه القطع الصغيرة اسم الخروبة ، وهذا هو ما يستنتجه بريتو بيبس من دراسته لنقود المرابطين (54) .

وشيء آخر نلاحظه في نقود المرابطين كما نلاحظه في سائر ما خلفوه لنا من نقوش أو كتابات على الآثار ، وهو الجمال والأناقة الفنية التي تلفت النظر (55) .

من ذلك نرى أن الأندلس في ظل المرابطين قد عمها الرخاء الاقتصادي بالرغم من الحروب الكثيرة التي خاضوها (56) ، وقد جبى يوسف بن تاشفين في آخر أيامه من الأموال ما لم يجبه أحد من قبله ، ويقال أنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب (57) .

---

(53) وقد حاول ملوك الطوائف في بطليوس — على ما نعرف — إدخالها على ما يبدو ولأول مرة في الأندلس في أواخر أيامهم ، ولكن لم يكن لها شيوع في سائر أنحاء الأندلس ، فكان المرابطون أول من عمموا هذا النظام النقدي .

(54) op. cit., p. 221

(55) op. cit., loc. cit.

(56) القوى البحرية والتجارية 399.

(57) الاستقصا 54/2 .

2 ــ التجارة في قرطبة

* الواردات إلى قرطبة من خارجها .
* الصادرات من قرطبة إلى خارجها .
* التسعير والاحتكار .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الواردات إلى قرطبة :

ارتبطت حركة الواردات إلى قرطبة في القرن الخامس الهجري بالناحية السياسية ، ففي الربع الأول من القرن الخامس الهجري (399 ــ 433 هـ)/ (1088 ــ 1030 م) عمت قرطبة الفتنة البربرية ، وكان لها آثارها الاقتصادية في ركود حركة التعامل التجاري عامة والواردات بوجه خاص ، أما بقية القرن الخامس ــ الذي شمل حكم أسرة بني جهور وبني عباد ثم المرابطين ــ فقد نشطت من جديد حركة الواردات إلى قرطبة .

ويرى أرشبيالد لويس أن مسلمي شمال إفريقية والأندلس تعاملوا على نطاق ضيق جدا مع الغرب اللاتيني ، وفضلوا ترك مثل هذا التعامل التجاري لمن رسخت أقدامهم في هذا الميدان من سكان المدن الإيطاليين واليهود الذين ترددوا على طرق التجارة الواصلة بين براج وشمال فرنسا ومن أسواق الرقيق في الأندلس ، ولعل تجارة الشرق وتجارة الصحراء استوعبتا كل نشاط التجار المسلمين (58) ، ونحن نوافق لويس على هذا الرأي .

فقد ذكر ابن بشكوال أن هناك كثير من التجار الأندلسيين زاروا الشرق لتسويق المنتجات الأندلسية من ناحية وجلب منتجات الشرق وإفريقية من ناحية أخرى ، ومنهم محمد بن يوسف بن أحمد التاجر من أهل قرطبة ، كان له « رحلة إلى المشرق » (59) ، ومروان بن سليمان بن إبراهيم بن مورقاط الغافقي من أهل إشبيلية ودخل إفريقية تاجرا وتوفي 418هـ(60)/ 1027 م ، ونزار بن محمد بن عبد الله القيسي الزيات من أهل إشبيلية جال في بلاد إفريقية والأندلس طالبا للعلم والتجارة وتوفي 424 هـ (61)/ 1032 ، وحفلت أيضا تراجم ابن بشكوال

---

(58) القوى البحرية والتجارية ص 474 .

(59) انظر ترجمته ، « الصلة » رقم 1135 ص 492 .

(60) المرجع السابق ترجمة رقم 1347 ص 581 .

(61) الصلة ترجمة 1407 ص 606 .

بأسماء الكثير من العلماء الذين وفدوا من الشرق إلى قرطبة وبلاد الأندلس الأخرى في القرن الخامس الهجري ، وكانت مهنتهم التجارة وكانوا عاملا من عوامل تنشيط تجارة (الواردات والصادرات) من الشرق إلى الأندلس وبالعكس ، فذكر أن الفقيه أيوب بن نصر بن علي بن المبارك الشامي المقدسي قدم الأندلس تاجرا سنة 424 هـ (62)/ 1032 م ، والفقيه محمد بن القاسم بن أبي حاج القروي قدم قرطبة تاجرا وحدث بها في نحو الأربعمائة/ 1009 م ، والفقيه عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرون الوهراني قدم الأندلس أيضا تاجرا سنة 429 هـ(64)/ 1037 م ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبي زيد المصري قدم الأندلس من مصر سنة 394 هـ/ 1003 م وكان معاشه من التجارة (65) ، والعلاء بن الحارث بن كثير الحضري الدمشقي قدم الأندلس تاجرا سنة 429 هـ(66)/ 1037 م ، وعبيد الله بن سعد بن علي بن مهران الدمشقي قدم إشبيلية تاجرا سنة 416 هـ (67)/ 1025 م ونافع بن العباس بن جبير الجوهري التنيسي قدم الأندلس تاجرا سنة 419 هـ(68)/ 1028 م ، والنعمان بن محمد بن زياد المصري قدم الأندلس تاجرا سنة 422 هـ (69)/1030 م ، وسالم بن علي بن ثابت الغساني اليماني قدم الأندلس سنة 416 هـ (70)/1025 م ، وعبد العزيز بن جعفر بن محمد الفارسي البغدادي دخل الأندلس تاجرا سنة 350 هـ (71)/961 م وعبد الملك بن محمد الشامي الحمصي قدم الأندلس تاجرا سنة 414 هـ(72)/1023 م ،

---

(62) المرجع السابق ترجمة 269 ص 114 .

(63) قال ابن حيان : « كان من أهل العلم والرواية والعفاف والنفاذ في أمور التجارة والبصر بأنواعها ، بألمرية 428 هـ » انظر ترجمته في الصلة رقم 1309 ص 564 .

(64) المرجع السابق ترجمة 654 ص 287 .

(65) ذكر ابن حيان أنه توفي بمصر 410 هـ ، انظر المرجع السابق ترجمة 756 ص 337 .

(66) المرجع السابق ترجمة 960 ص 422 .

(67) المرجع السابق 674 ص 294 .

(68) المرجع السابق ترجمة 1406 ص 606 .

(69) المرجع السابق ترجمة 1402 ص 605 .

(70) المرجع السابق ترجمة 528 ص 227 .

(71) وتوفي سنة 413 هـ انظر المرجع السابق ترجمة 812 ص 357 .

(72) المرجع السابق ترجمة 779 ص 349 .

وموسى بن حامد بن الخليل المصري قدم قرطبة واستوطن بها (73) ، ونصر بن شعيب الدمياطي قدم الأندلس تاجرا سنة 429 هـ(74)/ 1037 م ، ومالك بن عمر بن إسماعيل قدم الأندلس تاجرا سنة 425 هـ/1033 م من مصر وأصله من البصرة (75) ، وتمام بن الحارث بن أسعد بن عفير البصري قدم الأندلس مع ابنه سهل تاجرين سنة 420 هـ (76)/1029 م ، وهاشم بن عطاء بن أبيّ الإطرابلس قدم الأندلس تاجرا سنة 432 هـ(77)/ 1040 م ، وموسى بن عاصم بن سفيان التونسي قدم الأندلس تاجرا سنة 431 هـ (78)/ 1039 م ، ومحمد بن عبد الملك بن سليمان التستري الحنبلي قدم الأندلس تاجرا سنة 431 هـ (79)/ 1039 م ، وعيسى بن محمد بن هارون قدم إشبيلية تاجرا مع أبيه سنة 422 هـ(80)/ 1030 م ، وسنتعرض للواردات التي كانت ترد إلى قرطبة بشيء من التفصيل .

الجواهر وأدوات الزينة والترف :

قال ابن غالب : « كان يجبى إلى قرطبة ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية (81) » ، معنى ذلك أن الواردات إلى قرطبة كانت كثيرة ومتنوعة ، وكانت تأتي من جهات مختلفة ، ومن تلك الواردات الجواهر وأدوات الزينة والترف ، ولقد نشط ورود تلك الأشياء إلى قرطبة في عصر الخلافة والحجابة .

(73) المرجع السابق ترجمة 1339 ص 578 .
(74) المرجع السابق ترجمة 1400 ص 604 .
(75) المرجع السابق ترجمة 1366 ص 587 .
(76) المرجع السابق ترجمة 285 ص 123 .
(77) المرجع السابق ترجمة 1445 ص 622 .
(78) المرجع السابق ترجمة 1338 ص 578 .
(79) المرجع السابق ترجمة 1316 ص 518 .
(80) المرجع السابق 948 ص 417 .
(81) ابن غالب : «فرحة الأنفس» ، 295 .

فقد كان تشييد مدينتي الزهراء والزاهرة ، وبناء القصور العظيمة وامتداد قرطبة وكثرة ما تزخر به تلك القصور من ضروب الفن والجمال ، مؤديا إلى الاهتمام الكبير بالواردات وخصوصا من أدوات الزينة والترف ، فلقد استورد الناصر الحوض المنقوش المذهب الذي وضع في مدينة الزهراء من الشام وقيل من القسطنطينية (82) ، وفي عصر الخلافة ظهرت طبقة من أصحاب الجاه والمال وصلت إلى درجة كبيرة من الثراء والترف ، وقد اهتمت هذه الطبقة باستيراد كثير من أدوات الترف والزينة ، وكان معظم أدوات الزينة هذه يرد من بغداد ومن جهات كثيرة من العالم حينئذ .

أما النساء والجواري فقد كان إقبالهن على اقتناء تلك الجواهر وأدوات الزينة يرجع إلى طبيعتهن وحبهن للزينة ، هذا إلى جانب أن تلك الجواهر والحلي إنما هي مال مدخر يمكن بيعه في أي وقت من الأوقات عند الحاجة . ولقد امتازت قرطبة في عصر الخلافة والحجابة بالإقبال على اقتناء السلع والجواهر وأدوات الزينة . أما القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلاد) الذي شهد الجزء الأول منه (399 ـــ 422 هـ) الفتنة البربرية ، فلقد كثرت فيه هجرة الناس من قرطبة ، وأصاب قصور الخلافة وقصور السراة بها النهب والخراب . وفي بداية الفتنة دمرت العامة أكثر خزائن الكسوة والفرش والأمتعة والطيب والحلية والذخائر والسلاح والعدة (83) واقتلع العامة مرمرها وأنقاض قصورها (84) .

وفي خلافة المستكفى بالله (414 هـ ـــ 416 هـ) طمست معالم قصر الزاهرة ، « فطوى بخرابها بساط الدنيا » (85) .

أما في عهد بني جهور فقد عادت الحياة الطبيعية إلى المدينة ، وأصبحت منطقة جذب لملوك الطوائف المخلوعين الذين أتوا إليها بأموالهم وذخائرهم

---

(82) نفح الطيب 67/2 .

(83) المرجع السابق 61/3 ، 63 .

(84) المرجع السابق 64/3 .

(85) ابن عذارى 142/3 ، أعمال الأعلام 111 .

ومدخراتهم . وفي عهد بني عباد فإنها أعادت أمجاد عهد الناصر والمنصور ، ويبدو أن معظم ما كان يرد إلى قرطبة من الجواهر والأحجار الكريمة لم يكن يأتي من خارج الأندلس وإنما من المدن الأندلسية الأخرى .

واستخدمت الجواهر في أغراض مختلفة كعمل السيوف المرصعة والغمود بالجواهر المثمنة (86) ، والسروج المحلاة بالجواهر من مختلف الأنواع ، والسيوف الملونة والعصيّ المزينة بأنابيب الفضة (87) . وكذلك استخدمت في الحلي والأساور وكل ما تتزين به النساء ، وكانت هذه الحلي والجواهر ترد قرطبة من المدن الأندلسية المشهورة بها إما مصنعة أو خاما لتصنع بها ، فكان الذهب يرد قرطبة من البيرة (88) ويستخرج تبرا من ماء نهر حدارة (89) بغرناطة ، ونهر لاردة وساحل الأشبونة (90) ، والفضة وإن كانت توجد في كبرفيق وكرتش من عمل قرطبة ، إلا أنها كانت تأتي قرطبة مصنعة أو خاما من البيرة (91) وتدمير (92) وجبال جمة ببجانة (93) وبقرية باجة (94) من عمل إشبيلية . أما الياقوت الأحمر فكان يأتيها من ناحية حصن منت (95) ميور من كورة مالقة ، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجانة (96) ، ويرد إليها من طرطوشة (97) معدن الكحل المشبه بالأصفهاني ، وكذلك حصي المرية ذو الألوان العجيبة ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان للزينة (98) .

(86) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص 198 .

(87) المرجع السابق 51 .

(88) ابن غالب 283 ، ياقوت 348/4 .

(89) ياقوت : 288/3 ، الروض المعطار 24 .

(90) الروض المعطار 16 ، الإدريسي 184 ، ضوابط دار السكة 85 ، نفح الطيب 138/1 .

(91) الإصطخري 36 ، ابن غالب 283 ، ياقوت 348/4 .

(92) الإصطخري 36 ، نفح الطيب 138/1 .

(93) نفح الطيب 138/1 .

(94) المرجع السابق نفس الصفحة .

(95) المرجع السابق نفس الصفحة .

(96) المرجع السابق نفس الصفحة .

(97) المرجع السابق نفس الصفحة .

(98) المرجع السابق ص 187/1 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

التوابل والعطور والأفاويه :

كانت التوابل والعطور والأفاويه ترد إليها من بلدان الأندلس الأخرى ، قال الإصطخري إن ساحل شنترين اشتهر بالعنبر (99) ، وأضاف المسعودي أن العنبر يأتي قرطبة من ساحل شنترين وشذونة (100) ، « وتبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا » (101) . ويستخرج كذلك من ساحل مدينة أكشونية العنبر (102) الذي لا يقصر عن الهندي (103) . وذكر كذلك أن في جبل شلير أفاويه هندية (104) ، وقال ابن غالب أن عنبر أشبونة فائق ويفوق كل عنبر ولا يشبهه إلا الهندي ، والعود من جبال شلب الذي يحمل إلى كل الجهات (106) . وقال الرازي : « إنه يوجد في ناحية دلاية من اقليم البشرة عود Alpujarras الالنجرج وهو عود يتبخر به ولا يفوقه العود الهندي (107) ذكاء وعطرا .

واستخدمت هذه العطور في القصور والمنازل والمساجد ، وأضاف قوله : « إن بالأندلس شجر المحلب المعدود في الأفاويه المقدم في سائر الأشنان كثير واسع ، وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط . ولها خواص نباتية يكثر تعدادها (108) ، وقال المسعودي « وأصول الطيب خمسة أصناف : المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران ، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها ، إلا الزعفران والعنبر فإنهما موجودان بأرض الأندلس (109) . والزعفران يرد قرطبة من

---

(99) الاصطخري 35 ، ياقوت 275/1 .
(100) نفح الطيب 137/1 .
(101) المرجع السابق 139/1 .
(102) ابن غالب 291 ، ياقوت 343/4 وهي غربي قرطبة .
(103) ياقوت 343/4 .
(104) النفخ 186/1 .
(105) ابن غالب 191 .
(106) الإدريسي 180 .
(107) النفخ 137/1 .
(108) المرجع السابق نفس الصفحة .
(109) المرجع السابق 185/1 .

وادي الحجارة التي يصدر منها إلى سائر الجهات (110) ، وكذلك من بياسة (111) Baeza المشهورة بزعفرانها ، وزعفران طليطلة الذي تتفوق جودته على كل زعفران . وزعفران باغة (113) وبلنيسة (114) التي يزرع بها بكميات كثيرة . وكان يرد أسواق قرطبة العصفر الإشبيلي (115) وعصفر لبلة الجيد (116) ، ويرد إليها أيضا بعض النباتات التي تدخل في صناعة العقاقير الطبية ، مثل نبات الحلفا الذي يأتي من مدينة اقنت Alicante ويجهز منها إلى جميع بلاد البحر (117) ، والمر الطيب من قلعة أيوب ، وكذلك الجنطيانا من لبلة وهو أحد عقاقير العطارين المشهورة (119) .

المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية :

وكانت أسواق قرطبة يرد إليها الكثير من المنسوجات ، ففي القرن الخامس الهجري فقدت قرطبة شهرتها في صناعة الوشي والديباج وحلت المرية مكانها (120) ، وأصبح أهل المرية مشهورين بتلك الصناعة ، بل لم يوجد في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية (121) .

---

(110) الإدريسي 189 .

(111) الإدريسي 203 ، الروض المعطار 57 .

(112) ابن غالب 288 ، ياقوت 545/3 .

(113) ياقوت 474/1 .

(114) العذري 17 .

(115) العذري 96 ، الروض المعطار 21 .

(116) العذري 111 .

(117) الإدريسي 193 .

(118) النفح 137/1 .

(119) ياقوت 346/4 .

(120) ياقوت 517/4 .

(121) المرجع السابق نفس الصفحة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وكان يرد من المرية إلى قرطبة الوشي والسقلاطوني والبغدادي ، وبها من الطرز أعداد كثيرة (122) ، وسائر أجناس الديباج وجميع ما يعمل من الحرير (123) .

ومن مالقة ومرسية الموشى المذهب ، وقال ابن سعيد : لقد كان يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا (124) .

ومن جيان الحرير الشهير (125) ، والطرز الشريفة من بسطة (126) ، وكذلك حرير إلبيرة المشهور المفضل على غيره (127) .

ومن غرناطة ثياب اللباس المحررة،الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة (128) ، ومن شنشالة Chinchilla من عمل مرسية البسط التي يغالي في ثمنها بالمشرق (129) .

والملابس السرقسطية (130) المشهورة بدقة الصنع والتي كانت تصدر إلى جميع الجهات . ومن حصن بكيران غرب شاطبة ثياب بيض مشهورة تباع بأثمان غالية ويعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهو من أبدع الثياب عتاقة ورقة (131) .

ونسيج الكتان الذي يأتي من أرون ــ وهي من أعمال باجة (132) ــ وكان لكتانها فضل على سائر الكتان .

---

(122) الإدريسي 198.

(123) ابن غالب 284 ، الإدريسي 197 .

(124) النفح 187/1 .

(125) الإدريسي 202 .

(126) ابن غالب 284 ، الروض المعطار 45 .

(127) الإصطخري 32 ، الروض المعطار 24 .

(128) النفح 187/1 .

(129) المرجع السابق نفس الصفحة .

(130) العذري 22 .

(131) الإدريسي 193 .

(132) ياقوت 277/1 .

وكتان إلبيرة الرفيع (133) .

ومن بَجّانة الأردية التي ربما يصل إلى مصر الكثير منها (134) ، والأغطية الصوفية من جنجانة (135) ومن قونكة (136) ، ويرد إليها القطن من إشبيلية الذي كان يجهز منها إلى القيروان وغيرها ولقد فاقت به على غيرها (137) .

الصناعات المعدنية والزجاجية والخشبية .. الخ :

وترد إلى قرطبة من مرسية آلات الصفر ، والحديد والسكاكين والمقصات المذهبة وغير ذلك من آلات الحروس والجند مما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها (138) . والصناعات الحديدية التي اشتهرت بها مدينة شلطيش والآلات النحاسية والحديدية من طليطلة (140) ومن المرية (141) وآلات الحرب من التروس والرماح والسروج واللجم والدروع والمغامز من برذيل (142) Bordeaux — خارج بلاد الأندلس — المشهورة بجودة سيوفها .

ويرد إليها الزجاج الغريب العجيب والفخار المزجج المذهب من مرسية وألمرية ومالقة (143) .

(133) ابن غالب 284 ، الروض المعطار 24 .

(134) ابن حوقل 109 .

(135) الادريسي 195 « بينها وبين مرسية 50 ميلا » .

(136) المرجع السابق نفس الصفحة .

(137) ابن غالب 292 ، الروض المعطار 21 ، ياقوت 275/1 .

(138) نفح الطيب 187/1 .

(139) الإدريسي 179 .

(140) المرجع السابق 188 .

(141) المرجع السابق 197 ، النفح 154/1 .

(142) نفح الطيب 188/1 « برذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والشرق »

(143) النفح 145/1 ، 187 .

وترد إليها من كورة إلبيرة الأقداح والأطباق والأكواب والأسطال والحقاق ، وهذه كانت تخرط من الرخام اللين (144) كما كانت تخرط أيضا من الأخشاب من حصن قيشاطة Quesada (قيجاطة) فتعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب (145) . وأخشاب نتتكشة الشهيرة التي كانت أيضا تخرط منها احتياجاتهم أما مدينة طرطوشة فكانت تصدر إلى قرطبة خشب الصنوبر الذي تصنع منه صواري المراكب (146) التي تسير في نهر قرطبة .

ويأتيها الرخام الفريشي وهو أجل الرخام بياضا وأحسنه ديباجا وأشده صلابة (147) ، وكذلك رخام ماردة (148) ، قال ابن حيان في وصف مدينة الزهراء : لقد جلب الناصر إليها الرخام الأبيض من ألمرية والمجزع من مرسية والوردي والأخضر من إفريقية من سفاقس وقرطاجنة (149) .

وإذا كانت قرطبة مشهورة بالصباغة فإنه كان يأتيها الزنجفور من قلعة أوريط (150) ، وكذلك القرمز الذي يأتي من إشبيلية (151) وهو أجل من اللك (152) الهندي ، ولقد اشتهرت مدينة باجة بصباغة الأديم (153) ، كذلك كان يرد إليها جلد النسر الذي يجلب من ساحل الجزيرة الخضراء إلى أكثر بلاد الأندلس (154) . وكذلك فراء حيوان القنلية (155) الذي كان يجلب من سبتة ويلبسه النصارى والمسلمون (156) .

(144) ابن غالب 283 .

(145) الإدريسي 207 .

(146) الإدريسي 190 .

(147) المرجع السابق 207 .

(148) ياقوت 389/4 .

(149) حسبما نقل المقرىء في نفح الطيب 67/2 .

(150) ابن غالب 289 .

(151) نفح الطيب 193/1 .

(152) اللك ضرب من الصبغ أحمر تصبغ به الجلود وغيرها .

(153) نفح الطيب 151/1 .

(154) العذري 120 .

(155) النفح 184/1 « هو حيوان أدق من الأرنب Conejo وأطيب في الطعم وأحسن وبرا » .

(156) النفح 185/1 .

ويأتي من مالقة السفن ، وهو جلد غليظ كجلود التماسيح فيتخذ منه مقابض السيوف (157) .

وكان يرد إليها الكاغد الذي تشتهر به شاطبة ويعم المشارق والمغارب (158) .
وترد إليها البغال المشهورة بحسن السير والسرعة والمشي إلى اختلاف الألوان الصافية ، والشعور الدهنية (158) من جزيرة ميورقة .والبقر والغنم من جبل الشارات الذي يأخذ من ظهر مدينة سالم إل قلمرية في آخر الغرب ويتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد (160) .

الأغذيـــة والحاصلات :

وكان يأتي قرطبة العسل الأشبوني الذي يوضع في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر (161) ، وكذلك العسل الإشبيلي (162) الذي يدوم عل حاله لا يتبدل (163) .

والتين الطيب المشهور الذي يجلب من مدينة شلب ويحمل إلى كل الأقطار (164) وكان يرد إليها الرمان المرسي والياقوتي الذي لا نظير له من مالقة ، وكذلك اللوز والتين المالقي (165) المنسوب إلى رية (166) .

والتين القوطي والشعري من إشبيلية (167) ، وقصب السكر من

---

(157) الإصطخري 35 .
(158) الإدريسي 192 ، ياقوت 235/3 .
(159) ابن حوقل 109 .
(160) الإدريسي 188 .
(161) نفح الطيب 145/1 .
(162) ابن غالب 292 .
(163) العذري 95 .
(164) الإدريسي 180 .
(165) النفح 145/1 .
(166) الإدريسي 200 .
(167) العذري 95 ، النفح 200/4 .

إشبيلية (168) ، وعناب لبلة الذي لا نظير له (169) ، وزبيب قرية شاط (170) ذو الطعم المزز الأحمر اللون والكبير الحجم والذي يتجهز به إلى كل البلاد الأندلسية (171) ، وكذلك الزبيب المنكبي (172) .

ومن بريطانية من أعمال وشقة ضروب الزعرور (173) والمصع (174) ، فمن الزعرور الذي بها ما يؤكل رطبا ومنه ما يجف ويرفع يابسا ، ومنه جنس يبقى رطبا طول الشتاء ، والمصع يشبه الزعرور في اللون ويخالفه في المذاق ، وهو أجل منه في ضرب الكمثرى (175) .

وذكر ابن اليسع عند ذكره مدينة شنترة (176) أن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر (177) ، ووجدها عند المعتمد بن عباد ، قال له ذلك أبو عبد الله الباكوري (178) .

وقال ابن سعيد وكان بكورة بلنسية كمثرى تسمى الأرزة في قدر حبّة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة (179) .

---

(168) ابن غالب 293 ، الروض المعطار 21 ، النفح 193/1 .

(169) العذري 111 .

(170) « تبعد 12 ميلا عن المنكب » انظر الإدريسي 199 .

(171) المرجع السابق نفس الصفحة .

(172) نفح الطيب 186/1 .

(173) المصع : ذكر دوزى في معجمه ج 2 ص 597 نقلا عن المستعيني في الطب (زعرور المعروف بالمصنع بسرقسطة ...) وذكر آسين في معجمه النباتي رقم 717 « مصع وهو العوسج » على أن اللفظ بمعنى ثمر العوسج في المعاجم العربية .

(174) العذري ص 55 ، 160 ، 161

(175) المرجع السابق نفس الصفحة .

(176) ياقوت 326/3 « شنترة من أعمال لشبونة » .

(177) نفح الطّيب 154/1 ياقوت 326/3

(178) نفح الطيب 154/1.

(179) نفح الطيب 168/1 .

وكان يأتي قرطبة من حصن دلر في جبل شلير كمثرى وزن الحبة الواحدة وطل أندلسي ولها مذاق عجيب (180) ، كذلك يرد قرطبة الزبيب الإشبيلي (181) الذي يصدر إلى المشرق (182) والذي لا يتغير طول الدهر (183) .

والملح الأبيض الصافي الأملس الذي يسمى الملح الذراني من سرقسطة (184) ، أما الأرز فكان يأتي قرطبة من بلنسية ويعم كل البلاد الأندلسية (185) .

وكان يأتي قرطبة من السمك المملح المسمى بالسردين خاصة المجلوب من الساحل ، وقد أحصى الخليفة الحكم المستنصر ما يباع من هذا الصنف في يوم واحد فبلغ عشرين ألف دينار دراهم .(186)

الرقيق

لقد تحدث ابن حوقل عن صادرات الأندلس من الرقيق (187) إلى مصر وحتى أقاصي خراسان .

وكان هذا الرقيق يرد إلى قرطبة من الجواري والغلمان ومن سبى إفرنجة وجليقية، والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويقوم بهذه المهمة اليهود (188) ..

(180) الإدريسي 201 .

(181) ابن غالب 292 ، الإدريسي 178 ، الروض المعطار 19 .

(182) العذري 95 ، الإدريسي 178 .

(183) الروض المعطار 21 .

(184) العذري 22 .

(185) العذري 17 .

(186) أعمال الأعلام 104 .

(187) ابن حوقل : « صورة الأرض » ، ص 106 ، أحمد مختار العبادي : «الصقالبة في إسبانيا » ، مدريد سنة 1953 ص 10 .

(188) المرجع السابق نفس الصفحة .

وكانت فردان طوال ذلك الوقت (القرنين التاسع والعاشر) مركزا لتجارة الخصيان مع مسلمي الأندلس ، كما ظل اليهود يتبعون أواخر القرن التاسع طرقا بريّة تصل وادي الرون وإقليم لنجدوك بالحدود الأندلسية (189)

وفي القرن الرابع الهجري كان شمال إفريقية ومصر وجنوب شبه جزيرة العرب أكبر أسواق الرقيق الأسود ، وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب (190) . من ذلك نرى أن أسواق قرطبة تمتعت بكثرة الواردات إليها من الرقيق ، وكان يعاد تصديرهم مرة أخرى إلى أماكن كثيرة داخل الأندلس وخارجها ، بعد قيام النخاسين بتدريبهم على حرفة من الحرف أو فن من الفنون . ولقد تنوعت مصادر الرقيق الوارد إلى قرطبة من جهات كثيرة من العالم إذ ذاك ، وعلى ذلك فقد تنوعت أجناس هؤلاء الرقيق ، وكان لكل جنس صفاته المعروفة ، وترتب على ذلك نشاط حركة التعامل في أسواق الرقيق في قرطبة وزيادة سعر صنف عن الآخر . ذكر السقطي أنه « تكلم الناس في المماليك وأصنافهم وصُورهم واخلاقهم وما يصلح لكل نوع منهم وخاضوا في ذلك كلّ خوض » (191)

ومن الصفات المميزة لأجناس النساء من الرقيق ما يلي :

فالخادمة البربرية للذة ، والرومية للمحافظة على المال والخزانة ، والتركية لإنجاب الولد ، والزنجية للرضاع ، والمكية للغناء ، والمدنية للشكل ، والعراقية للطرب والانكسار .

وأما الواردات من الذكور فإنها تأتي من الهند والنوبة لحفظ النفوس والأموال ، والزنج والأرمن للكد والخدمة ، والترك والصقالية للحرب والشجاعة (192) .

وكانت أسواق قرطبة تعج بالأنواع المختلفة من الرقيق ، وكان على راغبي الشراء البحث عن الصنف والنوع والشكل والمهنة المطلوبة .

(189) القوى البحرية والتجارية 274 .

(190) متز : « الحضارة الإسلامية في القرن 4 هـ » ، ص 278 — 279 .

(191) السقطي 49 .

(192) السقطي 50 .

فالبربريات أطبع الخلق على الطاعة وأنشطهن للعمل وأصلحهن للتوليد وأحسنهن للولد ، وبعدهن اليمنيات ، وتشبههنّ العربيات ، والنوبيات أكثر الخلق إذعانا للموالي ، وكأنما فطروا على العبودية ، وفيهم السرقة وقلة الأمانة .

ويرى الشريف الإدريسي « أن في نساء النوبة جمالا فائقا ، وأنه لا أحسن للجماع منهن لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن ، وأن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلثمائة دينار » (193)

والهنديات لا يصبرن على الذل ، ويرتكبن العظائم ويسهل عليهن الموت . والزنجيات أشد خلق الله وأجلدهن على الكد ، وكانت رائحتهن حائلا دون اتخاذهن ، وفي الأرمنيات الحسن والبخل وقلة الانقياد وخاصة القرصاريات (194) .

ويرى الطبيب ابن بطلان النصراني الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (195) « أن الأرمن أشر البيضان ، كما أن الزنج أشر السودان ، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد » (196) ، ويرى متز (197) « أن الرقيق الصقالية يقدمون على الترك » ، حتى قال الخوارزمي : « يستخدم التركي عند غيبة الصقلبي » .

وكان ثمن العبيد البيض يزيد على السود ــ وكانت الجارية الحسناء ــ من غير صناعة ــ على جمالها بألف دينار وأكثر (198) ، وكان لأبي بكر الخوارزمي جارية فطلبت بعشرة آلاف درهم فلم يوافق (199) .

---

(193) الشريف الإدريسي ص 12 ، متز : « الحضارة الاسلامية » ، 279/1 .

(194) القندرهاريات في معنى الهنديات ، كما فسر ذلك آدم متز 286/1 . السقطي 50 .

(195) متز 285/1 .

(196) المرجع السابق 288/1 .

(197) الحضارةش الإسلامية في القرن 4 هـ 282/1 .

(198) المرجع السابق 280/1 .

(199) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وكانت تلك الواردات تغزو السوق المحلي لقرطبة وأعمالها ، ثم يعاد تصدير بعضها للولايات الأندلسية أو خارج شبه الجزيرة الأندلسية .

وقد كانت هناك أصول عامة لشراء الرقيق وبيعه وعتقه ، ولقد أورد ابن سهل في أحكامه في باب العيوب الكثير من المسائل التي بدراستها نرى أنها كانت تجارة رابحة ، وأن هؤلاء الرقيق كانوا عامل إنتاج في المجتمع القرطبي على اختلاف طبقاته ، ولم ينظر إلى تلك التجارة على أنها تجارة مهينة ، ولقد حدد لها الدين الإسلامي الحدود لتكون تجارة إنسانية ، وكان رجال القضاء أمناء على تنفيذ تلك الحدود .

ومن تلك المسائل عدم بيع جارية ونقلها إلى بلد بعيدة عن أمها ،(200) وذلك حتى تستطيع الأم رؤية ابنتها ، وإذا تم ذلك يعتبر عقد البيع مفسوخا ويجب ردها إلى البائع .

ومنها من باع أمة فظهر بها حمل وثبت بها كي (201) .
قال المشتري « لست أعرف إن كان الحمل عندي أو عند البائع » وأنكر البائع أنه لم يبع خادمة حبلى ، وشهد على ذلك الشهود ، فقال ابن زياد : « إذا ثبت عيب الكي الذي قام به مشتري الخادم وجب ردها مع رد قيمة الحبل أو يمسكها ويرجع بقيمة عيب الكي ، وإن قال أهل البصر أن هذا العيب يقدم ويحدث في مثل أمد التبايع ، حلف البائع بالله ، ما لم أعلم انه كان عندي أو يرد اليمين على المشتري فيحلف بالله « ما أعلمه حدث عندي ويرد » قال بذلك أهل العلم » .

وقضية أخرى من اشترى صبية فألفاها مجموعة وقال اشتريتها أمس على صحيحه (202) . قال الفقيه ابن لبابة تعرض على قابلة يثق بها القاضي فإن

(200) ابن سهل 159 .
(201) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(202) المرجع السابق 160 .

ألفتها مجموعة طرية الجمع حلف المشتري ما فضها لأنه قد يمكن أن يفعله غيره وهي في عهده الثلاث (203) . فإذا حلف ردت ، وهو يستند لحكم سابق في سماع عيسى وفي سماع أشهب وابن نافع عن مالك » .

وقضية أخرى : وهي خادمة باعها النخاسون وظهر بها عيوب فأمر القاضي أن تنظر النساء إلى تلك العيوب واستبان بشهادة المرأة أن العيب قديم بمثله ترد فردت على النخاسين (204) .

وعن الحكم بقول المرأة في ذلك أفتى ابن عتاب « إن كن طيبات سمع منهن في قدم العيب وحدوثه ، وإلا فلا يشهد به إلا الحكماء وهذا هو الصحيح (205) .

وفي مثل هذا المعنى إدعى مشتر أن بالجارية آثار حفر وشقاق ، قال القاضي : ينظر إليها رجال أهل الطب ، وإذا كانت آثارا باطنية تنظر النساء ، ليقررن إن كان هذا عيبا ترد من أجله أم لا (206) .

وقضية أخرى : اشترى رجل اسمه عبد الملك خادما من رجل من أهل جراوة (207) ، وأقر الجراوي بالبيع منه ، وذكر عبد الملك أن بالخادم آثارا يجب بها ردها ولم يبين له بها ، وأقر الجراوي بذلك وقال : لم أعلم بها عيبا ، وشهد عند القاضي الطبيبان يحيى بن إسحاق وتمليخ (208) ، وأقرا أن الإصابة من قروح غليظة قديمة كانت بها منذ سنة أو نحوها ، وأنه عيب يجب به الرد في علمهما ، وأمر القاضي برد الجارية على الجراوي (209) .

---

(203) الثلاثة شهور بثلاث حيضات .

(204) المرجع السابق 161 .

(205) المرجع السابق نفس الصفحة .

(206) المرجع السابق نفس الصفحة .

(207) ياقوت 46/2 : جراوة : بالضم ناحية بالأندلس من أعمال فحص البلوط .

(208) انظر ترجمته في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق د.نزار رضا ص 491 بيروت .

(209) ابن سهل 162 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وفي مسألة ضرر ببصر خادم ذكر المتطبّبون أن العيب أقدم من أمد التبايع ، وزاد أحدهم أن فيها مع هذا العيب القديم عيبا آخر يقدم ويحدث ، فالقضاء برد الخادم بالعيب واجب ولا يمنع من الرد مع شهادة أحدْ المتطبّبين الآخرين أنه عيب حديث ، وقول الآخر أنه يقدم ويحدث (210) وكانت تلك فتوى الفقيه محمد بن جرج وحدثت في سنة 464 هـ / 1071 م .

ومسألة أخرى : من اشترى أمة سوداء ومكثت عنده سبعين يوما فادعى أنها لم تحض عنده هذه المدة ، وكان بها في بطنها عقده وأراد ردها بارتفاع حيضها ، فأفتى ابن عتاب وابن مالك بأن له ذلك بعد يمينه أنها ما حاضت منذ ابتاعها (211) ، وقال القاضي : « قد رأيت لأصبغ عن ابن القاسم ما قاله أبو عبد الله بن عتاب ، قال أصبغ : سئل ابن القاسم عمن اشترى جارية فارهة أو غير فارهة لا تحيض هل هو عيب ؟ فقال : هو عيب في جميع الرقيق إذ علم أنها لا تحيض إذا كانت قد بلغت سن من تحيض عشرين سنة ونحوها (212)» وكذلك من العيوب التي ترد الجارية بسببها التبول في الفراش (213) .

وأيضا الكسر في ظهر صبية شهد الأطباء أنه عيب ترد به الصبية لصاحبها ، وتفصيل تلك المسألة أنه شهد عند القاضي أحمد بن محمد تمليخ بن أود الناس المتطيب أنه نظر إلى الصبية الموقفة بين يدي القاضي التي قام فيها محمد علي سليمان بعيب ، فنظر إليها تمليخ فوجد كسرا في ظهرها قديما قد انعقد وأنه عيب ترد به ، ومثله لا يحدث في أشهر وشهد يحيى بن إسحاق بن عبد الله بمثل ذلك ، قال ابن لبابة : وجب رد الصبية لهذا العيب .

وقال ابن وليد ، قال القاضي في هذا التقييد : من ذكر قول الطبيب أنه يجب به الرد مثل ما تقدم فيما قد أنكرناه (214) .

---

(210) نفس المرجع السابق 163 ، 164 .

(211) نفس المرجع السابق ورقة 165 .

(212) نفس المرجع السابق ورقة 166 .

(213) نفس المرجع السابق 166 ، 167 .

(214) نفس المرجع السابق ورقة 167 .

وفي مسائل القاضي ابن زرب ، جمع القاضي ابن الصفّار أبي الوليد يونس عبد الله ابن مغيث : « من ابتاع عبدا فعرض له داء في عهده الثلاث ومات منه بعد الثلاث رجع بقيمة ذلك العيب لا بجميع الثمن ، وهو كمن باع عبدا وبه عيب لم يدلس به فمات منه فإنما يرجع بما بين الصحة والداء لا بجميع الثمن (215) »

ومن القصص الطريفة في الرقيق :

أن امرأة حضرت دار العريف سعيد بن جلوسة ومعها فارسان ، فسألها سعيد عن خبرها ، فقالت إنها سبيت بحصن بلاي ثم سير بها إلى إشبيلية (216) فأضر بها الذي كانت عنده ، فحضرت إلى قرطبة فقبض عليها هذان الفارسان اللذان يريدان أخذها إلى حصن بطليوس ، فلما سمع ذلك الفارسان همزا هاربين وتركاها عنده ، وظلت عنده أربعة أشهر ، فلم يأت لها طالب فكان رأي العريف أن تطلق وتذهب حيث شاءت وتقيم حيث أحبت ، إذ لم يأت لها طالب ولا مدع ، وفي أقل من هذا التدقيق كان يجب إطلاقها وتسريحها ، قاله أيوب بن سليمان وابن لبابة وابن وليد وأحمد بن يحيى .

ومن القضايا الأخرى « أن رجلين أتيا القاضي ومعهما غلام وكل منهما يدعيه ملكا (217) » وفي مثل تلك القضايا كان القاضي يسأل الغلام ويستدعي الشهود ويحكم القاضي بأحقية الغلام لأحدهما .

ومن القضايا الأخرى : قضية اليهودي الذي ادعى في غلام كان يخدمه وأسلم أنه مملوكه اشتراه من يهودي من أهل طليطلة منذ أربع سنين ، فقال الغلام أنه حر ابن حر ، فكان على القاضي أن يأمر اليهودي بإثبات البينة في ملكيته للغلام (218) .

---

(215) نفس المرجع السابق ورقة 168.

(216) نفس المرجع السابق ورقة 234 .

(217) المرجع السابق 234 ، 235 .

(218) نفس المرجع السابق 373 ، 374 ، 375 .

كذلك يشير ابن سهل إلى مسألة من أعتقت جارية إلى أجل ثم باعتها ، وتفاصيل ذلك أنه « شهد عند القاضي أحمد بن محمد عبيد الله بن محمد بن أيمن أنه يعرف عتيقا خادم القرشية ابنة مفرج ، وأنها أعتقتها بعد ست سنين وأنها قد انقضت وأبقت (219) عنها في داخل هذه الست السنين ، ثم وجدتها فباعتها بأربع ورقات ، وهو يعرفها ، وشهد محمد بن معاوية بمثل ذلك قرأنا وفقك الله ، القاضي هذه الشهادات فإذا قبلت منها شاهدين وجب الإعذار إلى من ألفيت بيده هذه الخادم ، فإن كان عنده في ذلك مدفع نظرت فيه ، وإن لم يكن عنده مدفع حكمت بحريتها ويتراجع متبايعوها بالاثمان التي تبايعوها بها ، قاله ابن لبابة وأيوب وابن الوليد ومحمد بن أيمن (220) »

ومن مسائل ابن سهل الأخرى (221) .

من ابتاع جارية وشرط أنها ثيب فألقاها بكرا ، قال أبو عمر بن القطان : ترد للبائع .

وكذلك من ابتاع جارية وشرط أنها نصرانية فوجدها مسلمة ، فقال الفقهاء : لا ترد لأن الإسلام ليس عيبا .

إلا أن يقول المشتري : إنما كنت أردتها نصرانية لأزوجها عبدا لي نصرانيا . وكذلك من اشترى جارية من جنس فألقاها من جنس آخر أرفع فلارد له ، إلا أن يكون له عذر ، وإن خرجت دون الذي شرطه فله الرد .

* * * *

الصـــادرات :

في القرن الخامس الهجري أصبحت قرطبة مقاطعة من مقاطعات الأندلس المستقلة وأصبحت لا تتحكم في مصادر ثروة الأندلس التي كانت تتحكم فيها

(219) أي هربت .

(220) نفس المرجع السابق ورقة 254 .

(221) نفس المرجع السابق ورقة 160 .

في ظل الخلافة والحجابة ، وترتب على ذلك قلة حركة الصادرات منها إذ في ظل ملوك الطوائف أصبح كل اقليم قائما بذاته اقتصاديا .

وارتبطت حركة الصادرات من قرطبة إلى جهات الأندلس بالظروف السياسية التي تعرضت لها قرطبة في القرن الخامس الهجري ، ففي الربع الأول من هذا القرن (399 هـ ـــ 422 هـ) ، وهي فترة الفتنة القرطبية ، ساد الكساد الاقتصادي قرطبة في تلك الفترة وبالتالي توقفت حركة الصادرات منها ، أما بقية هذا القرن في عهد أسرة بني جهور وبني عباد والمرابطين فقد انتعشت حركة التعامل الاقتصادي وبدأت قرطبة تصدر بعض منتجاتها المشهورة وإن كانت قليلة ، إلا أنها صمدت أمام منافسات أسواق بلدان الأندلس الأخرى .

فقد كانت قرطبة تصدر الرخام الذي يشتهر به جبلها ، ذكر الرازي « أنه كان بجبل قرطبة الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري »(222) .

كما أشار ابن سعيد إلى وجود الفضة والزئبق (223) في جهات قرطبة اللذين يستخرجان من حصن أبال (224) ، وكان يخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجل (225) ، موزعين بين نقل الحطب لحرق المعدن وبعضهم لعمل أواني السبك والتصفية وآخرين لبناء الأفران والحرق .

من ذلك نرى أن الفضة والزئبق كانا يصدران من قرطبة إما خاما أو مصنعا . ومادة الزنجفور التي تستخدم في الصباغة (226) ، كانت تنتج بكميات كبيرة من حصن أبال ، وكانت قرطبة تصدرها إلى جهات كثيرة بالأندلس .

وكانت قرطبة تعيد تصدير الرقيق بعد أن يقوم النخاسون بتدريبه وتعليمه .

---

(222) نفح الطيب 187/1 .
(223) نفح الطيب 186/1 .
(224) « شمال قرطبة وعلى بعد مرحلة منها » انظر الروض المعطار ص 10 .
(225) المرجع السابق نفس الصفحة ، الإدريسي 214 .
(226) الإدريسي 213 ، الروض المعطار 10 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

ولقد كثرت حيل تجار الرقيق من أجل رواج تجارتهم ، ومن غشهم وحيلهم أنهم كانوا يبيعون نوعا منهم على نوع وصنفا على صنف (227) ، وذلك بالرغم من خضوع تلك التجارة لرقابة المحتسب ، وقال السقطي : إن من حيلهم للتخلص من العيب الخلقية في الرقيق من النساء ، فقد كان التجار يدخلون السمراء اللون في أبزن (228) قد وضع فيه ماء الكرويا حتى تلون ، وتقيم فيه لأربع ساعات من نهار فتخرج عنه وقد صارت ذهبية .

ومن أجل أن يصبح خد الجارية أحمر كان يغسل بمحلول مكون من بعض الأعشاب بنسب خاصة (229) .

ويدهنون أوجه السودان وأطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك . ويسودون الشعر بدهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ، ودهن الشقائق ويغسل من ذلك بطبيخ الأملج ، وكذلك الذكور السمر يعاملون مثل ذلك (230) .

ويجعدون الشعر باستخدام أعشاب خاصة ، ويزال شعر البدن باستخدام النورة (231) وبعدها بيض النحل ، أو بدهن قد طبخ فيه ضفادع خضراء أو عظاية (232) أو مرارة الأرنب ، ويغسل بالشب والبورق والعفص وتعرض السقطي أيضا لطريقة تسمين الأعضاء الهزيلة في جسم الرقيق من النساء وكيفية إزالة رائحة العرق الكريهة من الزنجيات ، ومعالجة النمش والوشم والكلف (233) من أجسامهن حتى تبدو جميلة .

وكذلك بين طرق معالجة رائحة الأنف وتنظيف الأسنان وتطييب الفم وصبغ العين الزرقاء لتصبح كحلاء إلى جانب صبغ بياض العين .

---

(227) السقطي 49 .
(228) خزان الحمام .
(229) السقطي 50 .
(230) السقطي 56 .
(231) حجر يحرق ويحلق به شعر العانة
(232) دابة صغيرة من فصيلة السحالى .
(233) المرجع السابق 51 .

وكان المحتسب والمشترون الخبيرون يتحرون الدقة في فحص الرقيق قبل الشراء ، وكان يؤمر النخاسون ألا يبيعوا غير المشهور بالعين والاسم مملوكا أو مملوكة إلا بأن يعطى ضامنا .

وأن يسأل العبد ، فربما كان مسروقا أو يكون له أهل يمكن هروبه إليهم ، أو يكون حرا قد استعبد ، أو يكون للأنثى زوج أو ولد ، أو يكون فيهم عيب خفي ، ويتفقد ألوان العبيد فربما يدل اللون على علة في الكبد أو الطحال أو المعدة أو البواسير (234) .

وكان على المشتري التأكد من سلامة العبد من أي مرض جلدي كالبهق والقوباء أو الشامة أو الوشم أو الجرح القديم أو الكي ، فكان حينئذ يدخله الحمام ويغسل بالماء الحار والبورق والخل ثم يتفقد بعد ذلك (235) .

وكان على المشتري أيضا التأكد من سلامة حاسة السمع والنطق والنظر وصفاء عينيه ونقاء أجفانه وسهولة حركتها وخلوه من الجراحات والعلل المرضية وقوة احتماله وقدرته .

وكان على النخاسين أن يحلفوا أن لا يكتموا عيبا دقيقا ولا جليلا ولا يخفوا ما يطلعهم البحث عليه (236) .

ولقد كانت قرطبة في القرن الرابع مركزا نشطا لحركة التعامل التجاري في تجارة الرقيق ، ولم ينافسها أي بلد آخر في الأندلس ، لكن في القرن الخامس الهجري كسدت هذه التجارة ، وظلت تعيش على سمعتها السابقة وخبرتها في هذه التجارة ، ففي الجزء الأول من القرن الخامس الهجري (399 ــ 422 هـ) شمل قرطبة الركود التجاري في ظل الفتنة وانتعش السوق في بقية هذا القرن في ظل ملوك بني جهور وبني عباد والمرابطين ، فكان ملوك الطوائف يرسلون رسلهم إلى قرطبة

---

(234) السقطي 57 .

(235) نفس المرجع بنفس الصفحة .

(236) المرجع السابق 58 .

للبحث والتنقيب عن الجواري الملهيات ، وكانت قرطبة تصدر لهم غالبا ما يحتاجون إليه .

قال ابن عذارى « إنه في شوال 442 هـ ورد إلى قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن ، وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ فوجد له صبيتين ملهيتين فاشتراهما له » (237) . وذكر أيضا ابن حيان أن «المعتضد بن عباد بعث رسوله إلى قرطبة لشراء قينة ابن الرومي ــ بعد وفاة صاحبها الوزير القرطبي ــ لما وصفت له بالحذق في صنعتها » (238) .

وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه وردت عليه من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة (239) .

وكذلك كان هذيل بن لب بن رزين البربري بشرق الأندلس يستورد الجواري من كل جهة ، ومما يذكر عنه أن اشترى جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار (240) .

ولم يقتصر تصدير قرطبة للجواري الملهيات على طبقة حكام الطوائف ، فإن طبقات كثيرة من الأرستقراطية أيضا ، بل العامة من الممالك الأندلسية ، كانت تستورد من قرطبة الجواري التي كانت تستخدم للتسرية أو الخدمة في المنزل .

وهناك في نوازل ابن سهل من النساء من «تشترط على زوجها ألا يتسرى عليها (241) »

---

(237) ابن عذارى 212/3 .

(238) المرجع السابق بنفس الصفحة .

(239) المرجع السابق 250/3 .

(240) المرجع السابق 308/3 .

(241) ابن سهل 100 .

التسعير والاحتكار :

من السمات التجارية لأسواق قرطبة تسعير المنتجات الاستهلاكية ، ولقد كانت هذه الصفة عامة في المدن الإسلامية ، بل والأوربية في العصور الوسطى ، وكان ذلك لرعاية مصلحة العامة (242)

وكثيرا ما تدخلت الحكومات مرارا لتحديد أسعار المنتجات بحيث لا يكون فيها غين على التاجر أو إرهاق للمستهلك ، وإن كانت مسألة التسعير في حد ذاتها محل اجتهادات كثيرة من جانب الفقهاء الأندلسيين والمغاربة من أتباع الإمام مالك وتلاميذه والمشارقة أيضا .

وقد أجمع الفقهاء على إباحة التسعير وإن اختلفوا في الأشياء التي تسعر والتي لا تسعر ، وعلى صاحب السوق مسؤولية تنفيذ ومراقبة ذلك وإلزام التجار بالسعر ، وكان الغرض من ذلك مصلحة عامة الناس وخاصة الطبقات الفقيرة منهم .

ويرى ابن عبد الرؤوف أنه يجب على الطحانين أن ينهوا عن التسعير في الطعام ، وهو يستند في ذلك إلى رأي الفقيه ابن حبيب ، وإن أجاز ربيعة الرأي ويحيى بن سعيد وابن المسيب التسعير ، وشرط ذلك بعدالة الإمام فقال : « ولابأس بتسعير السوق إذا كان الإمام عدلا ، وكان ذلك نظرا وصلاحا للمسلمين يتقدم ذلك قيمة عدل يقوم عليها التاجر » (243) .

وإذا كان ابن عبد الرؤوف يرى عدم التسعير في (الحنطة) القمح والشعير فذلك لما رآه ابن حبيب من أن هذا الغذاء الرئيسي لعامة الناس يجب أن لا يخضع لاحتكار التجار وتنافسهم ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع سعره فلا يستطيع العامة

(242) أحمد سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التسعير ، تحقيق موسى لقبال الجزائر ، 1970 ص 49 .

(243) ابن عبد الرؤوف ، 88 .

شراءه ، لأن ذلك « إنما يبيعه جالبوه (أي المزارعون) ولا يترك التجار يشترونه منهم ليبيعوه على أيديهم » (244) .

وكان الفقيه يحيى بن عمر يرى هذا الرأي أيضا ، ويتشدد في مراقبة المحتسب لجالبي هذه السلعة ، حتى تباع في الأسواق وتصبح في متناول الضعيف والعجوز الكبيرة ، فقال « وأرى على صاحب السوق أن يأمر البدويين (245) إذا أتوا بالطعام يبيعونه فلا ينزلوه في الدور والفناديق ، وأن يخرجوه إلى أسواق المسلمين حيث يدركه الضعيف والعجوز الكبيرة » (246) . والحكمة من ذلك هي ألا يشتري الكمية تاجر واحد أو عدد من التجار إذ هم بعد ذلك يتحكمون في السعر فيرتفع الثمن . وإن كان جالبو الطعام يفضلون بيع منتجاتهم جملة واحدة للتجار ، وبذلك يتخلّصون مما معهم ليعودوا إلى ديارهم ويحصلوا على ما يبغون من ثمن ، ولكنهم كانوا تحت رقابة المحتسب الذي يمنع إتمام مثل تلك الصفقات التجارية السريعة . وقال ابن عبد الرؤوف إنه يجوز التسعير في مثل الزيت والعسل والسمن واللحم والبقل والفاكهة وشبه ذلك ، لأن تلك السلع تخضع لنظام الاحتكار التجاري « مما يشتريه أهل الأسواق من الجلاب للبيع على أيديهم » (247) .

وقال ليحيى بن عمر (248) : « ضع لنا القيمة (249) التي تقام على الجزارين وغيرهم من أرباب الحوانيت الذين يبيعون السمن والعسل والزيت والشحم ، فإنهم إن تركوا بغير قيمة أهلكوا العامة لخفة السلطان وضعفه ، وإن جعلت لهم قيمة فهل ترى ذلك جائزا ، وقدر من عندك بحجة ظاهرة وأمر بين وتبيرنا ما كتبنا به إليك » فأجاب : « قال مالك : لا خير في التسعير ومن حط عن سعر الناس أقيم » .

---

(244) ابن عبد الرؤوف 88 — 89 .
(245) يطلق لفظ البادية في المغرب عامة على الأرياف والمناطق الزراعية .
(246) أحكام السوق 126 ، التيسير في أحكام التسعير 51 ، 52 .
(247) ابن عبد الرؤوف ص 89 .
(248) الجيلدي ض 52 .
(249) القيمة : السعر .

وقال أيضا : « إن قال صاحب السوق بع على ثلث رطل من الضأن ونصف رطل من الإبل » قال : « فما أرى به بأسا وإن سعر عليهم شيئا يكون فيه ربح قدر لهم من غير اشتطاط » .

لكن هل كان التسعير يتم بالطرق الودية بين المحتسب الذي يمثل الحكومة وبين التجار ، أم أن ذلك كان يتم بطريق الإجبار والشدة ؟ » .

لقد وصف ابن عبد الرؤوف هذا الأمر وهو يدل على أن حسن النية والتراضي بين الجار والمحتسب كانا متوافرين بين الجميع .

فقال : « إذا أراد الإمام العدل أن يسعر شيئا من ذلك ، فيجمع وجوه أهل سوق ذلك ويحضر غيرهم استظهارا على صدقهم ، فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون فإن رأى شططا في البيع نازلهم على ما فيه لهم وللعامة صلاح وسداد ، حتى يرتضوا به ويتعاهد ذلك منهم بعد ذلك في كل حين ، فمن وجد منهم قد زاد في الثمن أمره أن يبيع كبيع أصحابه وإلا أخرجه من السوق وأدبه ، وإن أراد واحد منهم أو اثنان أن يبيعوا بأرخص من ذلك لم يمنع من بيعه ، فإن كثر هؤلاء قيل لمن بقي من أهل السوق : إما أن تبيعوا كبيع هؤلاء وإلا فارفعوا ، ولا يحل التسعير إلا عن تراضي ، وعلى هذا أجازه من أجازه ومن أكره الناس على التسعير فقط أخطأ » (250) .

قال ابن عرفة : « الجالب لا يسعر عليه (251) » . وقال ابن رشد : « إن حط عن قدر السوق أمر بمساواته أو قيامه » . ولا يسعر على المحتكر حيث يؤمر بإخراج طعامه إلى السوق ويبيع ما فضل عن قوت عياله كيف شاء ولا يسعر عليه ، فإن سألوا الناس ما يحتمل أن يكون ثمنا قال : هو ماهم يفعلون فيه ما أحبوه ، ولا يجبرون على بيعه بسعر يوقت لهم ، فهم أحق بأموالهم ولا أرى أن يسعر عليهم ، وما أراهم إنما رغبوا وأعطوا ما يشتهون ، وأما التسعير فظلم لا يعمل

---

(250) المرجع السابق 89 .

(251) المجيلدي 53 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

به من أراد العدل . قال يحيى بن عمر (252) : « قوت عيالهم يعني قوت سنة كانوا تجارا أو حرثوا لأنفسهم يترك لهم قوت سنة » وسئل يحيى بن عمر : إذا أراد الرجل الذي لا يعرف بيع الطعام ولا يحتكر أن يشتري في الغلاء قوت سنة . قال : « لا يمكن من ذلك (253) » وذلك حتى لا يسبب ارتباكا في السوق ويؤثر بالتالي في وجود تلك السلع وقلتها أو اختفائها من الأسواق وبالتالي يزداد ارتفاع سعرها .

والمشتري بسلعة بأكثر من سعرها دون أن يعرف ثم يكتشف ذلك فله الحق في الرجوع على البائع بما بقي له (254) وقال المالقي : لا احتساب على جالب الطعام ولا لمن يبيع بغير دكان ولا حانوت يعرض للخاص والعام ولا على الفواكه والخضر إلا لغلاء مفرط ، ولا تسعير على أصحاب الحرف ، ولقد أوردهم صاحب التسعير (255) وهم الدباغ والسمسار والخراز (256) والبناء والصاغة والشراط (257) والتكاز (258) والحواز (259) والخياط والبرام (260) والصفار والقواس والخراط والفخار والحائك والنجار والرماح والحداد وجميع أهل الحرف والصنائع .

---

(252) أحكام السوق 135 ، المجيلدي 53 .

(253) نفس المرجع ص 55 .

(254) نفس المرجع نفس الصفحة .

(255) المرجع السابق نفس الصفحة .

(256) الخراز : محترف الخرازة وهي صناعة الجلد .

(257) الشراط : محترف الشراطة وهي أخذ الدم من الجسم بآلة تسمى المشرط ، ويراد به الحجام في بعض أقطار المغرب والشلاط في بعضها الآخر (دوزى ذيل المعاجم العربية مجلد 1 ص 747)

(258) التكاز : هو الذي يدعى معرفة الغيب بالنظر إلى العظام أو الدقيق أو في الرمل أو في كف اليد ، وهي حرفة المشعوذين والحواة من النساء والرجال .

(259) الحواز : من يرسم الحدود والنهايات في الأراضي والعقارات ، ويعرف بالقسام أو الحبال لأنه يستخدم الحبل في القسمة . (دوزى نفس المرجع 335/1) .

(260) صانع البرم وهي القدور وتسمى الطناجير أيضا ، فيقال قدر برام وطنجير برام . (دوزى مجلد 78/1 — 79).

وقد تعرضت كتب الحسبة لمقاومة المحتسب احتكار السلع وأقوات الناس ، وقال يحيى بن عمر (261) فيمن احتكر الطعام وكان ذلك مضرا بالناس في السوق : « أرى أن يباع عليهم ، ويكون لهم رأس مالهم والربح يتصدق به أدبا لهم ، وينهوا عن ذلك فمن عاد ضرب وطيف به وسجن » . فقال ابن عبد الرؤوف (262) : « لا يترك أهل الحوانيت وسائر أهل الادخار أن يقتنوا شيئا مجلوبا من إدام أو غيره ، مثل الزيت والعسل والسمن والزبيب والتين وما أشبه ذلك مما بالناس حاجة إليه ولا يحتكرونه لنهي النبيء عليه السلام فقال : « لا يحتكر إلا خاطىء » . قال : ابن حبيب : « يعني أن احتكاره خطيئة ، قاله مالك وقال ابن حبيب : « لا رخصة في احتكاره إلا لجالب أو زارع ، ولم ير مالك على هذين بأسا ، فإن فعلوا بعد النهي أدبوا وأخرجت السلعة من بين أيديهم وفرقت بين الناس وذوي الحاجة ، فيشتركون فيها بالثمن الذي ابتاعه به ، فإن لم يعلم ثمنه فبتسعيره يوم احتكاره ، وقد فعل ذلك رضي الله عنه إلا أن يأخذ الناس حاجتهم فيفضل شيء من غير الطعام فلا بأس به .

وكذلك يفعل في الحبوب كلها التي هي قوت للعباد وعلوفة للدواب .

ومن ذلك السوق المعلوم يكون في البلد يقصده الناس للشراء معهم ، فلا يمكنون من ذلك حتى يأخذ الناس حاجتهم إلا أن يأخذوه لأنفسهم ، وكذلك ينهون عن تلقي السلع التي يهبط بها إلى الأسواق لهذا الغرض . وهكذا نرى أن التسعير ومقاومة الاحتكار في قرطبة القرن الخامس الهجري كان يخضع لرقابة المحتسب الذي من اختصاصه العمل على منع احتكار السلع الاستهلاكية الضرورية لقوت الشعب والعمل على توافرها وبأسعار تتناسب ودخول الأسر الفقيرة .

(261) آراء النبيء عليه السلام والخلفاء الراشدين وبعض الفقهاء في الاحتكار . انظر أحكام السوق ص 135 هامش 1

(262) ابن عبد الرؤوف 109 — 110 .

وإذا كان الربع الأول من هذا القرن قد تعرض للفتنة البربرية وما رافقها من عدم استقرار الوضع السياسي ، فإن من نتائج ذلك هجرة الكثير من القرطبيين من بلدهم وسوء الأحوال الاقتصادية وبالتالي عدم قدرة الحكومات المتعاقبة في تلك الفترة على ضبط السوق ومراقبته وتنفيذ التسعير ومقاومة الاحتكار .

أما عهد كل من بني جهور وبني عباد والمرابطين فهي عهود استقرار سياسي لقرطبة أدى إلى استقرار الأحوال الاقتصادية وانتعاشها .

عندئذ كان بمقدرة المحتسب مراقبة الأسواق وتنفيذ التعليمات الخاصة بتوفير السلع الاستهلاكية بأسعار تتناسب وقدرة الأسر الفقيرة ومنع احتكار التجار للسلع الضرورية .

* * * *

الأســـواق

كانت غالبية الأسواق تحيط بجامع قرطبة وجامع الزهراء والزاهرة ، وكانت لا تتضمن سوى متاجر ذات دورين فقط وتكون حارات ضيقة لا نهاية لها هنا وهناك ، وكانت بعض الأماكن المستطيلة (التربيعة) المحيطة بالدكاكين تترك فراغا صغيرا فيما بينها (263) ، وكانت قيسرية قرطبة (264) يعرض بها بعض أنواع التجارة الفاخرة وكان للقياسرية ممر مغطى يطل على الشارع بفناء واسع محاط بأروقة تطل عليها الدكاكين وفي الوسط كان يوجد حوض ماء أو حوض خضرة . وكانت هذه الأسواق تتضمن طابقا أو أكثر معدا كفندق أو خان لإقامة المسافرين والتجار الأجانب ، وكانت أيضا في الأدوار العليا مخازن للبضائع ، وهي غرف تؤجر لأولئك التجار العابرين بالمدينة (265) .

---

(263) L. Provencal l'esp. Musul. au X.S. p. 181

(264) ابن الأبار : التكملة ترجمة 907 .

(265) L. Provencal, op. cit, p. 188

وكان كل نوع من أنواع التجارة أو حرفة من الحرف يحتل شارعا أو سوقا باسمه (266) .

وفي أسواق قرطبة نجد الفواكه والخضروات المختلفة الأصناف الواردة إليها من أسواق المدينة ومن جميع أقطار الأندلس وكذلك أسواق اللحوم المذبوحة المختلفة (البقري ، والضأن والماعز) (267) .

كذلك هناك دكاكين لبيع مصارين تلك الحيوانات ، كل مع كرشه في جملة سقطه (268) .

كذلك بائعو المأكولات ، فهناك دكاكين الأسماك المقلية والطازجة التي تصاد من نهر قرطبة (269) ، وهناك بائعو الزلابية والمركاس والمجبنات (270) والحلوى (271) .

كما تجد بائعي الأرانب المشوية بالوزن (272) ، وكذلك الخبز الناضج الذي يباع بالوزن أيضا (273) .

ويرى « بروفنسال » أن تجار التجزئة كانوا يمنعون من البيع أمام المسجد الجامع بقرطبة أو أي مكان آخر مخصص لتجار آخرين ، وذلك لتجنب وقوع

---

(266) ابن عبدون 43 .

(267) السقطي 32 ، ابن عبدون 44 .

(268) السقطي 33 .

(269) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثانية 1964 دار المعارف القاهرة 214/1 .

(270) op. cit, p. 189

(271) الذخيرة 232/1/1.

(272) L. Provencal, le Seville, p. 96

(273) op. cit. loc. cit.

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

النزاع بينهم . ويتولى المحتسب تنظيم الأماكن المخصصة لكل فئة من أصحاب المهن وبذلك ينبغي لكل واحد منهم أن يظل في حيه بين أصحاب مهنته (274) . وهناك دكاكين بائعي السمن والعسل (275) وبائعي اللبن (276) ، وكذلك هناك بائعو البيض (277) وأمامهم أوانيهم المملوءة بالماء ليطمئن المشتري على سلامة البيض الذي يشتريه ، وهناك بائعو الطيور الحية والمذبوحة .

وكان بالسوق أيضا الحناطون وهم بائعو القمح والشعير والفول والعدس والحمص وجميع القطاني وبائعو الملح والخل (278) .

وكان الشارع الرئيسي بسوق قرطبة هو شارع المحجة العظمى ، وقد أمر الخليفة المستنصر صاحب شرطة قرطبة أحمد بن نصر بتوسعته لضيق السوق عن مخترق الناس وازدحامهم فيها « وهدم الحوانيت المتحيفة لعرضها المضيقة لسبيلها وتم له ذلك (279) » .

وكان السوق يعج بضجيج الجمهور ونداءات الدلالين الذين كانوا دائما في خدمة الجلاسين (الوسطاء) ، وكذلك كان في السوق دكاكين الدباغ والسمار والخراز والبناء والكاتب والشراط والتكاز والحواز والخياط والبرام والصفار والقواس والخراط والفخار والحائك والنجار والرماح والحداد وجميع أهل الحرف ، ودكاكين القطانين والكتانين ومبيضي الأقمشة ونساجي الأقمشة الحريرية (الطراز) (280) ، وكذلك دكاكين صانعي الصابون (281) وكذلك دكاكين

---

(274) op. cit. p. 95.

(275) ابن عبد الرؤوف 105 .

(276) السقطي 69 ، ابن عبد الرؤوف 92 .

(277) ابن عبدون 43 .

(278) المرجع السابق 45 .

(279) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجي 71 .

(280) L.Provencal l'esp. M. au. X.S. p. 189.

(281) ترتيب المدارك 682/4 .

صانعي وبائعي الملابس ذات الفراء ، وصانعي القلانس ، وكذلك دكاكين الملابس الجاهزة (282) ، وكذلك كان لصانعي الأحذية أي القراقين بقرطبة شارع باسمهم يسمى سكة الإسكافيين وهم صانعو الخفاف (283) وصانعو النعال (284) وصانعو الاسبدريل (وهو نوع يشبه البلغة مصنوع من الخوص) واسمه Al pargatas .

وكانت حوانيت أصحاب الحرف هي مدارس لتعليم الصبيان أصول تلك الصنعة (285) ، وهناك أيضا أسواق الخشابين (286) . وقد تعرضت للحرائق أثناء الفتنة في عيد الفطر سنة 401 هـ (287) وامتدت منها النيران فأحرقت أسواقا كثيرة (288) ، وهناك سكة النشارين (289) وتجارة الفحم (290) كانت لها أسواقها الخاصة المعروفة للمشترين ، وكذلك أسواق بائعي الحطب (291) وبائعي الطوب والجص والرماد وتلك لها أسواقها الخاصّة المعروفة التي يقصدها الناس (292) .

وكان هناك سوق الصرف ، وكره مالك أن يكون أهل الذمة صيارفة في أسواق المسلمين لعملهم بالغش والربا ، ورأى أن يقاوموا (293) . ولم نر أثرا لمثل هذا التحذير ومنع أهل الذمة من العمل في سوق الصرف في قرطبة .

---

(282) op. cit. p. 190

(283) نفح الطيب 305/4 .

(284) ابن عبد الرؤوف 103 .

(285) المقتبس تحقيق الحجي 207 .

(286) ابن عذارى 57/3 .

(287) ابن عذارى 107/3 .

(288) المرجع السابق نفس الصفحة .

(289) الصلة 160/1 .

(290) السقطي 38 .

(291) كان ما يرد قرطبة من أحمال الحطب على عهد ابن أبي عامر ستة آلاف حمل وستمائة حمل على اختلافها . انظر أعمال الأعلام 104 .

(292) ابن عبدون 38 .

(293) ضوابط دار السكة 114 .

ويرى صاحب ضوابط دار السكة « أن سوق الصرف من أحوج الأسواق فيما يجب من إعمال النظر والتزام التأني ـــ لموافقة الرّبا فيه ـــ والحذر والمعاملة في سوق الصرف قلما تكون على ما يوجهه الشرع (294) » .

وكان هناك سوق الدواب (295) بقرطبة ، وسوق البغال التي اشتهرت بها قرطبة والتي كانت تباع الواحدة منها بخمسمائة دينار لحسنها وعلوها الزائد (296) . ويرى ابن عبدون « أنه يجب أن يجعل في سوق الدواب أمين يرجع إلى قوله عن الاختلاف بين الأشياء (297) » .

ومن المسائل التي أوردها ابن سهل في باب العيوب أنه ورد إلى فقهاء قرطبة سنة 456 هـ « في رجل اشترى بغلة بطليطلة ، وصار بها إلى بلنسية ، واطلع فيها على عيوب بعد شهرين ، وأثبت عند القاضي بها أنها قديمة بالبغلة قبل أمد التبايع ، وخاطب بذلك القاضي ، قاضي طليطلة مع وكيل المشتري ، وصرف البغلة مع نفسه ، وأعذر إلى بائعها فأتى بشاهدين من البياطرة حضرا وشهدا عند القاضي أنها كانت سالمة من هذه العيوب يوم عقد الصفقة ـــ أي الشهادتين أعمل وأولى بالقبول (298) » فجاوب ابن عتاب « شهادة اللذين شهدا بالسلامة عند البيع أعمل ، إذا كانا عدلين عالمين بما شهدا به . وفي هذا الأصل اختلاف بين أصحاب مالك » .

وجاوب الفقيه ابن مالك بقدم العيب أولى وإن كان القائمون بها أقل عدالة من الآخرين .

ومسألة أخرى في هذا الخصوص : فقد شارو صاحب أحكام الشرطة والسوق بقرطبة أبا بكر بن حريش والفقهاء في رجل قام عنده لرد فرسه الذي اشتراه

(294) ضوابط دار السكة 114 .
(295) قلائد العقيان 176 ، نفح الطيب 162/2 .
(296) نفح الطيب 62/2 .
(297) ابن عبدون 53 .
(298) ابن سهل ورقة 168 .

لعيوب قديمة ظهرت به ، وتم التبايع في سنة 457 هـ ، وكانت إجابات كل من الفقهاء ابن عتاب وابن القطان وابن مالك بأن هذا العيب يحط من ثمن الفرس (299) .

ومشهد السوق لم يكن ليختلف في قرطبة عن كل المدن الإسلامية الأخرى التي تعيش من التجارة ، والتي تجذب أسواقها زحام المشترين أو الأفاقين من المدن أو من الريف (300) ، يجيؤون من أعمال قرطبة لبيع منتجاتهم وشراء مشترياتهم قبل عودتهم إلى قراهم ومدنهم ، وكان المسافرون والقادمون من المشرق أو المغرب الذين يزورون الأحياء التجارية في المدن الإسلامية لا يحسون أنهم قد تغربوا أبدا عن بلادهم (301) .

وكان السوق يعج بالمستعربين والبربر واليهود والمسيحيين . وكانت اللغة العربية هي الأكثر استعمالا ، ولكنها كانت أيضا ممتزجة بتلك اللاتينية الدارجة التي اصطلح على تسميتها بعجمية الأندلس . ولم يكن البربر يتحدثون لغتهم الأصلية إلا فيما ندر (302) ، وإن كان هناك إفريقي أو مشرقي أو مسيحي من الشمال تضطره ظروف أعماله أو حبه المغامرة للذهاب إلى قرطبة ، فإنه لم يكن يعسر عليه التفاهم بلغته الأصلية وإن كان كثيرا ما يتكيف بسرعة في الوسط الجديد (303) . وفي هذا الاختلاف اللغوي والجنسي كان لتجارة الرقيق نصيب بارز ، وكانت تجارته مهمة جدا في شبه الجزيرة الأندلسية ، وكانت لقرطبة شهرتها وبها سوق خاص لها، وكانت المبيعات تبلغ أرقاما مرتفعة (304) ، ورأينا أن بعض ملوك الطوائف كان يرسل إلى أسواق قرطبة ليشتري الجواري الحسان (305).

---

(299) ابن سهل ورقات 168 — 170

(300) L. Provencal. op. cit. p. 190.

(301) op. cit, loc. cit.

(302) op. cit, p. 191

(303) op. cit, p. 192

(304) op. cit, p. 192.

(305) ابن عذارى 308/3 .

وكانت للأسواق آدابها ، ومع ذلك لم يخل السوق من المنكرات التي نهت عنها كتب الحسبة ، ولقد لخصها صاحب شذرات في الحسبة حين قال : « إن منها الكذب في المرابحة ، وإخفاء العيب وبيع أشكال الحيوانات المسورة في أيام العيد للصبيان ، وبيع الملاهي وبيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة ، وكذلك بيع ثياب الحرير وقلانس الذهب والحرير ، وكذلك هناك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة ويزعم أنها جديدة ، وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى تلبيسات (306) ، ومن اختلاط الرجال والنساء في مواقف البيع في الأسواق (307) ، وذكر الطرطوشي أن الأمر كان يؤدي إلى « تلاصق أجساد بعضهم ببعض حتى بلغني أن رجلا ضم امرأة من خلفها فعبث بها في مزدحم الناس » . وزاد على ذلك بأن قال : « الذي يجري في هذا الزمان من اختلاط الرجال والنساء ومضامة أجسامهم ومزاحمة من في قلبه مرض من أهل الريبة ومعانقة بعضهم لبعض — كما حكى لنا أن رجلا وجد يطأ امرأة وهم وقوف (كذا) في زحام الناس ، وحكت لنا امرأة أن رجلا واقعها فما حال بينها إلا الثياب » (308) .

ومن منكرات السوق أيضا طرح الأزبال والقاذورات فيها (309) وإيقاف الدواب بالخشب والحطب واجتيازها السوق بالشوك (310) ، واتخاذ مرابطها على

(306) المجيلدي ص 111 نقلا عن شذرات في الحسبة لمؤلف مجهول رقم 1376 ورقات 16 — 17 مخطوطات المكتبة الوطنية بالجزائر .

(307) الطرطوشي : الحوادث والبدع تحقيق محمد الطالبي 41 ، المجيلدي ص 105 نقلا عن يحيى بن عبد الله بن أبي البركات قطعة من بشائر الفتوحات والسعود ورقة 277 مجموع 1154 دار وثائق الرباط .

(308) الطرطوشي : الحوادث والبدع ص 69 .

(309) المجيلدي : المرجع السابق 105 .

(310) المرجع السابق 110 نقلا عن تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير الناكر رقم 1353 ، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بالجزائر ، ورقم 2577 بالخزانة العامة ، للرباط ورقات 75 — 83 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الطريق فتضيق الطريق بحيث يتعذر جواز المارين ، فربما أدركهم شيء من تلوث ثيابهم من أرواثها وأبوالها أو ركضت أحدا (311) .

ونجد أيضا بعض أصحاب الدواب وهم يحمّلون دوابهم بأحمال تنوء بها إلى جانب ضرب وأذى تلك البهائم (312) ، وكذلك نجد بائع الزيت (313) في السوق وإن كان ينكر وجوده ووجود بائعي الأشياء الأخرى التي تعرض المارة للقذارة ، وهي التي كان يطلق عليها اسم « المائعات » حول المسجد لتجنب ترك الأوساخ (314) .

وكذلك كان ينهى عن بيع اللفت حول المسجد وذلك تجنبا لرائحته الكريهة ، وكان يأمر القاضي والمحتسب أهل الأسواق أن يرتبوا منذرا يشعرهم بأذان الظهر والعصر في كل يوم ، ليتأهبوا للصلاة ويجمعوا له كل يوم جمعة شيئا يستعين به في معيشته (315) ، وكان التسول عادة مستقبحة في الأسواق ولا نجد سائلا إلا أن يكون صاحب عذر (316) ، ويرى صاحب وصف جديد لقرطبة أنه كان بها من الفنادق والحانات ألف وستمائة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزاب والغرباء وغيرهم ، وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت وأربعمائة واثنان وخمسون حانوتا (317) .

---

(311) ابن عبدون 55 ، ابن عبد الرؤوف 111 .

(312) الجيلدي ص 110 .

(313) يحيى بن عمر 105 ، السقطي 68 ، ابن عبد الرؤوف 105 .

(314) L. Provencal. le Seville, p. 95

(315) ابن عبدون 23 .

(316) نفح الطيب 205/1 .

(317) مؤلف مجهول : « وصف جديد لقرطبة » ، تحقيق د. حسين مؤنس ص 170 .

الرقابة على الأسـواق :

لقد كان من الأهداف الرئيسية لرقابة الحكومة (318) على الأسواق تحصيل المكوس (319) ، وكانت حكومة قرطبة تشرف على الأسواق الداخلية في مدينة قرطبة وفي أعمالها ، وكان المحتسب هو الموظف المسؤول عن السوق ، وكان له مركزه المرموق بين الموظفين المدنيين ، وكان يطلق عليه أيضا في المغرب والأندلس صاحب السوق (320) ، وكذلك صاحب الحسبة (321) . ويقول الجرسيفي : « إن ديوان الحسبة من أعظم الدواوين ، وليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة » (322) . ويذكر ابن سهل في أحكامه الكبرى (323) « أن صاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة ، لأن أكثر نظره فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة وتفقد مكيال وميزان وشبهه » .

ولقد أورد السقطي السمات الشخصية للمحتسب ، وما يجب أن يتحلى به (324) ، واتفقت كتب الحسبة على أن يكون المحتسب من أهل العلم والفطن (325) ، ذا مهابة ونزاهة وحلم وتيقظ ، وأن يكون فهما ، عارفا بجزئيات الأمور (326) ولا يميل ولا يرتشي فتسقط هيبته ويستخف به ، ولا يعبأ به ،

---

(318) مما تجدر ملاحظته أن المغرب والأندلس كان بهما حفاظ شديد على التقاليد الموروثة ، مما يجعلنا نعتمد بعض الاعتماد على المصادر المتأخرة عن هذه الفترة باعتبار أن دلالتها يمكن أن تعد قائمة خلال القرن الخامس الهجري حتى وإن تأخرت كثيرا عن تلك الفترة .
وفي الوسع أن نتصور التداخل والتفاعل ما بين الحضارتين المغربية والأندلسية بحيث لا نكاد نلمس فرقا جوهريا بين النظم الإدارية على جانبي العدوة .

(319) المكس : هي الضريبة التي تؤخذ على السلع .

(320) يحيى بن عمر : أحكام السوق ، مجلة مدريد مجلد 4 سنة 1956 ص 108 .

(321) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص 5 .

(322) الجرسيفي : ثلاث رسائل في آداب الحسبة 119 .

(323) ابن سهل : الأحكام الكبرى ورقة 2 .

(324) السقطي : آداب الحسبة من 5 إلى 9 ، المجيلدي من 42 — 46 .

(325) نفح الطيب 203/1 .

(326) السقطي 5 .

ويتوبخ معه المقدم (327) له وأن يكون خيرا ورعا ، عالما ، غنيا ، نبيلا محنكا فطنا .

ولقد كانت وظيفة المحتسب في الأقطار الإسلامية سلطة ذات طابع ديني ، وكانت لها علاقة بالواجب الذي يفرض على الطوائف الإسلامية من أمر المعروف ونهي عن المنكر ، ويدعو إلى قمع الظلم والجور والسعي إلى العدل والتعلق به (328) .

لكن سرعان ما أصبحت مهمته تقتصر على مراقبة النشاط التجاري في المدن الإسلامية .

يقول القاضي ابن سهل : إن تعيين المحتسب وعزله من اختصاص القاضي (329) بعد موافقة ولي الأمر ، لتكون للقاضي الحجة عليه إن أراد عزله أو إبقاءه (330) ، غير أن يحيى بن عمر قال إن الوالي هو الذي يعين المشرف على السوق (331) . وكان عبد الرحمن الأوسط (206 هـ ـ 238 هـ) « هو الذي يميّز ولاية السوق عن أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة ، فأفردها وصير لواليها ثلاثين دينارا في الشهر ولوالي المدينة مائة دينار » (332) . وهذا لا يتعارض مع ما قيل ، فربما أخذ الوالي رأي القاضي قبل تعيين المحتسب ، فالاحتساب أخو القضاء ، والمحتسب لسان القاضي وحاجبه ووزيره وخليفته .

وإن غاب القاضي فهو يحكم مكانه فيما يليق به وبخطته وله أجره من بيت المال ، والقاضي يوقع أحكامه وأفعاله (333) كما أن له أعوانه يساعدونه في عمله (334) .

(327) ابن عبدون 20 .
(328) النباهي : ص 5 .
(329) ابن سهل ورقة 2 ، النباهي ص 5 .
(330) ابن عبدون 20 .
(331) يحيى بن عمر : أحكام السوق 103 ، 104 .
(332) المغرب في حلي المغرب 46/1 .
(333) ابن عبدون 20 .
(334) ابن خلدون 225/1 .

وأضاف القلقشندي أنه أحيانا كانت تضاف سجلات الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشرطة بهما (335) .

ولم يكن إشراف المحتسب يمتد فقط إلى الصناع والتجار ، ولكن أيضا يتناول أصحاب المهن الأخرى كالملاحين والحمالين والكتاب العموميين ، وكان إشرافه يمتد كذلك إلى المؤدبين ، ويقوم بإخلاء المساكن الآيلة للسقوط ويتولى حماية الآداب العامة (336) .

وكان في استطاعته أن يحكم بالسجن والعقوبات البدنية في المشاجرات (337) . وكان المحتسب يأمر أهل كل صناعة أن يتخذوا يوم الجمعة منذرا يسمعهم التكبير إذا كبر الإمام ، وأن يرتب أهل الأسواق منذرا يشعرهم بآذان الظهر والعصر في كل يوم ، لتيأهبوا للصلاة في كل وقت ويجمعوا له كل يوم جمعة شيئا يستعين به في معيشته ، يجبرهم على ذلك القاضي والمحتسب (338) ، وكان يمنع البيع يوم الجمعة بعد الأذان (339) . ويحض على الصلاة جماعة ، ويمنع الناس من الصلاة في الحوانيت والمساطب والدور (340) . هذا إلى جانب أن بعضهم كان يكلف بأشياء خاصة بالخلافة مثل ابن عقبة ــ عريف الخياطين في عهد الخليفة المستنصر ــ الذي كلف بأن يعقد الأعلام في قنواتها لتكون في صحبة الجيش (341) .

---

(335) صبح الأعشى 487/3 .

(336) ابن خلدون المقدمة 576 ، الجيلدي ص 105 ، 106 نقلا عن مخطوط « بشائر الفتوحات والسعود في أحكام العزيزات والحدود » ، الجيلدي ص 110 ، 111 نقلا عن تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر .»

(337) L. Provencal. Hist. Esp. M. vol. III, p. 150, 151

(338) ابن عبدون 23 .

(339) ابن عبد الرؤوف 76 .

(340) المرجع السابق 75 .

(341) المقتبس تحقيق الحجي ص 25 .

ولقد كان الحرفيون التجار منتظمين في طوائف على رأس كل منها عريف أو أمين (342) له السلطة عليهم ، وهو مسؤول عن كل ما يحدث مباشرة في جماعته طبقا للقواعد التجارية الموضوعة والأعراف المستقرة التي يلم بها من مراقبته لصنعته ، وكان خبيرا بالجيد والرديء من حرفته (343) ، وكانت لمختلف طوائف المهن أماكن مخصصة في الأسواق حيث تحتل الدكاكين شوارع بأكملها ويحمل الشارع اسم المهنة أو الطائفة . وكانت طوائف الصناع تندرج تحت عدة طبقات ، يختص أغلبها بالتغذية وصناعة الملابس .

وكان على المحتسب أن يتفقد أمورهم وصنائعهم ويمنعهم من تعطيل الناس في حوائجهم (344) .

وكانت المنتجات الزراعية المستجلبة من الريف إلى المدن يشتريها التجار الذين يتولون بيعها بالتجزئة في متاجرهم ، وكان يأتي أسواق قرطبة التين الربي (345) من مالقة والقوطي والشعري من إشبيلية .

وقد نهى يحيى بن عمر عن دهن التين بالزيت فإن لم يكترث التاجر بعد ذلك تصدق المحتسب بتينه على المساكين (346) .

وكان الطحن وصناعته الخبز يضمان عددا كبيرا من العمال ، مأجورين لخدمة الخباز (347) الذي كان يضمن هؤلاء ويصبح مسؤولا عنهم وعن غشهم وخطئهم أمام المحتسب (348) ، وكان لابدّ أن تغربل حبوب القمح قبل

---

(342) ابن عبدون 53 .

(343) الجيلدي 56 .

(344) السقطي ، آداب الحسبة 62 .

(345) ذلك لأن اسم مالقة في القديم رية .

(346) أحكام السوق 109 .

(347) L. Provencal, L'esp. M. au. X.S. p. 189

(348) السقطي ، آداب الحسبة 10 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

بيعها (349) . بل يجب أن تغربل جميع القطاني(350) قبل بيعها (351) . وبيع الخبز ، مثله مثل الطحن ، كان تحت إشراف المحتسب الذي كان يجب أن يتأكد من أن الوزن صحيح (352) ، الربع من الدرهم رغيف ، على وزن معلوم وكذلك الثمن (353) . ويؤمر صاحب المخبز أن يطبع اسمه على خبزه وإلى جانب ذلك يشترط جودة صنف الدقيق وخلوه من النخالة ، وأن يكون غير مغشوش بالعظام أو شوابي البحر ومحاره في البلاد الساحلية أو التراب الأبيض (354) .

وقد كانت حيل تجار الدقيق لكسب الحرام وخلط النوع الجيد بالرديء كثيرة أوردتها كتب الحسبة (355) . كذلك لا يطحن الدقيق على أثر النقش (نقش الرحي) وهي من الوسائل التي يلجأ إليها الطحانون لغش الدقيق (356) . وكان المحتسب يتأكد من نظافة الطحانين وأوانيهم وسلامة ما يطحنون (537) ، ويأمر الخبازين بغسل قصاري العجين كل يوم وجرد الألواح ومسحها ، فإن الحشرات تدب إليها ، كذلك لا يعمل من عجين البيات خبز كبير (358) .

كذلك المكس الذي يأخذه أصحاب الأرضية على الطحن لا ينبغي إلا أن يكون بكيل معلوم جار بين الناس فإن لم يعلم مقداره فلا يجوز (359) ، وإذا بطل الرحي فأفسد الطعام فالمسؤولية على الطحان الذي يدفع تعويض ما أفسده (360) ، أما عقوبة من يتلاعب بأوزان وأسعار وأصناف أقوات الناس

---

(349) يحيى بن عمر ص 109 .

(350) وهي الحبوب التي تدخر كالحصى والعدس والباقلي انظر لسان العرب مادة قطن .

(351) يحيى بن عمر 109 ، السقطي 21 .

(352) السقطي 12 ، ابن عبدون 43 .

(353) نفح الطيب 203/1 .

(354) السقطي 20 .

(355) المرجع السابق من 20 إلى 30 ، ابن عبد الرؤوف 89 ، 90 .

(356) يحيى بن عمر 106 .

(357) السقطي 20 .

(358) ابن عبدون ص 48 .

(359) يحيى بن عمر 105

(360) المرجع السابق نفس الصفحة .

فقد عالجتها كتب الحسبة أيضا « فالخبز الناقص يتصدق به وإن كان كثيرا يكسر ويترك للبائع » (361) .

والحقيقة أن يحيى بن عمر كان متشددا في ذلك ، إذ قال إنه إذا وجد عند أصحاب الحوانيت خبز ناقص الميزان فإنه يؤدب صاحب الفرن الذي وجد عنه ، أما إذا عرف صاحب الحانوت بنقصانه ، فالأدب عليهما معا (362) .

أما صاحب الفرن الذي يخلط القمح الدنيء بالطيب فإنه ينهى عن ذلك أولا ، فإذا عاد أدب وأخرج من السوق (363) .

وقد أفتى ابن عتاب بالتصدق بالخبز الناقص والمغشوش أو يكسر ويتصدق به على المساكين غير أن ابن القطان ينكر هذا العمل قائلا ، « لا يحل ذلك في مال مسلم بغير إذنه » .

غير أن ابن سهل وافق ابن عقاب ، واعترض على قول ابن القطان (364) . إلا أن ابن حبيب أفتى بالضرب والسجن والإخراج من السوق (365) .

وحفاظا على صحة الناس رأت كتب الحسبة التشدد ليصل الخبز إلى المستهلك نظيفا ولا يتعرض للتلوث ، لذلك قال ابن عبد الرؤوف : لا يمكّن بيع الخبز حوات ولا جزار ولا من تستنقذر حرفته ، ويؤمرون بتغطية الخبز بين أيديهم ، ويمنعون من مجاورة أهل الحرف القذرة كبائعي السردين وسائر أصناف الحوت والبياطرة والحجامين وما أشبه ذلك .

ويؤمرون بتنظيف ساحاتهم والبعد عن المواضع القذرة (366) ، وكان الجزارون يبيعون اللحم البقري والضأن والماعز وتذبح الطاهرة من العيوب (367) . وكان لا

(361) ابن عبد الرؤوف 90 .
(362) يحيى بن عمر 111 .
(363) المرجع السابق 112 .
(364) ابن سهل الأحكام الكبرى ، ورقة 323 .
(365) المرجع السابق ، ورقة 324 .
(366) ابن عبد الرؤوف 90 .
(367) السقطي 32 ، ابن عبدون 44 .

يسمح للجزار أن يبيع نوعين من اللحم في دكان واحد ، لئلا يلتبس على الجاهل ، ويجعل لبيع كل نوع من اللحم حانوت متخصص (368) . وكان المحتسب يراقب موازينهم ، فلقد كانت الموازين والمكاييل والصنوج معايرة ومختومة ولا يزن أحد بالحجارة المنحوتة (369) . كذلك لا يسمح المحتسب بالغش في البيع ، فهو يحرم على الجزار خلط الأنواع بعضها ببعض (370) ، و خلط اللحم السمين باللحم المهزول ، أو خلط لحم بدون الذبائح بلحم البطون والرؤوس (371) ، وكذلك يمنع خلط المصران والكرش وبيعها على اللحم (372) ، بل يباع مصران البقري مع كرشه في جملة سقطه (373) ، لأن اللحم يباع رطلين بدرهم والبطون ستة أرطال بدرهم ، فلذلك لا يجوز أن يخلط اللحم بالبطون (374) . وقد عالجت كتب الحسبة طرق ذبح الحيوانات وبيعها ووزنها وغشها .(375) .

كذلك ميز اللحم الميت من المذبوح ، ولم تغفل كتب الحسبة تسعيرة اللحوم ، وأن السعر يجب أن يوضع في مكان ظاهر بجوار الذبيحة حتى يراه الناس (376) ، وإن كانت التسعيرة الجبرية بالتراضي بين البائعين والمحتسب (377) ، ولقد حرم على المسلمين شراء اللحم من مجازر أهل الذمة (378) .

---

(368) السقطي 34 .
(369) السقطي 18 ، ابن عبدون «صفات المكاييل والصنوج وأنواعها» من 39 ــ 41 ، والجرسيفي 12 .
(370) السقطي 33 ، يحيى بن عمر 117 .
(371) ابن عبد الرؤوف 93 .
(372) يحيى بن عمر 143 ، السقطي 33 .
(373) السقطي 33 .
(374) يحيى بن عمر 143 .
(375) ابن عبدون 44 ، ابن عبد الرؤوف 92 ــ 94 .
(376) يحيى بن عمر 106 ــ 107ــ108 .
(377) المرجع السابق نفس الصفحات .
(378) ابن عبد الرؤوف 94 ، الجيلدي 77 .

قال المالقي : « لا احتساب على جالب الطعام ، ولا لمن يبيع بغير دكان ولا حانوت يعرض للخاص والعام ، ولا على الفواكه والخضر إلا لغلاء مفرط ولا على السكري ولا على أهل الحرف كالدباغ والسمسار والخراز والبناء والكاتب والصاغة والشراط والتكاز والحواز والخياط والبرّام والصفّار والقواس والخراط والفخار والحائك والنجار والرماح والحداد ، وجميع أهل الحرف والصنائع والمتسببين من حمال أو سواه ودلال ، وسمسار وغيرهم » (379) .

وقال السقطي : « وكان ينبغي للمحتسب أن يتفقد أمورهم وصنائعهم ويمنعهم من مطال الناس في حوائجهم ، لما في ذلك من تعطيلهم للناس عن أشغالهم وإضرارهم بهم » (380) .

وكان بالسوق عدد كبير من الشوائين الذين ينضجون اللحم أمام زبائنهم ، كذلك تجار الأسماك المقلية الذين كان عليهم ألا يبيعوا ويخلطوا الطازج مع البائت وألا يبيت عندهم سمك إلا أن يكون مملحا (381) ، وتجار العجين المقلي (الزلابية) الصفاج وتجار المحشو المدعو المركاس (382) وتجار المجبنة المسماة بالمجبنات .

وكانت صناعة الملابس تحت رقابة المحتسب ، وكانت تضم القطانين والكتانين ومبيضي الأقمشة أي القصارين ونساجي الأقمشة الحريرية (الطراز) ، ولقد بينت كتب الحسبة طرق بيع غزل القطن والكتان ، فلا يباع كل منهما مكببا ، وبيّن ابن عبد الرؤوف طرق بيع وغش الكتان . أما عن الملاحم الرديئة النسج فقد أفتى ابن القطان بأن تحرق ، غير أن ابن عتاب أفتى بتقصيفها وتوزيعها على المساكين (383) .

---

(379) الجيلدي ص 55 وراجع التعريف بهذه المهن فيما سبق ص 117 .

(380) السقطي 62 ، الجيلدي ص 113 ، 114 نقلا عن الأقنوم .

(381) السقطي ص 35 .

(382) لون من ألوان الطعام كان شائعا في الأندلس والمغرب ومازال معروفا في بلاد الشمال الإفريقي ، وهو أمعاء الحيوان أو بعض أنواع الخضر كالبذنجان ، يحشى بالأرز وقطع من اللحم وتطهى بطريقة خاصة . انظر ويشي ميرانده المطبخ الأندلسي المغربي في عصر الموحدين (مقالة بالإسبانية) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد 1957/5 القسم الأوروبي ص 149 .

(383) ابن سهل : الأحكام الكبرى ورقة 323 .

ويوجد في السوق أيضا صانعو الملابس ذات الفراء ، وصانعو القلانس ويدعون القلاسين ، والصباغون وصانعو الأحذية (القراقون) وكلمة القرق يقصد بها حذاء غير محدد الشكل يتضمن جزءا من الجلد ، ولقد بين ابن عبد الرؤوف طرق صناعة النعال (384) .

وكانت النساء تنهى عن لبس الخف الذي يسمع له صرير ، فإن لبسته بعد ذلك يشق ، وللمحتسب الحق في تخريق الجلد وحرقه إذا خرج عن عادته (385) .

وكان صناع الأحذية يسمون الخرازين . وقد أفتى ابن عتاب بإحراق أعمالهم الفاسدة لغشهم واستحلالهم أموال المسلمين . قال ابن سهل : ولقد رأيت خفا جديدا يشق بالسكين (386) .

وكان باعة الملابس قريبين من الخياطين الذين يحيكونها ، وللمحتسب الحق في تمزيق الثوب إذا خرج عن عادته (387) . وكان المحتسب يراقب الخياط حتى لا يخيط بفرد خيط ولا بخيط كامل ، لأنه لا يتمكن من شده لطوله فتكون الخياطة به محلولة (388) .

ونجد أيضا الرفاء الذي كان ممنوعا أن يرفو ثوبا إلا بموافقة صاحبه . وكان الصيدلانية والعطارون متجمعين الواحد بجوار الآخر ، وكان محرما عليهم خلط العقاقير إلا بحضور صاحبها وأن يحلفوا على ذلك (389) . ولقد وضحت كتب الحسبة طرق غش العطارين والصيادلة (390) .

(384) ابن عبد الرؤوف ص 103 ، الجيلدي ص 56

(385) الجيلدي ص 56 .

(386) ابن سهل ورقة 323 .

(387) الجيلدي ص 56 .

(388) السقطي 62 .

(389) L. Provencal. L'Esp. M, au, X.S.p. 190.

(390) ابن عبد الرؤوف 86 ، 87 ، الجيلدي نقلا عن صاحب الأقنوم « أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ت (1069 هـ/ 1685 م) ص 117 ، 118 .

ولم يكونوا يبيعون فقط التوابل ، ولكن كل أنواع دهون الجمال والمراهم والمساحين والحناء والمنتجات الصيدلانية (391) .

ولقد أفتى ابن القاسم بإنزال العقوبة بالتاجر الذي يغش المسك والزعفران (392) . وكان الصباغون الذين يصبغون الحرير يؤمرون أن لا يصبغوا ذلك إلا خارج المدينة (393) . وأن لا يصبغ الأحمر بالبقم (394) لأنه لا يثبت (395) . وكذلك دباغو الجلود لا يسمح لهم ببيع الجلد إلا أن يكون قد خرج ماؤه وتحققت النهاية في دباغه ، وكذلك عدم خلط جلد العنز مع جلد الضأن في قرق ولا جراب ، ومتى وجد ذلك قطع فإنه دلس لا خير فيه (396) .

وكانت محلات الوزانين العموميين زاخرة بالموازين والمكاييل والأصناج المدموغة ، وكان المحتسب يراقب دمغها (397) .

وقد اختلفت المكاييل من منطقة إلى أخرى ، فالأمداد والأقفزة والأرطال والأواقي المختلفة من مكان لآخر في الأندلس .

وكان من اختصاص المحتسب مباشرة طائفة البنائين والنقاشين (398) ، ويشرف أيضا على صناعة الطوب (399) التي كانت قوالبها معروفة ومعلومة عند المحتسب والصانع (400) ، وكذلك الجيارين (401) ، ولا يباع الجص إلا

(391) السقطي 64 .
(392) الأحكام الكبرى ، ورقة 324 .
(393) ابن عبدون 50 .
(394) صبغ يستخرج من شجر يدعى البقم ويستخدم في الصباغة ، وهي كلمة دخيلة معربة . أنظر لسان العرب مادة بقم .
(395) السقطي 63 ، المجيلدي 121 .
(396) السقطي 63 ، المجيلدي 121 .
(397) يحيى بن عمر 131 ، ابن عبدون 39 إلى 41 ، السقطي 18 ، الجرسيفي 130 .
(398) السقطي ص 68 .
(399) ابن عبدون 34 .
(400) السقطي 68 .
(401) ابن عبدون 38 .

بالكيل وكذلك الرماد (402) والجير ، فقفيز الجير خمسة وعشرون قدحا ، ولا يباع إلا مغربلا مثل الجص (403) .

ويراقب المحتسب « الزَّجّاج » وهو صانع الزجاج ، والصفار صانع الأواني النحاسية ، والحداد الذي يصنع المسامير المختلفة الأشكال والأنواع (404) . ونرى المحتسب يمنع من يبيع المسامير البالية برسم الجديدة ، وقد أورد السقطي أنواعها وأوزانها (405) . كذلك صفائح الخزائن التي يجب أن تكون موفرة وأقفالها متقنة غلاظا قوية ، وصفائح الأكواب أيضا يجب أن تكون أيضا وافرة ، وكذلك آذان الأكواب وأطراف المقابض (406) ومكابير التسمير يجب أن تكون مطبوخة قاطعة جدا ، فإن زيادتها مع شدة الضرب عليها تصدع الحافر وتبطىء الدواب (407) .

أما عن النجار الذي كان يصنع الأخشاب فالسلالم الخشبية مثلا يجب أن تكون وافرة الخشب غلاظا قوية الأضلاع حسنة التسمير (408) ، وكذلك كل ما يصنع . أما نشّار الخشب فقد حددت ساعات عمله (409) .

أما بائعو الحطب فقد كان محرما عليهم المشي في الأسواق حاملين معهم حطبهم حتى لا يؤذوا الناس ويمزقوا ثيابهم (410) . وكانت لا تباع أحمال الحطب إلا في الأرض (411) . وكانت لهم مواضعهم المحددة ، كذلك بائعو الفحم لهم

---

(402) المرجع السابق ص 37 .

(403) المرجع السابق 38 .

(404) المرجع السابق ص 36 .

(405) السقطي 65 .

(406) ابن عبدون 36 .

(407) ابن عبدون 36 .

(408) المرجع السابق نفس الصفحة .

(409) السقطي 65 .

(410) ابن عبدون 38 ، 59 .

(411) المرجع السابق 59 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مواضعهم ، ويجب أن يكون مع كل ربع في الوزن رطل من أجل السحاق (412) ، ويجب أن يحفظ من البلل حتى لا يثقل وزنه (413) .

كذلك من اختصاصات المحتسب مراقبة معاصر الزيت ونظافة أوانيه (414) وعدم خلط الزيت القديم بالزيت الجديد (415) ، وكيله ومعرفة طرق غشه (416) ، وكان مكيال الزيت ينبغي أن يصنع من الفخار ويكون رقيقا ، وهو أحسن من النحاس (417) . وكانت للأواني أغطية حتى لا تسقط فيها الحشرات ولا سيما الفئران (418) . وكذلك مراقبة نظافة أواني بائعي السمن والعسل (419) .

فقد كانت من مهام المحتسب المحافظة على صحة الناس ، ولذا كان يمنع أهل البلاد من بيع ما يؤكل وما يشرب (420) حفاظا على صحة المشترين من انتقال المرض إليهم ، أما بيع اللبن فكان يجب أن يبين البائع للمشتري نوع اللبن ، إذا كان لبن بقر أو لبن ماعز ، وكان يمنع من خلط اللبن ، وإذا خلطه وعرف هذا الغش يتصدق به (421) . ويرى ابن عتاب أن يطرح هذا اللبن المغشوش في الأرض ، غير أن ابن سهل انضم إلى المؤيدين بالتصدق باللبن المغشوش ونفع المساكين بإعطائهم إياه (422) .

---

(412) هو تراب الفحم .
(413) المرجع السابق 38 .
(414) السقطي 68 .
(415) يحيى بن عمر 115 ، 116 .
(416) ابن عبد الرؤوف 115 .
(417) المرجع السابق 108 .
(418) ابن عبدون 52 .
(419) ابن عبد الرؤوف 105 .
(420) يحيى بن عمر 129 ، السقطي 13 ، ابن عبدون 50 ، ابن عبد الرؤوف 93 ، المجيلدي 65 .
(421) يحيى بن عمر 113 .
(422) ابن سهل : الأحكام الكبرى ، ورقة 324 .

ولقد بينت كتب الحسبة طرق معرفة اللبن المغشوش (423) ، كذلك زبد البقر وزبد الماعز يجب ألا يخلط وإلّا يتصدق بها (424) .

ومن مهام المحتسب مراقبة صانعي الغرابيل ونظافة الشعر المستعمل وعدم استعمال شعر الميت (425) ، وأيضا مراقبة النخاسين حتى لا يبيعوا الدابة إلا لمعروف لديهم ، وأن يقيدوا في العقد عيوبها فقط وهم مسؤولون عن ذلك (426) ، كذلك يجب أن يكون لهم أمين يرجع إليه عند الاختلاف على الأشياء (427) ، ويؤمر النخاسون ألا يعذبوا البهائم ولا يوردوا دابة أكثر من مرة أو مرتين للمشتري (428) ، أما بائعو البيض فيجب أن يكون بين أيديهم أوان خاصة مملوءة بالماء ليقاس فيها البيض الفاسد (429) .

وبائعو الطيور لا يباع الطير المذبوح إلا منتوفة المؤخر ليظهر فاسدها ورديئها من جيدها (430) . وبائعو الملح يؤمرون بتغطيته خوفا من الحشرات . ولقد بينت كتب الحسبة أساليب طهي الطباخين للطعام واللحوم ونظافتهم ونظافة أوانيهم وطرق بيعهم (431) .

وجدير بالذكر أن بائعي الهريسة يؤمرون بالتأكد من حسن صنعها (432) ، وكانت أيضا تحت رقابة المحتسب .

---

(423) السقطي 69 ، ابن عبد الرؤوف 92 ، ابن عبدون 42 .

(424) يحيى بن عمر 113 .

(425) السقطي 68 .

(426) المرجع السابق ص 65 .

(427) ابن عبدون 53 .

(428) ابن عبد الرؤوف 113 .

(429) ابن عبدون 43 .

(430) ابن عبدون 43 .

(431) ابن عبد الرؤوف 96 ، 97 ، الجرسيفي 120 .

(432) ابن عبد الرؤوف 101 ، 102 .

وكذلك كان يأمر المحتسب بمنع خلط الخل بالماء (433) .

أما الفواكه فيجب أن تباع ناضجة ، وكذلك التين والعنب (434) ، وإن كان ابن عبدون قد استثنى من الفواكه العنب ليباع غير ناضج لفوائده للحبالى والمرضى (435) ، ولقد حرم شراء الجبن من المجوس ذلك لأنها تصنع من ذبائحهم التي لا يحل للمسلمين أكلها ، ولا بأس من أكل جبن النصارى (436) . ويجب أن تكون صهاريج الحمامات مغطاة ، فإن كانت مكشوفة لا تؤمن من نجاستها ، ولا يجب أن يمشي الطياب والحكاك والحجام في الحمام إلا بالتبان (437) وسراويلات (438) حتى يستر عورته (439) . ولا يستحم الرجل إلا بمئزر (440) ، وكذلك المرأة لا يجوز لها كشف بدنها للذميات في الحمام (441) ، كما يجب على الحمامي تنظيف الحمام وعدم ترك الصابون والسدر على أرضية الحمام لما في ذلك من خطورة (442) .

ولا يخدم مسلم دابة يهودي ولا نصراني ، ولا يستزبل له ولا يضبط ركابه ، وإن عرف هذا أنكر على فاعله (443) .

وتمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس ، وكذلك المسيحيات من دخول المساجد ، إلا يوم فضل أو عيد ، لأن القسيسين فسقة وزناة ولوطة (444) ،

---

(433) ابن عبدون 45 .

(434) يحيى بن عمر 110 ، ابن عبدون 43 ، 45 .

(435) ابن عبدون 45 . ون 45

(436) ابن عبد الرؤوف 101 .

(437) هو لباس قصير يغطي العورة المغلظة وكان يستخدمه الغواصون والملاحون .

(438) ابن عبدون 48 .

(439) ابن عبدون 48 .

(440) الجرسيفي 121 ، الجيلدي 116 نقلا عن المعيار ج 6 ص 294 ــ 296

(441) الجيلدي 112 نقلا عن شذرات في الحسبة لمؤلف مجهول ورقات 16 ــ 18 .

(442) الجيلدي ص 112 ، عن شذرات في الحسبة ، ورقات 16 ــ 18 .

(443) ابن عبدون 48 .

(444) المرجع السابق نفس الصفحة .

ولذا كان يحيى بن عمر يتشدد في منع النساء من الخروج إلى المقابر (445) ، فإن ابن عبدون تساهل في ذلك إلا أنه تشدد في مراقبة المقابر والطريق ، ومنع الباعة من التعرض للنساء بها ومضايقتهم في الطرقات ، وأن يتعاهد المحتسب ذلك كل يوم مرتين (446) ، وكذلك منع اختلاط النساء بالرجال في السوق أو في الأفراح والمآتم وحدد طرق ذلك (447) . كذلك يمنع النساء من الوقوف على أبواب ديارهن (448) ، وينهى النساء عن الصراخ العالي ولطم الخدود عند موت الميت (449) ، كذلك يمنع إشغال الطرق بالجلوس فيها للبيع أو رمي القاذروات (450) . كذلك يمنع دخول الدواب القيسارية والأسواق ، ويمنع توقيفها في الطرق الضيقة ومن إرسالها من غير ماسك لها (451) . ونهى كذلك عن الرش أمام الحوانيت بالماء ، حتى لا ينزلق أحد ويضر بالمارة (452) . وكان أهل المدينة مسؤولين عن تنظيف الأسواق من الطين في وقت الشتاء ، ونقل تلك الأوساخ إلى خارج البلد (453) .

وكانت تجارة العبيد أيضا تحت رقابة المحتسب ، ويوجد فصل كامل للسقطي (454) عن هذه التجارة ، نتبين منه مدى مكر تجار الرقيق وغش

---

(445) يحيى بن عمر 125 .

(446) ابن عبدون 27 .

(447) ابن عبدون 27 ، 28 ، 47 ، الجرسيفي 121 ، الجيلدي 105 نقلا عن يحيى بن عبد الله « قطعة من بشائر الفتوحات والسعود » ، ورقة رقم 227 .

(448) ابن عبد الرؤوف 113 .

(449) يحيى بن عمر 125 .

(450) ابن عبد الرؤوف 110 ، ابن عبدون 53 .

(451) ابن عبد الرؤوف 111 .

(452) يحيى بن عمر 126 ، 127 .

(453) ابن عبد الرؤوف 111 .

(454) السقطي 49 — 58 .

المشترين ، ونجد أيضا بعض التوصيات للجواري بتضليل سادتهن الجدد ، ولكن هذه النظم أيضا كانت متبعة في أسواق الشرق الإسلامي ، كذلك وضح لنا ابن سهل في أحكامه أن هناك احتسابا على النواتية في مراكب المراسي على نهر قرطبة (455) .

وإذا كان الأصل في تنظيم الولاية القضائية وفي تحديد اختصاصات كل قاض هو أن القضاة مراتب ، وأنه ليس لأحد منهم أن يجاوز حدود اختصاصه بالقضاء فيما لا يدخل في هذا الاختصاص ، وكان من يملك الأكثر يملك الأقل والعكس غير صحيح ، بمعنى أن صاحب الولاية العامة قد يفصل في أي ضرب من المنازعات ، حتى ما دخل منها في ولاية من هو أدنى منه مرتبة ، فإن هذا الأخير لايملك سلطة الفصل في منازعة تخرج عن ولايته واختصاصاته ، ويبدو أن ثمة حالتين وردتا في مخطوط ابن سهل ، أولاهما في خصوص المنازعة القائمة بشأن عقد بيع نصف كرم عرض أمرها على الوزير صاحب السوق ابن علي حسن بن ذكوان ، فشارو فيها (456) على غرار ما يفعله قاضي الجماعة بقرطبة ، والثانية تتعلق بمشاركة في زراعة .(457) .

وليس في الوسع أن نستخلص ـــ على سبيل الجزم ـــ من هاتين السابقتين الفريدتين قاعدة يمكن القول بأنها نشأت في قرطبة في القرن الخامس الهجري بالتوسع في اختصاصات ولاية صاحب السوق ، إلا أن يكون الأمر داخلا في اختصاصه بصفة أخرى ، أو بنص صريح أسند إليه هذه الولاية الموسعة التي تخرج من نطاق الحسبة في قضية معيّنة بذاتها ، أو على سبيل الفتيا باستطلاع رأيه استئناسا لا قضاءً ، وقد ورد في الأحكام السلطانية للماوردي « أن المحتسب تقصر ولايته عن سماع عموم الدعاوي الخارجة عن ظواهر المنكرات من الدعاوي في العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات ، فلا يجوز أن ينتدب لسماع الدعوى

(455) ابن سهل ورقة 34 .
(456) ابن سهل 139 .
(457) المرجع السابق 219 .

لها ولا أن يتعرض للحكم فيها لا في كثير الحقوق ولا قليلها من درهم فما دونه ، إلا أن يرد ذلك إليه بنص صريح يزيد على إطلاق الحسبة فيجوز ، ويصير بهذه الزيادة جامعا بين قضاء وحسبة » (458) . ولقد أجابنا ابن سهل في مخطوطه عن تلك التساؤلات فقال : « سألت بعض من لقيت عن صاحب السوق هل يجوز له أن يحكم في عيوب الدور ويشبهها ، وأن يخاطب حكام البلاد في الأحكام فقال : « ليس ذلك إلا أن يجعل إليه في تقديمه » (459) .

ويضيف الدكتور سليمان الطماوي بأن صاحب الحسبة لا يجوز له أن يحكم بل يقصر عمله على أن يأمر بأداء الحقوق متى ثبتت بالاعتراف ، وفي ذلك يقول (460) : « لا شك أن المستعرض لاختصاصات المحتسب يتبين له الشبه الكبير بين الوظائف الثلاث : الحسبة والقضاء ونظر المظالم ، والحقيقة أن تلك الوظائف الثلاث إنما يكمل بعضها بعضا ، والحسبة وسط بين القضاء وبين أحكام المظالم ، ومما يذكر أن والي الحسبة لا يجوز له أن يحكم بل يقصر عمله على أن يأمر بأداء الحقوق متى ثبتت بالاعتراف ، وكان في وسع المعترف الوفاء بالحق ، لأن الامتناع عن أداء الحق عندئذ يكون بمثابة منكر تجب إزالته .

وإذا كان والي الحسبة لا يحكم وإنما يصدر أوامر واجبة النفاذ ، فإن هذا النظام الذي كان معروفا في الإسلام منذ القدم له شبيه في النظم والتشريعات العصرية ، يتمثل في أوامر الأداء التي يصدرها القضاة بسلطتهم الولائية في حالة الحقوق الثابتة بالكتابة أي غير المجحودة ، وكذلك في غير جلسة علنية بما لا يعد قضاء بمعنى الكلمة ، وكذلك الحال في نظام الأوامر على العرائض والأوامر الجنائية ، وجميعها نظم يحسب الإنسان أنها مستحدثة من ابتكار الفكر القانوني في العصر الحالي ، وحقيقة الحال أنها كانت معروفة من قبل منذ عهد قديم في النظم الإسلامية ، ومن ثم يتبين أن الفقه الإسلامي قد سبق التشريعات الحديثة في هذا الخصوص .

---

(458) الماوردي : الأحكام السلطانية ، الطبعة الثانية 1966 ، القاهرة ص 242 .

(459) الأحكام الكبرى ورقة 2 .

(460) د.سليمان الطماوي : السلطات الثلاث ص 327 .

4 ـ الصناعــة

- ○ الصناعات المعدنية
- ○ الصناعات الزراعية والغذائية
- ○ الصناعات التقليدية

الصناعات المعدنيـة :

وفر لنا الجغرافيون العرب مادة علمية في هذا الموضوع ، إلا أنهم ــ للأسف ــ لم يتحدثوا عن التفصيلات الفنية الدقيقة لاستخراج المعادن (461) .

ولقد أخذ الرحالة المسلمون المشارقة الذين رأوا الأندلس في زمن خلفاء قرطبة بأهمية الثروات الطبيعية للبلاد ، وبالعناية التي تطبق في استخراجها ، فنجد « الذهب » يستخرج من أقاليم كثيرة بالأندلس . فالإدريسي رأى بنفسه كيفية استخراج الذهب من أشبونة (462) Lisboa التي كان من ضواحيها حصن المعدن Al mada ، وذلك لأنه عند هياج البحر يقذف الموج بالتبر (463) ويستخرج كذلك من تدمير (464) (مرسية) Murcia وفن غرناطة (465) Granada ، وكان يلقط سحالة الذهب الخالص (466) ، ومن نهرها حدارة (467) Rio Darro وكذلك استخرج من إلبيرة (468) Elvira وهي من أعمال غرناطة ، ويجمع كذلك من نهر لاردة (469) Lerida ومن المرج (470) بالقرب من حصن المدور Almodovar وفرنجولش Horanachuelos ومن هذا يتبين

(461) L. Provencal, L'Esp. M. au, X.S.p. 176.

(462) الإدريسي : صفة المغرب 184 ، ابن غالب فرحة الأنفس 291 ، الحميري : الروض المعطار 16 ، نفح الطيب 138/1 ، 145 .

(463) الإدريسي : 184 ، الروض المعطار 16 .

(464) الروض المعطار 62 « سميت باسم ملكها تدمير ، وفتحها عبد العزيز موسى بن نصير في رجب سنة 94 هـ » ، ابن الفقيه : مختصر البلدان 87 .

(465) ابن غالب 273 ، ياقوت معجم البلدان : 788/1 .

(466) الروض المعطار 24 : « برادة الذهب الخالص ، ويعرف بالذهب المدني »

(467) ياقوت 161/1 : « بتشديد الرّاء وضمها وسكون الباء » .

(468) ابن غالب 273 ، الروض المعطار 24 ، ياقوت 348/1 ضوابط دار السكة 85 .

(469) نفح الطيب 138/1 .

(470) الروض المعطار 143 .

أن بعض أعمال قرطبة كانت فيها مناجم للذهب ، إذ أن المدور قرية تتبع العاصمة الأندلسية ، ولا بدّ أن الذهب كان يأتي إليها خاما أو مصنعا من الأماكن الشهيرة بالأندلس . أما معدن الفضة فكان يستخرج من إقليم مرسية (471) ، وفضتها غزيرة متصلة المادة (472) ، ويستخرج كذلك من كورة تدمير وجبال جمة ببجانة (473) Pechina وإشبيلية (474) Sevilla ، وقليلا من أرض إلبيرة (475) وجيان (476) Jaen ولوشة (477) Loja من عمل غرناطة ، وكذلك يستخرج من المرج (478) وهي على مقربة من حصن المدور وفرنجلوش أما قرطبة المدينة فلم تذكر لنا المصادر وجود معدن الفضة بها ، ولكن وجد في أقاليمها في كبرفيق (479) وكرتش (480) .

وبالطبع كان أهل الأندلس على علم تام بطرق استخراج هذه المعادن الثمينة من مناجمها ، واستخلاص الشوائب منها واستعمالاتها . وكان الذهب والفضة يستعملان في السكة والزينة واستعمالات أخرى كيماوية وطبية وضحها لنا صاحب ضوابط دار السكة ، ولقد اشتهرت قرطبة بتحفها الذهبية والفضية (481) . أما معدن الحديد فكان يوجد بمناجم أندة (482)

---

(471) الإصطخري 36 ، الروض المعطار 181 ، ضوابط دار السكة 85 .

(472) الروض المعطار 182 .

(473) ضوابط دار السكة 85 ، نفح الطيب 138/1 .

(474) ابن الفقيه : مختصر البلدان 87 .

(475) الإصطخري 36 ، ابن غالب 283 ، الروض المعطار 24 ، ياقوت 348/1 وضوابط دار السكة 85 .

(476) ابن الفقيه : مختصر البلدان 87 .

(477) نفح الطيب 142/1 : « على بعد خمسة وخمسين ميلا غرب غرناطة » .

(478) الإدريسي 207 .

(479) ضوابط دار السكة 85 .

(480) الإصطخري 36 ، نفح الطيب 4/2 .

(481) L. Provencal, op. p. 185.
أرشيبالد لويس : القوى البحرية ص 260 .

(482) ابن غالب 285 ، ياقوت 279/1 « بالضم ثم بالسكون » ، الروض المعطار 31 ، نفح الطيب 170/1 .

Onda وهي مدينة في كورة بلنسية ، ويستخرج كذلك من طليطلة (483) Toledo ولبلة Niebla ، ومن نهر الوادي الكبير Guadalquivir في المسافة بين قرطبة وإشبيلية ، وكذلك يستخرج الحديد بكثرة من مدينة فريش (484) Castillo Hierro (أي حصن الحديد) وهي بالقرب من حصن البلوط Pedroches ، وقرطبة وفي قسطنطينة (485) Constantina كثير منه وينقل إلى جميع أقطار الأندلس (486) ، واستخرج كذلك من البيرة (487) وكذلك من أورية وهي بين دانية وشاطبة (488) . ووجد أيضا بالمرية (489) Almeria من موضع يسمى بكارش (490) التي اشتهرت بالصناعات الحديدية المختلفة (491) كالسكاكين والأمقاص وآلات العروس والجنود (492) ، ومنها كان يجهز إلى بلاد إفريقية وغيرها (493) والحديد يدخل في صناعات كثيرة مدنية وحربية .

ولم نجد في قرطبة المدينة مناجم للحديد وكذلك في أقاليمها المختلفة ، وكان يأتي إليها الحديد الخام لتصنع منه الخزائن والصناديق (494) والمسامير والسكاكين وكافة الآلات الأخرى ، هذا إلى جانب الصناعات الحديدية المختلفة التي تأتيها من جهات الأندلس الشهيرة السابقة . وكان الفولاذ يأتي قرطبة من أشبيلية (495) .

---

(483) الإدريسي 188 .
(484) ابن غالب 290 ، ياقوت 889/3 « بكسر أوله وثانيه وسكون ثالثه مع شين معجمة » .
(485) الإدريسي 207 ، الروض المعطار 143 : « وهي قرية من أعمال فريش » .
(486) الإدريسي 207 .
(487) ابن غالب 283 ، ياقوت 348/1 .
(488) المعجب 449 .
(489) نفح الطيب 153/1 .
(490) المعجب 448 .
(491) الإدريسي 197 ، نفح الطيب 154/1 .
(492) نفح الطيب 187/1 .
(493) المرجع السابق نفس الصفحة .
(494) ابن عبدون 59 .
(495) نفح الطيب 188/1 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

أما حجر المغناطيس الجاذب للحديد فيستخرج من مكان يعرف بالصنهاجين (496) من كورة تدمير ، ومن هناك يجلب إلى قرطبة وإلى جميع جهات كور الأندلس .

وإذا كانت قرطبة المدينة فقيرة في معدن الزئبق ، إلا أن ابن سعيد ذكر أنه يوجد في جهاتها (497) ، فكان يستخرج من حصن أبال (498) شمال قرطبة وعلى بعد مرحلة منه ، وقد شاهد الإدريسي هذا المنجم وطريقة تجهيز هذا المعدن وسبكه وإحراقه وعمل الأفران وتصفيته وسبكه ، وقال إن عدد العمال يزيد عن ألف عامل (499) ، واستخرج كذلك بكميات كبيرة من موضع يسمى شلون على أربع مراحل من قرطبة (500) ، وبالطبع كان هذا الانتاج غزيرا ويوزع منها إلى كل البلاد ، وقد وجد هذا المعدن أيضا في جهات مختلفة من بلاد الأندلس فوجد في حصن البلوط بمدينة قلعة أرويط Oreto ومن مدينة مسطاسة (502) Mestanza من أعمال أرويط ، وكذلك في جبال البرانس (503) Sierra de Almaden ، وفي شمال الأندلس (504) ، وأعتقد أن تلك الكميات المستخرجة من هذا المعدن من تلك الأماكن لم تبلغ حجم ما يستخرج من مناجم أبال .

أما معدن النحاس ، وإن كان لا توجد مناجم له في قرطبة المدينة أو إحدى

---

(496) ابن غالب 309 .

(497) حسبما نقله عنه نفح الطيب 186/1 .

(498) الإدريسي 213 ، الروض المعطار 10 .

(499) الإدريسي 214 ، الروض المعطار 10 .

(500) المعجب 448 .

(501) ابن غالب 289 ، ابن الفقيه : مختصر البلدان 87 .

(502) ياقوت 528/4 : « بالكسر ثم السكون وطاؤسين أخرى »

(503) الروض المعطار 4/2 .

(504) نفح الطيب 186/1 .

(505) ابن غالب 283 ، الروض المعطار 34 ، ياقوت 348/1 .

(506) بالإسبانية : Huelve

(507) نفح الطيب 186/1 .

(508) الإدريسي 188 .

أعمالها ، إلا أنه كان يستخرج من إلبيرة (505) وهي من أعمال غرناطة ، كذلك استخرج من مناجم كثيرة في ولبة (506) وشمال الأندلس (507) ومن طليطلة (508) . واستعمالات النحاس كثيرة ، واشتهرت ألمرية بالصناعات النحاسية (509) التي كانت تحلى بالذهب وتكون مع أدوات العروس وعدد الجندي (510) . وأعتقد أن هذا المعدن كان يأتي قرطبة من تلك الأماكن بعضه مصنعا أو خاما لتصنع منه قدور النحاس للهراسين ومقالي السفاجين والقلائين (511) وغير ذلك من الأدوات الأخرى التي تصنع من النحاس .

أما معدن الرصاص فلم نجد في المراجع ما يدل على أنه كان يوجد بقرطبة أو بأحد أحوازها ، وكان يأتيها من إلبيرة (512) وتدمير (513) وألمرية (514) .

وكان الرصاص تصنع منه المواسير الخاصة بنقل مياه الشرب ، أما معدن التوتيا فيوجد بساحل إلبيرة (515) بقرية تسمى بطرنة وهي أذكى توتيا (516) وأقواها في صبغ النحاس ، وكذلك بحصن يقال له شلوبينية (517) Salobrena وهي من أعمال إلبيرة . وإن كان بجبال قرطبة توتيا إلا أنها لم تكن كالبطرينية (518) .

أمّا مقاطع الرخام في الأندلس فكانت موجودة في أقاليم غرناطة ، ففي إلبيرة (519) مقطع للرخام لين أبيض يتصرف تصرف الكذان (520) للينه

(509) المرجع السابق 198 ، نفح الطيب 154/1 .
(510) نفح الطيب 197/1 .
(511) ابن عبدون 45 .
(512) الروض المعطار 24 .
(513) العذري 2 .
(514) المعجب 448 .
(515) الروض المعطار 24 ، ياقوت 348/1 ، نفح الطيب 138/1 .
(516) الإدريسي 199 ، نفح الطيب 138/1 .
(517) ياقوت 348/1 .
(518) نفح الطيب 187/1 .
(519) ابن غالب 283 .
(520) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، هامش : « الحجارة الرخوة ، انظر لسان العرب مادة كذن » .
(521) ابن غالب 283 .

ورطوبته ، وتعمل منه الأقداح والأطباق والأكواب والأسطال والحقاق وكل ما يخرط من الخشب يخرط منه (521) . أما رخام مدينة باغة Priego فقد كان يوجد بها مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشاة في حمرة وصفرة (522) ، وكانت مدينة فريش (523) مشهورة بأنواع أخرى من الرخام الحالك والمجزع والشديد الصفاء إلى جانب شدة الصلابة (524) .

أمّا في قرطبة فقد ذكر الرازي أن بجبالها مقاطع الرخام الأبيض الناصع والخمري (525) ، وأن مقاطع الرخام بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة كانت تتكلف تكاليف باهظة (526) ، وكان نقله عبر مسالك الجبل على عجلات من خشب البلوط على فلك موثقة بالحديد محفوفة بوثاق الحبال تجرها دواب كثيرة بعد تسوية الطريق أمامها (527) .

ولقد كانت قرطبة تستخدم مقاطع المنستير في إقامة المنشآت الخاصة بها ، وكانت لا تستغنى عن الأنواع الأخرى التي تأتيها من المقاطع الأخرى بالأندلس والتي تمتاز بألوانها المختلفة والتي كانت لها استخداماتها الخاصة .

وكان حجر الشادنة يوجد بكمية كثيرة بجبال قرطبة ، ويستخدم في التذهيب (528) . وإن كانت معادن كثيرة غير متوفرة في قرطبة أو إحدى أعمالها فإنه كان يأتيها ما تحتاج إليه من مناطق إنتاجه ببلاد الأندلس خاما فيصنع بها أو مصنعا للاستهلاك المحلي ، فمثلا القصدير الذي لا مثيل له ويشبه الفضة كان يأتيها من أكشونبة (529) .

---

(522) نفح الطيب 187/1 .

(523) ابن غالب 290 ، الإدريسي 207 ، ياقوت 889/3 ، الروض المعطار 143 : « وهي بين الجوف والغرب من قرطبة وبينها وبين قرطبة أربعون ميلا » .

(524) الإدريسي 207 .

(525) نفح الطيب 187/1 .

(526) نفح الطيب 92/2 .

(527) المرجع السابق 93/2 .

(528) المرجع السابق 138/1 .

(529) المرجع السابق نفس الصفحة .

وكذلك كان يأتيها الكبريت الأصفر والأحمر من مناطق كثيرة في بلاد الأندلس (530) . أما حجر البلور فكان يأتي من لورقة (531) . وكذلك حجر اللازورد (532) الجيد ، أما حجر النجادي فكان يأتي من أشبونة وهو يوجد في جبل يتلألأ فيه ليلا كالسراج (533) ، وكل تلك الأحجار بالطبع كان أغلب استخدامها في أعمال المباني والزخرفة في المساجد والقصور ومنازل الأرستقراطية ، هذا إلى جانب بعض الاستخدامات الخاصة في بعض الأواني والحلي لزينة النساء .

أما الياقوت الأحمر فكان يستخرج من حصن منت ميور من ناحية كورة مالقة ، إلا أنه دقيق لا يصلح للاستعمال (534) ، ويوجد في ناحية مدينة بجانة أشكال مختلفة كأنه مصبوغ حسن اللون صبور على النار (535) .

وتأتي تلك الأحجار الكريمة إلى قطبة ويصنع بعضها . وكانت قرطبة فقيرة في الملح الأندراني (536) الذي كان يأتي من سرقسطة (537 Zaragoza التي كانت تمتاز به عن بقية بلاد الأندلس (538) .

أما حجر البناء فلعل قرطبة كان لديها منه ما يكفيها ، فجبل قرطبة تقطع منه الأحجار المختلفة للبناء .

---

(530) المرجع السابق نفس الصفحة .

(531) المرجع السابق 158/1 .

(532) ابن غالب 308 ، نفح الطيب 138/1 .

(533) ابن غالب 308 ، نفح الطيب 138/1 .

(534) نفح الطيب 158/1 .

(535) ابن غالب 309 ، نفح الطيب 158/1 .

(536) العذري ص 23 : « الملح الذراني » ، نفح الطيب 143/1 .

(437) العذري 23 ، ابن غالب 288 ، الإدريسي 190 ، الروض المعطار 96 ، 97 : « سميت المدينة البيضاء لكثرة جصها وجيرها » .

(538) نفح الطيب 143/1 .

أما مادة الزنجفور ، وهي مادة تستخدم في الصباغة واشتهرت بها قرطبة ، وكان يأتيها من حصن أبال (539) ويصدر منها إلى جميع الجهات .

الصناعات الزراعية والغذائية :

تعرضنا في فصل الحسبة والمحتسب للصناعات الكثيرة في هذا المجال بشيء من الإيجاز ، ودور المحتسب في مراقبة مراحل تلك الصناعات ، وسنتعرض هنا لبعض الصناعات الزراعية التي كانت منتشرة في قرطبة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

كان هناك الكثير من الأرحية على نهر قرطبة (540) لطحن القمح ، الغذاء الرئيسي لجميع طبقات الشعب القرطبي . ولقد بينت كتب الحسبة التعليمات الخاصة بهذه الصناعة لتصل إلى المستهلك بحالة طيبة ودون غش . من هذه التعليمات منع الحناطين من خلط الدقيق الطيب بالرديء ، والمحجر بغيره مما لا حجر فيه ، ومن خلط الأطعمة طيبها برديئها (541) .

كذلك يؤمر الحناطون بتغطية الدقيق بين أيديهم حتى لا يتساقط فيه ما يفسده ، وكان على المحتسب « أن يتفقد معايير قففهم وتحقق وزنها ويطبع عليها » . أما صناعة الخبز فقد كانت تحتاج إلى دقة من الخبازين ، ذلك لأنها كانت تحت رقابة المحتسب في كل مرحلة من مراحلها . ولقد وضحت كتب الحسبة التعليمات الواجب توافرها لمحترفي هذه المهنة حتى لا يقعوا تحت طائلة المحاسبة ، قال ابن عبد الرؤوف : إن الخبازين مطالبون بإنعام طبخ الخبز وألا يكثروا الماء عند العجين (542) ، وينهون عن خلط البارد بالحار ويفرقون بين

---

(539) الإدريسي 213 .

(540) الرازي : وصف الأندلس 65 عن الترجمة الفرنسية ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب 5 ، 6 ، 94 : « أرحي كليب التي على النهر بقبلي قرطبة وهي تنتسب إلى مسلمة بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بكليب وآخر من بقي من ولده محمد بن عبيد الله بن مروان وتوفي بقرطبة 422هـ .

(541) ابن عبد الرؤوف 88 .

(542) المرجع السابق 89 .

الطيب وغيره ، ويفصلون بين الخمير والفطير ، ويمنعون من رش الخبز قبل الطبخ بالماء والعسل وبعد الطبخ بالزيت ، وينهون عن إقلال الملح فيه (543) ، ويمنعون عن تقريصه بالدقيق الطيب اللباب منه فذلك تدليس ، ويؤمرون أن يفرقوا بين أوزان الخبز ، ويمنعون عن العجن بماء الحمام إذ لا تؤمن نجاسته ، وعن التدخين عليه بعد إدخاله في الفرن بالنخالة وحطب الأستب (544) ليحسن وجهه ويتجمل للناظر .

وكانت مسؤولية الفران لا تقل عن الخباز ، فقد كان يجب عليه عدم استخدام حطب الأزقة والمواضع القذرة لنجاستها وإضرارها بالمطبوخ (545) ، وعدم كشف الخبز قبل إدخاله الفرن حتى لا يسقط فيه ما يفسده ، وإذا أُدخل الخبز الفرن يجب عليه ملاحظته حتى لا يحرق ، وعليه أن يميز بين خبز القمح وغيره ، ويؤمر بطبخ البيات عند وصولها إلى الفرن ولا يتركها تجتمع فيغلب عليها الخمير فتحمض وتتخلل (546) ، وإذا كانت هناك مطاحن على نهر قرطبة كما أسلفنا إلا أنه كان إلى جانب ذلك المطاحن اليدوية المنتشرة ، وقد ذكر لنا ابن سهل في قضية أوردها في نوازله (547) أن زوجة كان سكناها بحومة باب اليهود في درب أبي عبد الله لها اثنا عشر زوجا من مطاحن بيدٍ وأنها قبضت مكسها في سنة 451 هـ/ 1059 م ولعل تلك القضية تبين لنا تلك الأنواع من المطاحن التي كانت موجودة بقرطبة في القرن الخامس وكانت تساهم في صناعة الطحن .

لقد عظمت صناعة عصر الزيوت بقرطبة ، وذلك لأن الزيتون يغرس بكثرة في جبل العروس (548) ، وكانت استخدامات الزيوت كثيرة جدا ، فإلى جانب الأطعمة كان يستخدم في الإضاءة في المساجد والمنازل والحمامات ، وعصر

(543) المرجع السابق 90 .

(544) الأستب : ربما يكون نوعا من النبات .

(545) ابن عبد الرؤوف 91 .

(546) المرجع السابق نفس الصفحة .

(547) ابن سهل ورقة 186 ، 187 .

(548) ابن غالب 296 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الزيوت من الصناعات المنزلية ، وعصر السمسم لاستخراج زيت السيرج ، وهذا الزيت أخف من زيت الزيتون وكذلك زيت الخس وزيت القرطم (549) .

وكتب الحسبة تمنع معاصر الزيتون أن يعصر فيها زريعة الكتان لئلا تعلق رائحته بالزيت (550) ، ولقد وضحت أيضا طرق عصره وواجب المحتسب حيال الغشاشين (551) . ولم تبلغ شهرة قرطبة في تلك الصناعة شهرة مناطق أندلسية أخرى .

وكانت في قرطبة أيضا بعض صناعات الزيوت العطرية المستخرجة من الأزهار المختلفة المزروعة في جبل العروس (552) .

وكانت استخدامات الزيوت العطرية هامة جدا بالنسبة للنساء ، إلا أن الرجال لم يكونوا أقل استخداما لها .

وكانت صناعة تجفيف العنب من الصناعات التي عرفتها قرطبة وذلك لزراعة الكروم في جبل العروس (553) ، وكذلك كثرت في أعمال قرطبة تلك الصناعة وذلك لوفرة الكروم في فرنجولش (554) Hornachuelos ومارتش (555) . Martos

وقد كان الزبيب يستخدم في كثير من الأطباق الأندلسية ، ولكن لم تبلغ هذه الصناعة في قرطبة شهرة مدن أندلسية كثيرة اشتهرت بأنواع مختلفة من الزبيب وفاقت قرطبة فيها .

(549) السقطي 69 .
(550) السقطي 68 .
(551) ابن عبد الرؤوف 105 .
(552) الرازي 65 ، ابن غالب 296 .
(553) الرازي 65 ، ابن غالب 296 .
(554) الإدريسي 207 .
(555) ابن غالب 285 ، ياقوت 279/1 .

لقد انتشرت صناعة الخمور بقرطبة في القرن الخامس الهجري ، وإن كان بعض حكامها منعوا شربها وصناعتها في فترات متعددة . ولم يخالج المؤرخين العرب أي شك في ذلك ، فقد كان النبيذ تشربه جميع طبقات المجتمع القرطبي تشبها بالمسيحيين ، وقد سجلت حالات تبين فيها أن الشرب غير معاقب عليه ما لم يؤد إلى شر وعربدة (556) . ولقد كانت الخمور تصنع بقرطبة في فترة الفتنة القرطبية (399 هـ ـــ 422 هـ) ، وذلك لأن تلك الفترة افتقرت إلى حكومة قوية تسيطر على أحوالها .

وأدمن كثيرون من خلفاء تلك الفترة على الشراب ، هذا إلى جانب دخول جيش النصارى والإفرنج قرطبة أثناء تلك الفتنة ، وكان من الطّبيعي أن يشيع الشراب بين هؤلاء الجنود ، وقد منع ابن شهور شرب الخمر في قرطبة وكسر دنانها (557) . وبالرغم من ذلك كانت الخمور تصنع سرا في قرطبة ، وكان الفقهاء يفتون بعقاب من يعصر الخمر ويبيعها من المسلمين ويقيمون الحد عليه ، والدليل على ذلك تلك القضية التي أوردها ابن سهل في نوازله : « فقد شهد عند قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أحمد كل من محمد بن كليب ومحمد بن زياد وزكرياء بن خميس أنهم يعرفون أن عبد الله بن حمدون ممن يعصر الخمر ويبيعها ويشربها ويدخرها ، فسأل القاضي عن ذلك الفقهاء فجاوب أبو صالح وابن لبابة وعبيد الله بأن شرب الخمر حده ثمانون سوطا ، وأما عصرها وبيعها فالأدب على قدر ما يزعه عن ذلك وينهاه (558) .

وبالرغم من ذلك كانت الطبقة الارستقراطية في قرطبة لا تستغنى عن شربها ، ودليلنا على ذلك مجالس اللهو ومجالس حكام قرطبة في القرن الخامس الهجري ، لكن خمور قرطبة لم تبلغ شهرة أماكن كثيرة بالأندلس .

---

(556) نفح الطيب 199/4 .

(557) الذخيرة 364/1/1 .

(558) ابن سهل ، ورقة 378 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

كانت صناعة عسل النحل من الصناعات الموجودة في قرطبة ، وذلك لوجود الأزهار والورود على جبل العروس (559) ، ولم يبلغ العسل القرطبي الشهرة التي نالها العسل الذي كان يأتي قرطبة من أماكن كثيرة بالأندلس ، واستخدامات عسل النحل كثيرة ، فهو لم يستخدم في الأطعمة فقط بل دخل صناعة العقاقير الطبيّة للشفاء من بعض الأمراض .

لقد انتشرت صناعة الأدوية في قرطبة ، وذلك بفضل الأعشاب الطبية التي كانت متوافرة في جبل قرطبة (560) ، إلى جانب الأعشاب التي كانت تستورد من أماكن كثيرة داخل بلاد الأندلس وخارجها . وكان العطارون والصيادلة يقومون بتجهيز تلك الأدوية بناء على تعليمات الأطباء الذين اتخذوا دكاكين لهم في الشوارع والأسواق ، وخضعت تلك الصناعة لرقابة المحتسب (561) ، فقد نهى عن خلط العقار الطيب بالدون ، والأشياء الهندية بالبلدية ، وينهون عن خلط البذور الرديئة بالطيبة وبيعها على أنها طيبة ، وأن لا يبيعوا شيئا من العطر إلا مغربلا (562) ، ويجب على المحتسب منع من ليس لديهم الخبرة في صناعة الأدوية من ممارسة هذا العمل (563) .

وكان الصيادلة يجهزون الأدوية أيضا من المستخرجات المعدنية ، فالمرتك المعدود من خبث الذهب والفضة ويسمى المرداسنج وهو خبثهما بعد التخلص من النحاس وغيره ، يستخدم في ملء القروح الغضة لحما ويذهب اللحم الزائد في القروح ودمها ، ومن فوائده أيضا أنه نافع من احتكاك الأفخاذ وعرق الإبطين ورائحتهما ويبرىء القروح والبثور إذا خلط بالخل والزيت (564) .

---

(559) ابن غالب 296 .

(560) الرازي : وصف الأندلس 65 .

(561) ابن عبدون 47 ، ابن عبد الرؤوف 86 — 87 ، المجيلدي 117 ، 118 نقلا من لأقزوم في مبادىء العلوم .

(562) ابن عبد الرؤوف 86 .

(563) مرسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ص 110 نقلا عن تحفة الناظر الطبعة الأولى 1971 الجزائر .

(564) ضوابط دار السكة 38 .

وكذلك سحالة الذهب تدخل في الأدوية السوداوية (565) ، وأفضل الكي وأيسره برأ ما كان بمكوى الذهب ، وإمساكه في الفم يزيل البخار ، وتدخل سحالته في داء الثعلب وداء الحية (566) طلاء ويقوي العين كحلا وينفع من أوجاع القلب ومن الخفقان (567) .

وهناك عدد من الأطباء عاشوا في القرن الخامس الهجري بقرطبة نذكر منهم : محمد بن الحسن بن الحسين المذحجي المعروف بابن الكناني والمتوفي 420 هـ(568)/ 1029 م ، ومحمد بن سليمان الرعيني الكفيف المتوفي 437 هـ (569)/ 1045 م .

وعلي عبد الرحمن بن يوسف المتوفي 499 هـ (579)/ 1115 م وأبو الحسن علي بن سليمان الزهري (571) ، وأبو العرب بن محمد (572) المتوفي بعد سنة 430 هـ/ 1038 م ، وأبو عثمان بن محمد بن البغونش (573) ، ومحمد بن عبدون (574) .

وقال ابن حزم في فضائل الأندلس وأهلها (575) : « وأما في الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب حسان رفيعة ، وكتب محمد المذحجي أستاذنا

(565) الأدوية المهدئة .
(566) مرض جلدي يصيب فروة الرأس ويؤدي إهمال علاجه إلى الصلع ، وفي طرق علاجه انظر كتاب الذخيرة في علم الطب تأليف ثابت بن قرة ص 10 ، 11 ط المطبعة الاميرية 1928 القاهرة ، ابن البيطار المالقي : مختصر مفردات الطبيب ص 100 مطبعة السعادة 1939 القاهرة .
(567) ضوابط دار السكة 36 .
(568) طبقات الأمم 125 ، التكملة ترجمة 411 ص 118 .
(569) التكملة ترجمة 429 ص 122 — 123 .
(570) التكملة ترجمة 1838 ص 622 .
(571) صاعد البغدادي ، طبقات الأمم 109 .
(572) المرجع السابق 126 .
(573) المرجع السابق نفس الصفحة .
(574) المرجع السابق نفس الصفحة .
(575) ابن حزم فضائل الأندلس وأهلها نشر وتقديم د.صلاح الدين المنجد ، الطبعة الأولى دار الكتاب الجديد 1968 ص 18 .

رحمه الله تعالى وهو المعروف بابن الكناني ، وهي كتب رفيعة حسان ،و وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن القول والعمل في الطبائع لنصدقنّ . وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها » ومن الكتب التي كانت تدرس في قرطبة في الطب في القرن الخامس الهجري كتب ابن جلجل (576) ، ومنها كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة ورسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين ، وهو كتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة ألفه في أيام المؤيد بالله (577) ، وألف ابن وافد الطليطلي (578) كتاب الأدوية المفردة ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب (579) ، وكتاب الوساد في الطب ، وكتاب مجربات في الطب ، وكتاب تدقيق النظر في علل حاسة البصر ، وكتاب المغيث (580) . ويذكر صاعد أن ابن وافد كان له رأي في عدم استخدام الأدوية إلا إذا دعت الضرورة ، وأن الأغذية هي أفيد للإنسان من الأدوية ، وفي ذلك يقول : « وله في الطب منزع لطيف ومذهب نبيل ، وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريبا منها ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما وصل إلى التداوي بمفردها ، فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكن منه ، وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخفوفة بأيسر العلاج وأقربه » (581) .

---

(576) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء 495 .

(577) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(578) هو « عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي المتوفي 468 هـ » ، انظر ترجمته في التكملة رقم 1557 .

(579) صاعد : طبقات الأمم 128 ، طبقات الأطباء 496 .

(580) طبقات الأطباء 496 .

(581) طبقات الأمم 128 ــ 129 .

كما حظيت قرطبة في ظل الخلافة بشهرة واسعة في صناعة المنسوجات بأنواعها المختلفة ، قال الرازي : « إن من جملة المصنوعات المشهورة التي كانت تنتج في قرطبة الأقمشة الناعمة وأقمشة الحرير السميكة وكثير من المنتجات الأخرى » (582) .

وكانت هناك دار للطراز أنشأها عبد الرحمن الأوسط (583) ، وانتعشت هذه الدار في ظل الخلافة ، وكانت تنتج الأنواع المختلفة من المنسوجات ، وكان الخليفة الحكم المستنصر يزور دار الطراز ويتفقدها ويوجه تعليماته الخاصة إلى الفنيين والعمال (584) .

ولكن بعد سقوط الخلافة ورثت ألمرية قرطبة في تلك الصناعات ، فقد ذكر ياقوت فيما يختص بصناعة الوشي والديباج بقرطبة أنه « يعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله ، وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها ألمرية فلم يتفق في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية (585) » .

ولكن هذا ليس معناه أن قرطبة في القرن الخامس قد حرمت نهائيا من تلك المنسوجات الكتانية والحريرية ، فقد قال ابن سهل في نوازله : « إنه كان يزرع في قرطبة وما حولها الكتان (586) وغير ذلك مما لم يكبس ، وترتب على ذلك قيام صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية بها ، وكانت المنسوجات الحريرية يلبسها الرجال والنساء وتصنع منها القلانس » (587) ، لكن لم تشتهر تلك الصناعة في قرطبة شهرة مناطق كثيرة بالأندلس ، عرفت بأنواع مختلفة من الكتان الرفيع وأنواع فائقة من الحرير .

---

(582) الرازي 65 .

(583) أعمال الأعلام 20 .

(584) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق الحجي 92 .

(585) ياقوت : معجم البلدان 518/4 ، د.عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة ألمرية ، ص 155 .

(586) ابن سهل 138 .

(587) المرجع السابق نفس الصفحة .

لقد اشتهرت قرطبة بصناعة المنسوجات ، وكذلك لتوافر مادة الزنجفور من حصن أبال وهي المادة الأساسية في الصباغة ، وكانت تلك الصناعة تحت رقابة المحتسب (588) .

الصناعات التقليدية :

انتشرت في قرطبة في القرن الخامس صناعات تقليدية كثيرة ، سنذكر بعضها وهي :

صناعة الفخار : فقد كانت صناعة الفخار العادي من الصناعات التقليدية التي انتشرت في قرطبة (589) ، وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بصناعة الزيوت والألبان وكل ما يكال من الأغذية إلى جانب صناعة الأواني الخاصة بالأطعمة والقدور وأقداح الوضوء والغلال (590) ، وذلك لوفرة التراب الخاص بتلك الصناعة في جبل قرطبة .

فلقد انتشرت صناعة مكاييل الزيت من الفخار المزجج الرقيق ، وهو أحسن من النحاس ، لأن النحاس يصدأ فيخضر ويتزنجر بما في ذلك من خطر على صحة الناس . ولقد وضحت كتب الحسبة شروط هذه الصناعة (591) ، وكانت هناك أماكن خاصة لتلك الصناعات قريبة من إنتاج المادة الخام المستخدمة في الصناعة .

وكان الفخارون يؤمرون بتسييل ترابهم وتطييبه وأن يقللوا فيه من الرمل (592) ، وأن تعالج الأواني المعيبة ببياض البيض ومسحوق الخزف والجيار والرماد .

---

(588) السقطي 63 ، ابن عبد الرؤوف 111 .

(589) القوى البحرية والتجارية 260 .

L. Provencal. op. cit. p. 185.

(590) السقطي 67 .

(591) ابن عبد الرؤوف 108 .

(592) المرجع السابق 112 .

وشهدت قرطبة أماكن خاصة لبيع تلك المصنوعات ، ولقد أوضحت كتب الحسبة أوامر المحتسب للفخارين بألا يضعوا حوائجهم في الطرق خيفة أن تفسد عليهم لتضييقهم الطريق بها فتكون داعية للشر والخصومة (593) .

ولم تبلغ صناعة الفخار في قرطبة في القرن الخامس الشهرة التي حازتها أماكن كثيرة أندلسية في صناعة الفخار المزجج بالذهب وغيره .

ومن الصناعات التي انتشرت في قرطبة صناعة الكاغذ ، وكذلك لاستخدامه في الكتابة ، ويرجع انتشار تلك الصناعة إلى أهمية قرطبة العلمية وكثرة العلماء الوافدين والراحلين منها في القرن الخامس الهجري .

وقد تعرض الكغّاذون لمراقبة المحتسب (594) .

ولقد انتقلت صناعة الورق من الشرق إلى الأندلس منذ القرن السابق (الرابع الهجري) ، وارتبط بتلك الصناعة صناعة التسفير أو التجليد التي ازدهرت في قرطبة حتى تحولت من مجرد كسوة الكتاب إلى زخرفته وتزويقه وتلوينه وتذهيبه ، وقد اهتم المسلمون في المغرب والأندلس بهذه الصناعة اهتماما كبيرا ، حتى بلغت غاية الكمال ووضحت الكتب التي تصف هذه الصنعة وتتحدث عنها مثل كتاب « التيسير في صناعة التسفير » (595) ، وقد قسم الكتاب إلى عشرين بابا (596) كلها في أسلوب التسفير ، فالباب الأول في الأداة ، و(2) باب

(593) ابن عبد الرؤوف 111 ، الجرسيفي 124 .

(594) ابن عبد الرؤوف 124 ، ابن عبدون 48

(595) يذكر أرشيبالدلويس في كتابه « القوى البحرية والتجارية » ص 260 (الترجمة العربية) أن هذه الصناعة انتقلت إلى الأندلس في حوالي القرن الخامس الهجري . ولكن نص المقدسي (أحسن التقاسيم ص 239) يدل على أن صناعة الورق في الأندلس كانت سابقة على هذا التاريخ . انظر كذلك :

Mahmud A. Makki : Ensayo Sobre Las aportaciones rientales en la Espana Musulmana, ed. Madrid, 1967, p. 14.

محمود مكي : دراسة حول التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في ثقافة الأندلس حتى سقوط الخلافة .

(596) مخطوط في مكتبة تطوان يقع في 14 ورقة .

الأغرية ، (3) التخريم وحكمه ، (4) باب التفقيه ، (5) باب التسوية ، (6) باب الحبك وحكمه ، (7) باب التبطين ، (8) باب البشر ، (9) باب تركيب الجلد ، (10) باب العمل في الأسفار البوالي ، (11) باب طبخ البقم ، (12) باب النقش ، (13) باب نقش الضرس ، (14) باب الأمثلة ، (15) باب العمل في الأزرة والغراء ، (16) باب العمل في أقرية المصاحف ، (17) باب العمل في الأقرية المبنية ، (18) باب العمل في الجوامع ، (19) باب في النكت ، (20) باب في العيوب .

وصاحب هذا الكتاب هو بكر بن إبراهيم الإشبيلي المتوفى في القرن السادس الهجري ، وقد استفاد من كتب أخرى كتبت عن هذه الحرفة قبله ، مثل كتاب الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد السفيان من أهل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي الذي فرغ منه في ذي الحجة عام 1029 هـ وقد نشره مسيو ريكار بفاس سنة 1929 م (597) .

ولقد كانت قرطبة منذ القرن الرابع الهجري منتدى العلماء ، وبالتالي عظمت فيها صناعة نسخ الكتب وصناعة التسفير ، ولقد توافرت المواد الأولية المستخدمة في تلك الصناعة من جلد وماء وذهب وألوان وخيوط وغراء وغير ذلك مما ورد في أصول هذه الصناعة .

وفي القرن الخامس الهجري ازدهرت تلك الصناعة ازدهارا عظيما ، وإن كان الربع الأول من هذا القرن قد شلت فيه الصناعة بوجه عام ، لظروف الفتنة البربرية وهجرة كثير من القرطبيين عن ديارهم ، لكن هذه الصناعة انتعشت من جديد ، بسبب المنافسة العلمية التي كان يتبارى فيها بعض ملوك الطوائف وحرصهم على اقتناء الكتب ودعوة الشعراء والعلماء إلى ديارهم .

(597) المرجع السابق : المقدمة ، صفحات 1 — 7 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

ومن الصناعات التي انتشرت في قرطبة الصناعات الجلدية (598) ، وكانت أيضا كغيرها من الصناعات الأخرى تحت رقابة المحتسب في كل مرحلة من مراحلها .

فالجلادون ممنوعون من بيع جلود الميتة نية ويبيعونها مدبوغة للإنتعال والطحين عليها وما كان من منافع البيت ، وما قبل دباغة فلا ينتفع به (599) ولا يباح للدباغ بيع جلد ، إلا أن يكون قد خرج ماؤه وتحققت النهاية في دباغته ، ومتى يبس وطوى وكسر فهو غير جيد الدباغ (600) ، أما في صناعة النعال فيمنع الصانع من تغليظ حواشي النعل قبل خرزه (601) .

ويمنع القراقون ألا يخرزوا وصلا يقع في القرق (602) إلا بشعرتين ، وأن يفصلوه كاسيا خيفة أن يقع خرز النعال على التوصيل ، وأن يقربوا أيديهم في خرز النعال ، ويكون الخيط من قنب ، ويكون كعب القرق من أفراخ الجلد البقري مبلولة بالغراء ولا يجعلوا فيه ولا تحت النعال طفلة ، فإن فعلوا غير ماحد لهم في ذلك فتق عليهم (603) وعوقبوا . ودخلت الجلود أيضا في صناعة تجليد الكتب التي أشرنا إلى انتشارها في قرطبة والتي كانت مرتبطة بكثرة مجالس العلماء وكثرة عدد الوافدين إليها والراحلين منها .

لقد كثرت بقرطبة الأنواع المختلفة للأشجار (604) فانتشرت الصناعات القائمة على قطع الأشجار وتصنيعها ، كصناعة الأثاث وصناعة المراكب

---

(598) القوى البحرية والتجارية 260 .
L. Provencal. op, p. 185.
(599) ابن عبد الرؤوف 102 .
(600) السقطي 63 .
(601) ابن عبد الرؤوف 102 .
(602) وكان تصنع منه الأخفاف ومنها اشتقت حرفة القراقين أي الذين يقومون بصناعة هذه الأخفاف .
(603) ابن عبد الرؤوف 103 ، السقطي 64 .
(604) الرازي 64 .

وصواريها والقوارب التي تسير في نهر قرطبة ، وصناعة الأواني والأحقاق والأكواب التي تخرط من الأخشاب ، هذا إلى جانب الأبواب والشبابيك والخزائن .

وكانت الأبواب تصنع وتباع في الأسواق جاهزة لاستخدامها في المباني (605) .

وكانت هناك صناعة مكعبات الزجاج المفصصة التي تشبه الفسيفساء (606) ، وحددت كتب الحسبة طرق صناعة الأواني والصنج الزجاجية (607) .

وهناك صناعات حرفية كثيرة ومتنوعة قائمة على المواد الأولية تعرضنا لها في الفصول السابقة .

النظم الماليـــة :

المعاملات الماليــة :

لم تشهد فترة الفتنة القرطبية (399 ــ 422 هـ/ 1008 ــ 1030 م) تعديلا رئيسيا على طرز النقود ، فقد بقيت مشابهة للطرز السابقة مباشرة عليها ولكن يصعب نسبتها ، ذلك أنه في الفترة التي تمزقت فيها الخلافة المروانية قامت بعض الشخصيات بسك نقود مشابهة لنقود الخلفاء ، ولم يجروا عليها تعديلا إلا إثبات أسمائهم في أحد السطور التي تقع في المنطقة الوسطى من قطعة العملة في نفس الموضع من نقود الخلافة (608) .

ولكن في بعض الأحيان تكون هذه الأسماء مجهولة ، فلا ندري إذا ما كانت هذه القطعة ترجع إلى عصر الخلافة أو أن الخليفة الذي أثبت اسمه فيها ، إنما هو

(605) ابن سهل 143 .
(606) السقطي 64 .
(607) المرجع السابق 67 .
(608) Antinio Prieto Vives, op, cit, p. 103

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

صورة يريد الضارب منها أن يعطي صفة شرعية على سلطته السياسية . ومن سمات القرن الخامس الهجري أن هناك قطعا كثيرة من النقود قد زيفت ، وذلك بسبب قلة كمية الفضة التي كانت متداولة في القرن الخامس الهجري .

ويمكن أن نقسم نقود السنوات الثلاثين الأولى من القرن الخامس الهجري إلى ثلاثة مجموعات : أولا : مجموعة الخلفاء الأمويين المتأخرين ، ثم مجموعة الشخصيات غير المعروفة التي لم تكن أعضاء في أسر مالكة ، وأخيرا قطع النقود المزيفة التي تقلد عصر الخلافة .

لقد سك محمد بن هشام بن عبد الجبار (609) نقودا بين سنتي (399 — 400 هـ) ، ومن أسماء الأعلام التي تظهر على تلك النقود اسم جهور في سنة 399 هـ ومحمد وابن مسلمة في سنة 400 هـ . أما الأول فلابدّ أن يكون هو أبا الحزم بن جهور (610) الذي رأس مجلس الوزراء الذي كان يحكم قرطبة ابتداء من سنة 422 هـ/1030 م . وأما الشخصان الآخران ـــ محمد وابن مسلمة ـــ وابن مسلمة هذا يظهر أيضا على بعض قطع النقود التي تحمل اسم سليمان بن الحكم المستعين (611) في نفس السنة (612) . أما ابن مسلمة هذا فنظن

(609) الملقب بالمهدي ، ولي الخلافة مرتين : الأولى في جمادي الأولى سنة 399 هـ ولمدة تسعة أشهر ، والثانية في ربيع الأول سنة 400 هـ لمدة تسعة وأربعين يوما . انظر ابن عذارى 50/3 .

(610) أعمال الأعلام 147 ، ابن عذارى 185/3 : « هو جهور بن محمد بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبده » ، وانظر أيضا المعجب 109 . ويلاحظ أن «يوسف بن بخت» في سياق هذا النسب إقحام ينبغي حذفه . وقد حقق هذا النسب والخلاف فيه بالتفصيل الدكتور محمود علي مكي في الحاشية رقم 97 (ص 454) من تحقيقه للجزء الذي نشره من المقتبس لابن حيان (ط .بيروت)

(611) ولي الخلافة مرتين : الأولى يوم الثلاثاء السابع عشر لربيع الأول المذكور من سنة 400 هـ ثاني يوم ، فزار المهدي وانخلع في الثاني عشر لشوال من نفس السنة فدولته الأولى سبعة أشهر . والثانية يوم خلعه هشام بن الحكم إلى يوم قتله ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصفا . انظر ابن عذارى 91/3 — 92 .

(612) Prieto Vives op. cit, p. 105.

أنه صاحب الشرطة الذي كان من أكبر أعوان سليمان بن الحكم المستعين ثم انقلب عليه وانضم إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي الذي لجأ إلى طليطلة حيث كان القائد القائم بأمره واضح الصقلبي في ربيع الأول سنة 400 هـ (613)

أما قطع النقود الخلافية فنجد بعضها لا تحمل أسماء مضروبة في سنتي 400 هـ و401 هـ ، وقطعها تحمل اسم البكرى ترجع إلى سنة 401 هـ ، وقطعها تحمل اسم عبد الله وترجع إلى سنة 401 هـ ، 402 هـ ، وقطعها تحمل اسم ابن عباس سنة 403 هـ .

أما نقود عهد سليمان المستعين فمنها ما يرجع إلى عصر حكمه الأول في سنة 400 هـ تحمل اسم ابن مسلمة مضروبة في الأندلس ، ومجموعة أخرى تحمل اسم ابن شهيد مضروبة في مدينة الزهراء ، علما بأن مدينة الزهراء قد خربت في سنة 401 هـ/ 1010 م (614) .

وأما نقود فترة خلافته الثانية ما بين سنتي 403 ــ 407 هـ (1012 ــ 1016 م) فإن هناك شكوكا كثيرة تحيط بالنقود المضروبة فيها .

وقام الحموديون بضرب نقود خلافية ذات طراز وطابع مشابه لتلك التي ضربها الأمويون ، ويبدو أنه كانت لهم داران للسكة . واحدة في الأندلس وأخرى في سبتة ، ونجد أن اسم الأندلس واسم سبتة مثبتان بوضوح على هاتين المجموعتين ، بل إننا نجد أن عددا ــ وإن كان قليلا ــ مضروبا أيضا في مالقة (615) .

وهناك مجموعة من النقود بين سنتي 403 هـ و405 هـ تحمل اسم الخليفة الأموي سليمان المستعين ومعه اسم علي ، وفي بعض الأحيان علي بن

(613) عن ابن مسلمة هذا انظر ابن عذارى : البيان المغرب 93/3 .

(614) ابن عذارى 101/3 ــ 102 .

(615) Op. cit, p. 109

حمود (616) ، وهناك قطع ترجع لسنة 405 هـ نجد عليها اسم هشام المؤيد ، ويبدو فيها اسم علي ولي العهد ، وتستمر هذه المجموعة خلال سنتي 406 و407 هـ في سبتة وخلال 406 هـ في الأندلس .

أما النقود التي تحمل اسم علي بن حمود (617) ــ باعتباره خليفة ــ فهو لم يستند في دعواه على قرابته من النبيء بقدر ما اعتمد على حجته من أن هشاما المؤيد عهد إليه بالطلب بدمه وبهذا أخرج كتابا للناس (618) أول ولايته نسبة إلى هشام وفيه يستغيث من سليمان ابن الحكم المستعين ويولي ابن حمود أمر الأخذ بثأره (619) . وقد رأى أنه بهذا يكسب دعواه مظهرا من الشرعية والحق . والنقود التي ضربها علي بن حمود ترجع إلى سنتي 407 ــ 408 هـ وهي تذكر اسم ولي عهده وهو ابنه الأكبر يحيى .

أما النّقود المضروبة باسم الخليفة القاسم بن حمود فإنها تشكل لنا صعوبات كثيرة من حيث سنوات ضربها وأماكنها .

أما النقود التي تحمل اسم يحيى بن علي بن حمود (620) المضروبة في الأندلس فهي قليلة جدا وبعضها يبدو مضروبا في مالقة .

---

(616) Op. cit, loc, cit.

(617) كانت مدة خلافته سنة واحدة وتسعة أشهر وتسعة أيام : تولى الخلافة يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة وقتل لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة . انظر ابن عذارى 120/3 .

(618) بهذا الكتاب مدحه الشعراء المتشيّعون ومنهم أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذي مدحه بقوله :

فكل من ادّعى معك المعالي كذوب مثلما كذب الدعيّ
أبى لك أن تهاض علاك عهد هشاميّ وجد هاشميّ

انظر الذخيرة 10/2/1 ، التشيّع في الأندلس د.محمود مكي ص 134 .

(619) ابن عذارى 116/3 ، التشيع في الأندلس 134 .

(620) ولي الخلافة مرتين : الأولى في مستهل جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة ، وفر في منتصف ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، فكانت ولايته الأولى بقرطبة سنة واحدة وستة أشهر ونصفا غير يوم واحد ، أما المرة الثانية فكانت بعد خلع المستكفي في رمضان سنة ست عشرة حتى نهاية هذه السنة . انظر ابن عذارى 131/3 ، 143 .

ولسنا نعرف نقودا في الفترة القصيرة التي حكم فيها عبد الرحمن المستظهر (621) ، أما خلافة محمد المستكفي (622) فنعرف درهما يحمل اسم بدر في سنة 414 هـ وبعض كسور الدينار تحمل نفس الاسم وترجع إلى سنة 415 هـ . أما خلافة هشام المعتد (623) فقد وصلتنا عنها قطع تحمل اسم ابن ذكوان ، ونحن نعرف أن بني ذكوان أسرة قرطبية كان من بينها قاضي الجماعة لقرطبة (624) في السنوات الأخيرة من خلافة هشام المؤيد وقد عزل في سنة 400 هـ/1009 م وتوفي سنة 413 هـ/1022 م

ونعرف شخصا آخر من بني ذكوان (625) نصب قاضيا للجماعة في سنة 429 هـ/1037 م واستعفى في سنة 430 هـ/1038 م وتوفي 435 هـ/1043 م ، ولعل هذا الأخير هو الذي نجد اسمه مثبتا على النقود الراجعة إلى عصر هشام المعتد فقد كان متوليا للحسبة في قرطبة .

أما النقود في ظل بني جهور فهناك قطعتان تحملان رقم 351 (626) الأولى مضروبة في سنة 439 هـ ، وهي كسر من دينار ومكتوب عليها « الدينر بقرطبة

---

(621) تولى الخلافة يوم الثلاثاء السادس عشر من رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وقتل يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة من السنة ، فكانت خلافته سبعا وأربعين يوما خالصا .
انظر ابن عذارى 135/3 .

(622) تولى الخلافة بعد مقتل ابن عمه المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربعة عشرة وأربعمائة وخلع في ربيع الأول سنة ستة عشرة وأربعمائة .
انظر ابن عذارى 131/3 ــ 143 .

(623) خلافته بالثغر وبقرطبة أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة عشر يوما .
انظر ابن عذارى 145/3 .

(624) هو « أبو العباس بن ذكوان » ، وكان يدعى الوزير القاضي ، وهو أول من تقلد وظيفة الوزارة مجموعة إلى ولاية القضاء في قرطبة ، ولم تجتمع هاتان الوظيفتان لأحد في الأندلس قبله ، انظر النباهي : ص 21 ، ترتيب المدارك 664/4 .

(625) هو : « حسن بن محمد بن ذكوان » نصب قاضيا للجماعة ورقى إليها من أحكام الشرطة والسوق .
انظر الصلة 136/1 .

(626) Prieto Vives, po, cit. p. 220

سنة تسع وثلثين » ، والثانية ضربت في قرطبة سنة 440 هـ وهي أيضا كسر من دينار مكتوب عليها الدينر بقرطبة سنة أربعين » .

وتحت رقم 352 (627) هناك قطعتان أيضا ،إحدهما مضروبة في قرطبة سنة 440 هـ/1048 م وهي كسر من دينار مكتوب عليه « الدينر بقرطبة سنة أربعين وأربع الإمام / عبد الله أمير المؤمنين » .

والقطعة الثانية في قرطبة سنة 441 هـ/1049 م كسر من دينار مكتوب عليه : الدينر بقرطبة سنة إحدى وأربعين ، وتحت رقم 353 قطعة واحدة مضروبة في قرطبة سنة 442 هـ/1050 م وهي كسر من دينار الكتابة عليها (628 : « /الله لا إله إلا ... الدينر بقرطبة/ سنة اثنين وأربعين وأر... ثم في السطر التالي الإمام/ عبد الله (629 » .

ونحن أمام نماذج بني جهور التي ذكرها Prieto Vives والتي بدأت بسنة 439 هـ/ 1047 م نرجّح احتمالين : الأول أنه ربما لم يعثر حتى الآن على عملات لبني جهور سكت قبل هذا التاريخ ، والاحتمال الآخر أنه ربما لم يضرب أبو الحزم بن جهور باسمه عملة طيلة تلك المدة منذ توليته رئاسة قرطبة 422 هـ/1030 م حتى وفاته 435 هـ/1043 م ليثبت للجماعة أن نظامه الرياسي يقوم على مشاورة الوزراء ، وأنه لم يتخذ لقبا من ألقاب الملوك وإنما اكتفى ـــ كما نعرف ـــ بأن يطلق على نفسه لقب « أمين الجماعة » (630) وأن ابنه أبا الوليد من بعده اتبع خطاه فترة ثمّ بدأ بعد ذلك ابتداء من سنة 1047/439 م في سك العملة في قرطبة وأنه لم يسجل فيها اسمه بل سجل اسم الإمام عبد الله .

---

(627) Op. cit. loc, cit.

(628) Op. cit. p. 221

(629) Op. cit, loc. cit

(630) الذخيرة : 115/2/1 ، ابن الأبار : الحلة السيراء 31/2 ، ابن عذارى 186/3 .

أما النقود المضروبة في عهد المعتمد بن عباد فإن الكثير منها لم يسجل اسم مدينة الضرب وهي إشبيلية ، واكتفى بذكر الأندلس ، وهناك مجموعة أخرى ضربت في مدينة إشبيلية (631) .

وهناك مجموعتان من النقود المضروبة باسم المعتمد بن عباد ، ولكنها سكت في قرطبة ، المجموعة الأولى فيها الأرقام التالية (632) :

« 415 في مدينة قرطبة سنة 461 هـ/1068 م ، دينار الكتابة على هذا الدينار // الحاجب سراج الدولة » الدينر بمدينة قرطبة سنة لإحدى وسـ .. الظافر المؤيد بالله // 416 أولا مدينة قرطبة سنة 461 /1068 م دينار الكتابة الحاجب // سراج الدولة الدينر بمدينة قرطبة سنة إحدى وستين المعتمد على الله // المؤيد بنصر الله .

ثانيا : مدينة قرطبة سنة 462 دينار الكتابة الدينر ـــ بمدينة قرطبة سنة اثنين وستين رقم 417 : الحاجب// سراج الدولة// ابن فرجون الدينر بمدينة قرطبة سنة ثلث وستين// المعتمد على الله// المؤيد بنصر الله » .

أ) « مدينة قرطبة 463 دينار الكتابة الحاجب سراج الدولة ابن فرجون الدينار بمدينة قرطبة سنة ثلاث وستين » .

ب) « مدينة قرطبة سنة 464 دينار الكتابة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة أربع وستين وأر ... »

ج) « مدينة قرطبة سنة 465 دينار الكتابة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة خمس وستين

د) لم يذكر مكان السكة كسر من دينار الكتابة التي على الحاشبة مقصوصة .

---

(631) Op. cit, p. 234 — 236 ff

(632) صور العملات كتالوج 15 ، 16 والأرقام المثبتة هي التي تحملها قطع النقود المذكورة في هذا الكتالوج .

رقم 418 :

أ) مدينة قرطبة سنة 463 درهم الكتابة الحاجب// سراج الدولة// ابن فرجون الدرهم بمدينة قرطبة ثلث وستين الله// المعتمد على// المؤيد بنصر الله .

ب) مدينة قرطبة سنة 464 درهم الكتابة الدرهم بمدينة قرطبة سنة أربع وستين .

ج) لم يذكر مكان الضرب كسر من درهم لم نستطع أن نتبين ما عليه من كتابة .

المجموعة الثانية في قرطبة :

رقم 419 :

أ) مدينة قرطبة سنة 469 دينار الكتابة الحاجب// عضد الدولة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة تسع وستين المعتمد على الله المؤيد بنصر الله .

ب) لم تذكر سنة الضرب ولا مكانها كسر من دينار الكتابات على الهامش مقصوصة ولم نستطع تبينها .

رقم 420 :

أ) مدينة قرطبة سنة 471 دينار الكتابة// الرشيد ، الدينر بمدينة قرطبة سنة إحدى وسبعين// المعتمد على الله// المؤيد بنصر الله .

ب) مدينة قرطبة سنة 472 دينار الكتابة الدينر بمدينة قرطبة سنة اثنين وسبعين .

ج) لم يذكر مكان الضرب كسر من دينار الكتابة على الحاشية مقصوصة ولم نستطع تبينها .

رقم 421 :

أ) مدينة قرطبة سنة 473 دينار الكتابة الرشيد// المأمون// الدينر بمدينة قرطبة سنة ثلاثة وسبعين وأر ... المعتمد على الله// المؤيد بنصر الله .

ب) مدينة قرطبة سنة 474 دينار الكتابة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة أربع وسبعين وأر...

ج) مدينة قرطبة سنة 479 دينار الكتابة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

د) مدينة قرطبة سنة 480 دينار الكتابة ، الدينر بمدينة قرطبة سنة ثمانين وأربـ...

هـ) لم يذكر مكان الضرب كسر من دينار الكتابات على الحاشية مقصوصة ولم يمكن تبينها .

رقـــم 422 :

لم يذكر مكان الضرب درهم الكتابة الرشيد المأمون المعتمد على المؤيد بنصر الله .

الآثار المترتبة على دخول المرابطين في النميات :

دخل المرابطون الأندلس وقضوا على ذلك التفكك السياسي الذي كان سائدا في ظل ملوك الطوائف .

وهكذا عادت الدولة إلى الحكم المركزي ، وكان لذلك آثاره على النميات وعلى ضرب النقود في الأندلس ، وكان من أولى هذه الآثار أن توحدت الطرز المختلفة للنقود في الأندلس ، ويعد أبو بكر بن عمر أول سلاطين المرابطين هو مبتدع طراز الدينار المرابطي .

وهذا الطراز هو الذي نجده لأول مرة في سجلماسة في منطقة تافيلالت Tafilete ابتداء من سنة 450 هـ (633) . أما خليفته يوسف بن تاشفين الذي بدأ حكمه في 480 هـ/1087 م فإنه قد واصل العمل بهذا الدينار دون أن يغير

(633) OP. cit, p. 143

فيه شيئا عدا الاسم ، ونحن نجد دنانير ليوسف بن تاشفين مضروبة في سجلماسة وفي أغمات وفي سبتة وفي مراكش وفي فاس .

أما في الأندلس فإننا نجد دنانير مرابطية في المدن التالية ابتداء من التواريخ المبينة (634) :

قرطبة منذ سنة 486 هـ/1093 م ، شاطبة منذ سنة 489 هـ/1095 م .
غرناطة منذ سنة 489 هـ/1095 م ، إشبيلية سنة 491 هـ/ 1097 م .
شلوقة Sanlucar منذ سنة 491 هـ/1097 م ومرسية منذ سنة 491 هـ/ 1097 م . وألمرية منذ سنة 492 هـ/1098 م ، مالقة منذ سنة 494 هـ/1100 م .

ودانية منذ سنة 495 هـ/1101 ، بلنسية منذ سنة 496 هـ/1102 م ، وابتداء من سنة 497 هـ/ 1103 م يضاف إلى النقود المضروبة من الذهب إشارة إلى ولي العهد .

ولو أن هذا ليس قاعدة جارية دائما . أما الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ـ الذي بدأ الحكم في سنة 500 هـ/1106 م ـ فإنه يتخذ لقب أمير المسلمين الذي لا نراه أبدا على النقود المضروبة باسم أبيه يوسف .

وأما الكتابات التي نجدها على أول دينار مرابطي معروف في الأندلس فهو كما يلي (635) : على الوجه الأول في الوسط لا إله إلّا الله محمد رسول الله

(634) Op. cit, loc. cit

(635) Op. cit. p. 144

غير أن صاحب الاستقصا يصف نقش أول دينار مرابطي كالآتي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وتحت ذلك : أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وكتب على الدائرة « ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، وكتب على الصفحة الأخرى : عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي ، وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته . الاستقصا 54/2 .

على الحاشية آية من القرآن الكريم ، سورة آل عمران آية 85 « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » وعلى الوجه الآخر : « في الوسط الامام عبد الله أمير المؤمنين باسم الله ضرب هذا الدينار بمدينة قرطبة سنة ست وثمانين وأربع » . هذه هي الكتابة على الحاشية .

ومما يميز هذه النقود تلك الكتابات المثبتة على الحاشية في الوجه الأول ولم نرها من قبل إلا بشكل استثنائي في بعض النقود الحمودية المعاصرة للدنانير الأولى التي ضربها الأمير المرابطي وهي عوضا عن الشهادة التي كانت حتى ذلك الوقت تحتل الحاشية دائما .

أما النقود الفضية فإننا نجد فيها شيئا جديدا ، وهي أنها من فضة بالغة الجودة ، والدراهم تزن في الغالب كل درهم منها نحو جرامين ، ولكن لا نعرف منها قدرا كثيرا . كل ما عثر عليه ثلاثة نماذج فقط ، أما الكسور مثل النصف والربع والثمن والجزء من ستة عشرة جزءا ، فهي دائما مسكوكة بعناية بالغة ، وأشكالها منتظمة وهي في الغالب سميكة مما يجعل حجمها صغيرا جدا . وهي بحكم صغر حجمها لا نجد عليها كتابة على الحاشية ، ولا نجد التاريخ ، وتكتفي الكتابات فيها بذكر الشهادة الإسلامية واسم الخليفة ، وفي بعض الأحيان اسم ولي العهد ، ونجد في كسور الربع وما يقل عنها في كثير من الأحيان مساحة بغير كتابة فهي ملساء تماما ، وفي بعض الأحيان عليها زخرفة بسيطة هي النقود الصغيرة جدا هي التي كانت تسمى قيراطا وجمعها قراريط . وقد أهدى ابن هود من روطة (636) إلى يوسف بن تاشفين بقرطبة هدية جليلة منها أربعة عشر آنية من الفضة مطرزة باسم ابن هود ، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط وفرقها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين (637) وكان ذلك حوالي سنة 488 هـ ، والسبب في هذه

(636) روطة Rueda من مدن الثغر الأعلى كانت تابعة لسرقسطة .

(637) ابن عذارى 43/4 تحقيق د. إحسان عباس .

التسمية أن القيراط القديم ــ وهو جزء من الخروب ــ كان يستخدم في الوزن ، ومن هنا أتت اللفظة الإسبانية (quilate) وهو لفظ يطلق اليوم على ما كان يساوي عند العرب نصف درهم ، وقد رأينا من قبل أن النقود المسكوكة من الفضة التي ترجع إلى عصر المرابطين هي التي قلدها ملوك بطليوس (638) .

ولو أن نصيب هذه النقود البطليوسية من الانتظام والدقة في السك والأناقة في الشكل لا تبلغ الحد الذي بلغته نقود المرابطين ، وعلى الرغم من هذا التغيير الجذري الذي أدخله المرابطون على المسكوكات في الأندلس ، فإن الطرز التي رأيناها عند الطوائف لا تختفي فجأة ، وإنما تظل مدة خلال السنوات الأولى من حكم المرابطين ، وعلينا أن نشير في المقام الأول إلى النقود المضروبة في طليطلة في نفس السنة التي احتلها فيها ألفونسو السادس ، وفي السنة التالية ، وهي نقود مكتوبة بحروف عربية ، ولكن ربما يكون من المبالغة أن نسميها نقودا إسلامية ، فنحن لا نجد الشهادة الإسلامية فيها كاملة ، وإنما نجد فيها ذكرا لله الواحد ولا نجد فيها ذكرا للنبيء محمد . أما بقية الكتابة فإنها تقتصر على ذكر السكة والتاريخ ، ولعلَ هذه النقود كانت خاصة بطليطلة نظرا لظروفها الخاصة : أن كانت أول قاعدة إسلامية كبيرة تقع في أيدي النصارى (639) .

لقد تدوولت في قرطبة في القرن الخامس الهجري عملات كثيرة لعهود متقدمة هذا إلى جانب العملات التي سكت في ممالك الطوائف المختلفة .

ولقد ذكر لنا ابن سهل أن النقود القرمونية (640) كانت متداولة في قرطبة ، واشترى شخص أمة سوداء ، وكان ثمنها مائة وواحدا وستين مثقالا ذهبا

---

(638) Op. cit, p. 145.

(639) Op. cit, loc, cit.

(640) «أي النقود التي ضربت في قرمونة» ، ومن الممكن أن تكون قرطبية ضربت على نمط النقود القرمونية .

قرمونيا (641) ، واشترى شخص جنة بحاضرة قرطبة سنة 457 هـ بمبلغ 240 مثقالا ذهبا قرمونية (642) .

كذلك نرى في قضية أخرى أن شخصا استدان من آخر خمسمائة مثقال ونيف من ذهب أغلبية (643) . وفي قضية أخرى (644) الدراهم ضرب ألمرية وقراريط طيبة ودراهم قاسمية (645) .

صناعة السكة في قرطبة :

لقد احتفظت قرطبة بدار سكتها طوال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وسنتعرض هنا بإيجاز لتلك الصناعة ونشاطها .

وكانت السكة (646) تصنع من الذهب والفضة ، وقد تعرضنا فيما سبق لمواضع مناجم هذين المعدنين ، وبالطبع كانت هناك طرق كيمياوية كثيرة لاستخلاص معدن الفضة من الشوائب ، فيمكن استخلاص الرصاص أو النحاس العالق بها وذلك بالتسخين (647) .

كذلك كان الذهب يستخلص من النحاس أو الرصاص بالتسخين ، مع استخدام عنصر الكبريت فيتفاعل مع النحاس أو الرصاص ويبقى الذهب خالصا .

كذلك كان الذهب يستخلص من النحاس .

(641) ابن سهل 165 .
(642) ابن سهل 173 .
(643) ابن سهل 154 : « وهي التي ضربت في إفريقية وقلدتها دار السكة في قرطبة » .
(644) ابن سهل 220 .
(645) الدراهم القاسمية ، نسبة إلى الخليفة القاسم بن حمود .
(646) جاء لفظ السكة مرادفا للعملة : « السكة هي الحديدة يطبع عليها الدينار والدرهم فسميت سكة بها الدنانير والدراهم » ضوابط دار السكة 49 .
(647) المرجع السابق 34 .

وكذلك هناك طرق لاستخلاص الذهب من الفضة ذكرها صاحب ضوابط دار السكة باستخدام مواد مساعدة ثم الترسيب (648) .

على الرغم من أن الربع الأول من القرن الخامس الهجري لم ينعم بالاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، إلا أننا نلاحظ أن تلك الفترة نشط فيها سك العملة في قرطبة ، فإن كثرة توالي الخلفاء فيها جعلت كلا منهم يبدأ بسك عملته ليؤكد بها سلطته الفعلية ، ولقد عالجنا تلك النقود وسماتها في فصل سابق ، فالنقود التي سكها محمد بن عبد الجبار (399 هـ — 400 هـ) صناعتها جيدة وتظهر عليها كل علائم الصحة (649) .

أما النقود المضروبة باسم علي بن حمود بين سنتي (407 هـ — 408 هـ) فإن بعضها ضرب في العدوة الإفريقية والآخر ضرب في الأندلس ، وهنا نلاحظ فرقا بين هاتين المجموعتين أوضحه بريتو بيبس Preiets Vives (650) .

وقطع النقود المضروبة باسم علي بن حمود قطع دقيقة الصناعة وخصوصا ما ضرب منها في سبتة وفيها جمال فني وهي تعتبر بغير شك أحسن ما ضرب من نقود في كل الأسرة الحمودية .

أما النقود المضروبة باسم القاسم بن حمود فهي تختلف اختلافا بينا عن نقود أخيه علي بن حمود ، فهي أقل دقة وفنا في الصناعة ، والأرقام فيها غير واضحة ، ويبدو أن سكها لم يكن مضبوطا تماما حتى إن سنة 412 الواردة على بعض هذه القطع تشتبه مع سنة 411 ، إذ قد كتب فيها إحدى عشر واثنا عشر معا ، والكتابة متراكبة بحيث لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان يقصد التاريخ الأول أم التاريخ الثاني (651) .

---

(648) أبو الحسن علي بن يوسف 35 — 36 .

(649) Preito Vives. po. cit, p. 104

(650) Op. cit, p. 109

(651) Op. cit, p. 111

ولم تكن الفترة القصيرة التي حكم خلالها عبد الرحمن المرتضى وعبد الرّحمان المستظهر كافية ليسك كل منهما عملته ، أما في عهد كل من المستكفى وهشام المعتد فقد عثرنا على عملات لهما (652) .

من هذا الاستعراض الموجز نستنتج أنه في خلال فترة الفتنة البربرية لقرطبة لم تتوقف صناعة السكة بها بل نشطت وانتعشت ، ولم نعثر حتى الآن على عملة ضربت في قرطبة في عهد ابي الحزم بن جهور (653) أما العملة التي عثرنا عليها فهي ضربت في عهد ابنه أبي الوليد بين سنتي (439 ــ 442 هـ) وهي كسور من دينار (654) .

من ذلك نرى أنه قد نشطت تلك الصناعة في عهد أبي الوليد بن جهور .

لقد عظمت صناعة السكة في قرطبة في عهد المعتمد بن عباد ، فنرى أن المعتمد ابن عباد كان يضرب نقوده في كل من إشبيلية وقرطبة ومرسية .

وكانت النقود المضروبة في إشبيلية هي التي تنص على لفظ الأندلس ما بين سنوات (461 ــ 464 هـ) بينما نجد النقود المضروبة في قرطبة تنص على هذه المدينة ابتداء من سنة 461 هـ ، أما المضروبة في مرسية فإنه لم ينص فيها على هذه المدينة إلا بعد سنة 470 هـ ، ونلاحظ أن النقود المضروبة في إشبيلية وقرطبة تذكر لقب الحاجب سراج الدولة وهو يشير بغير شك إلى الأمير ولي العهد عباد وهو مذكور في النقود حتى سنة 466 هـ . وفي هذه السنة كذلك نرى في نقود إشبيلية يذكر اسما لم نستطع تحقيقه وهو اسم هاشم وذلك فيما بين سنتي 461 و464 هـ. وفي النقود المضروبة في قرطبة يذكر اسم ابن فرجون ما بين سنتي 463 ، 465 ولا نعرف من هو ابن فرجون هذا أما ولي العهد الجديد عبيد الله فإنه يظهر في النقود حاملا لقب الحاجب عضد الدولة ابتداء من سنة 467 في إشبيلية .

---

(652) Op. cit, p. 107

(653) لقد نافشنا ذلك في الجزء السابق (المعاملات المالية)

(654) Op. cit, pp. 220 — 221 ff

وقد بدأ المرابطون في سك عملتهم في قرطبة ابتداء من سنة 486 هـ ، ولقد نشطت دار السكة في عهدهم ومولوها بالذهب الذي كان يأتي من إفريقية ، فقد كان المرابطون مسيطرين على سجلماسة وهي نهاية معظم القوافل الغربية إلى ذهب بلاد السنغال ، وكان الدينار المرابطي الذهبي مستخدما لعدة قرون كأهم عملة ذهبية في الغرب (655) .

وامتازت كذلك نقودهم الفضية بحسن سكها واشكالها المنتظمة وسمكها وحجمها الصغير .

فقد كانت إفريقية مصدرا للفضة الجيدة ، وسك المرابطون منها قطع النقد الصغيرة في كسور الدرهم ، وهي قطع مستخدمة في أيامهم إذ لا نرى مثيلاتها من قبل (656) .

ويرى كودير أن النقود الأندلسية الذهبية تبدأ فقط منذ أيام المرابطين في أن يكون لها وزن ومعيار ثابتين (657) .

سمات العاملين في دار السكة :

قسم صاحب دار السكة العاملين في سك النقود إلى ثلاث مراتب (658) ، وهم معلمون وعمالون ومتعلمون ، وكان يرأسهم الناظر أو صاحب دار السكة ، ويرى أنه يجب أن يكون الناظر في هذا المفراد (659) عالما أمينا وله بالصناعة الجارية علم ومعرفة ، كتمييز النقود وأوصاف المعادن وما يصلحها وما يفسدها ،

---

(655) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ، 1960 ص 386 — 387 .

(656) Francisco codero po. cit, p. 220

(657) Op. cit. p. 219

(658) ضوابط دار السكة 57 .

(659) المرجع السابق هامش 52 في ملحق القواميس لدوزى مادة فرد ما يلي : الفرد الأبيض ، الفرود البيضاء : عملة إسبانية قديمة يسمونها بلانكا Blanca وفي القاموس المسمى Vocabulista : فرد : denarius أي نقود ، وعلى هذا يحتمل أن يكون اللفظ مشتقا من فرد بمعنى صاحب النقود أو العامل عليها أو الديوان القائم بأمرها .

وأسباب غشها وما يزيله مع دربة بأنواع خطوط الطوابع وتصنيعها وصحة ضبطها ، مع النزاهة والديانة وإلا عادت بالخسران وعدم الرجحان وتعطل فايدها وقل عايدها (660) . وعليه أن يتفقد الدنانير والدراهم بعد الطبع من قلبها (661) أو درسها (662) أو تجريشها (663) فإن ذلك عيب فاحش فيها

ومن أهم اختصاصاته تفقد الفرضى (664) على اختلافه ، ويكون مقدار ما يفرض من المائة أوقية كالمعلوم عنده ، وبذلك يكون مراقبا للسكاك فلا يغش ولا يخل بعمله (665) .

ويذكر أبو الحسن بن رجاء في كتابه « الصناعة العملية (666) » أن من سمات العاملين في تلك الصناعة أن يكونوا ذوي خدمة ومهارة ومعرفة وتجربة . وذلك لدقة العمل وخطورته ، فإن السكاك إن غلط في تشحير (667) الذهب وأنزله من فرن الطبخ وهو ناقص العيار ، جاء عليه في اعادته خسارة ، ونقص وإن غفل عنه وتناهى في التشحير فوق حده كان فيه النقص الكثير (668) وكذلك الفضة يجب أن يكون عارفا بأحوالها وأن تأخذ حقها في السبك وإلا كان فيها من النقص الكثير .

---

(660) ضوابط دار السكة 53 .

(661) هامش 77 ، أي حذرا من أن يكون الطبع على أحد الوجهين في اتجاه مخالف للآخر .

(662) نفس المرجع نفس الصفحة « درس العملة هو اختلاط الكتابة فيها بسبب سوء السك » .

(663) نفس المرجع نفس الصفحة « التجريش المبالغة في الضرب على الطابع عند سك العملة حتى تتجرش أي تصبح عرضة للكسر » .

(664) نفس المرجع نفس الصفحة « الفرضى هو المعدن الذي يضاف إلى الذهب أو الفضة قبل صنعها نقودا ، وهو في الغالب نحاس ونسبته القانونية عندهم واحد في المائة » .

(665) نفس المرجع نفس الصفحة .

(666) ضوابط دار السكة 36 .

(667) تشحير : تسخين .

(668) المرجع السابق : 36 .

والفتاح هو الرجل الذي يضع الرسم الذي ستسك عليه العملة ويكتب نصها (669) ، وتلك العملية تسمى الفتح ، وينبغي عليه أن يكون بارع الخط . وطوابع الدينار والدرهم هي خواتم الملك ، فمن ضرب عليها فكأنما ضرب على خاتم الملك ، وينبغي ألا يغير ما عهد من الكتب في الدينار والدرهم ، ولا يزيد في سطوره ولا ينقص منها برأيه .

ولتكن آلاته وأقلامه التي أعدها للفتح مثقفة (670) ومحفوظة بجولق الأزواج (671) ، إلى أن يحتاج إليها فتخرج له وليكن معه من يلازمه من الثقات حين الفتح إن كان غير مأمون ، ويستتر إذ ذاك عن أعين الناس إلى أن يتم عمله فيرد آلاته للجولق ، ولا يسمح له بالاتصال مع من يتهم بطلب الطوابع كالكيماويين والمهتمين بالدلسة في الدنانير والدراهم (672) ، وليكن المعلم الحداد الذي يطرح له الأزواج أمينا عليها ويعهد إليه ألا يطرحها إلا بدار السكة ، ولا يسمح له أن يطرحها خارجها بوجه ولا على حال .

تزييف السكة :

كان يلزم حاكم البلد أن يبحث عن أحوال الذميين وغيرهم ، فمن سمع عنده صوت مطرقة أو وقود نار للصياغة فليضرب على يديه ، ولا يترك صانعا يخدم الصياغة في داره ولا مستترا عن أعين الناس ، لأن صناعة الدينار والدرهم والصياغة صناعة واحدة وتجمعها المطرقة والنار (673) .

(669) المرجع السابق : 55 .

(670) مثقفه : مقومه .

(671) جولق الأزواج : الجولق هو الصندوق والأزواج هي الأصول التي كانوا يطبعون السكة بها . انظر المرجع السابق 53 هامش 6 .

(672) المرجع السابق 56 .

(673) المرجع السابق 57 .

ولكن بالرغم من هذا الحرص فإنه لم يخل عصر من العصور من تزييف السكة ، فقد كان هناك قطع كثيرة من النقود زيفت في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، وكان مزيفوها يهدفون إلى أن يدعوا أنها نقود ترجع إلى عصر الخلافة المروانية أو إلى فترة الفتنة البربرية ، ولكن أفلتت من ضاربي هذه العملات تفاصيل كشفت عن زيفها (674) .

والذي يكشف عن زيف العملة لا نسبة المعدن وهو النحاس الذي يضاف إلى الذهب فقط وإنما الاضطراب والخشونة في صناعتها ، فنجد في بعضها تناقضا واضحا ما بين وجهي العملة الواحدة .

بل إننا نجد في بعض الأحيان قطعة النقد الواحدة تحمل أسماء خلفاء ليسوا متعاصرين ، ويبدو لنا أن السبب في ذلك هو أنها نقود نقلت أو قلدت عن نقود أخرى دون حرص أو عناية ، مما أدى إلى أن تمتلىء بهذه المعلومات المتناقضة (675) .

ومن أسباب تزييف النقود الفضية قلة كمية الفضة التي كانت متداولة في القرن الخامس الهجري (676) .

وربما كان ذلك راجعا إلى ما ساد القرن الخامس من اضطرابات سياسية أدت إلى اختلال الاستقرار الاقتصادي الذي نعمت به البلاد في ظل القرن السابق ، وقد يكون إهمال كثير من المناجم التي كان هذا المعدن يستخرج منها بسبب سوء الإدارة السياسية والمالية . ويشهد على ذلك ما يذكره بعض الباحثين من أن الفضة أصبحت تستورد من البلاد الإفريقية في هذا العصر (677) .

---

(674) Prieto Vives, p. 103

(675) Op. cit. p. 108.

(676) Op. cit. p. 104.

(677) Op. cit. p. 144

أحكام المعاملات في قرطبة في القرن الخامس الهجري :

ــ أساليب التعامل التجاري .

ــ أنواع المعاملات في قرطبة .

* الاستدانة
* بيع العقار المثمر .
* البيع غير الناجز المقترن بشروط .
* البيع الشامل .
* بيع الدار الملاصق لحانوت أو حديقة .
* البيع بثمن آجل لأجل غير مسمى .
* بيع العقار المرهون رهنا سابقا على البيع .
* اختلاف المتبايعين في ذاتية المبيع وفي مقدار الثمن .
* الغبن في ثمن البيع .
* توجيه اليمين .
* شراء الوكيل لحساب نفسه ما فوض في شرائه لحساب الموكل .
* التنصل من البيع بالتوكيل .
* دعاوي استرداد الحيازة .
* الإقرار في مجلس القاضي وعدم جواز الرجوع فيه .
* على من يقع الالتزام برد قيمة القرض في حالة تعدّد المقترضين .
* استنزال الأجرة من ثمن البيع .
* مسؤولية المكتري عن الشيء موضوع الكراء .
* أداء الأجرة في حالة التأجير من الباطن .
* التنازع في الكراء .
* تملك الغلة (الثمار الطبيعية والمدنية)

ــ السمات العامة للمعاملات في قرطبة .

أساليب التعامل التجاري :

وصف ابن سهل (678) في نوازله في باب البيوع أساليب التعامل المالي فذكر أن البيوع أربعة أنواع (679) .

النوع الأول : بيع سلعة معينة ومعروضة أمام المشتري .

والنوع الثاني : بيع سلعة معينة ولكنها غير موجودة ساعة اتمام البيع ولكنها معلومة الأوصاف بالنسبة للمشتري .

والنوع الثالث : بيع غائب موصوفا في الذمة وهو السلم إلى أجل معلوم في صفة معلومة من طعام أو غيره محصور المقدار بعدد أو كيل أو وزن ويعجل فيه رأس المال .

والنوع الرابع : بيع السلفة وهو في بعض وجوهه كالسلم ، ويقوم على الاستجرار بثمن معجل أو مؤجل .

والأمثلة على هذا النوع عديدة ، منها أن تدفع إلى الرطاب دينارا في ربعين أو ثلاثة من رطب طيب متناهي النضج والطيب ، ويعطيك في كل يوم منه نصف ربع أو ثلث ربع أو أربعة أرطال عطاء متصلا حتى ينفد . وكذلك إن دفعت إلى الخباز نصف دينار أو ربع دينار في ثلاثين قرصا من قمح حسن الصنع والطهي ، على أن يورد البائع للمشتري الكمية على الأيام المتفق عليها حتى يتم ويكمل العدد (680) . أو أن تدفع إلى اللبان عشرين درهما في أثمان لبن حليب طيب ويأخذ المشتري يوميا مقدار ما يتفق عليه من كمية الحليب ، أما اللحم

---

(678) يعد كتاب ابن سهل « الأحكام الكبرى » الذي لا يزال محفوظا بعد ذخيرة عظيمة القيمة فيما يتعلق ببيان أنواع التعامل في قرطبة والأندلس عامة خلال القرن الخامس الهجري . ففي هذا الكتاب عدد هائل من وثائق المبايعات وغيرها من أنواع التعامل وفتاوي الفقهاء ، حول الكثير من المنازعات المتعلقة بهذه المعاملات ، مما حملنا على أن نعتمد عليه اعتمادا يكاد يكون كليا في كتابة هذا الفصل . والمخطوطة التي اعتمدنا عليها من « الأحكام الكبرى » هي مخطوطة الأوقاف رقم 838 . (الخزانة العامة الرباط) .

(679) ابن سهل ورقة 136 .

(680) ابن سهل ورقة 137 .

فيجوز دفع الثمن مؤخرا بخلاف السلم ، وفي هذا النوع الآخر يكون البيع واردا على الأشياء القابلة للتلف .

ولقد خضعت أحكام التعامل المالي في قرطبة في القرن الخامس الهجري لآراء الإمام مالك وتلاميذه ، وآراء المجتهدين من فقهاء القرن الخامس الهجري ، وقد حفلت نوازل ابن سهل بالعديد من القضايا المدنية والمالية التي عرضت على فقهاء قرطبة في القرن الخامس الهجري ، وسنعرض نماذج لبعض تلك الأنواع .

ـــ الاستدانـــة :

من تلك القضايا أن شخصا من أهل تاكرنة استدان مالا سلفا من شخص بقرطبة وقال له : أرده إليك من مالي بتاكرتة ، ولكن منع هذا الرجل من ماله فأفتى صاحب المظالم أبو عبد الله بن عبد الرؤوف (681) ومن المشاورين ابن الشقاق (682) وابن دحون (683) وغيرهم أنه يلزمه أداء دينه وإن حيل بينه وبين ماله الذي ذكر ، غير أن القاضي عبد الرحمن بن بشر (684) أفتى أنه لا يلزمه أداء دينه إلا من ماله بتاكرنة ، وحين سمع الفقهاء المذكورون هذا الجواب عدلوا عن جوابهم (685) الأول وذلك على أساس أن الاتفاق في هذه الحالة يترتب عليه حبس المال الذي عين لأداء الدين منه وهو المال الموجود في تاكرنة .

(681) هو « محمد بن علي بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري توفي سنة 425 هـ/ 1033 م انظر ترجمته في الصلة ترجمة رقم 1126 ص 489 .

(682) هو « عبد الله بن سعيد بن عبد الله الأموي » ، توفي سنة 426 هـ/ 1034 . انظر ترجمته في الصلة رقم 586 ص 258 ـــ 259 .

(683) هو « أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموي » ، توفي 481 هـ/1088 م . ذكره ابن سهل ورقة 423 ، ولعل تاريخ وفاته خطأ من الناسخ وصحته 431 هـ/ 1039 م . انظر ترجمته في الصلة رقم 589 ص 260 .

(684) هو « أبو المطوف عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية ، ويعرف بابن الحصار » ، توفي 422 هـ/ ابن سهل ورقة 425 ، الصلة ترجمة 698 ، ص 313 ـــ 314 .

(685) ابن سهل ورقة 137 .

من ذلك نرى أن التعامل المالي ــ كالقرض أو الاستدانة ــ كان يخضع لتفاصيل على جانب كبير من الدقة ، وأن النظام الساري في قرطبة كان يجري على أن يقوم بتحرير مثل هذه المعاملات موثق له معرفة وافية بمبادىء الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك ، وأنه كان يؤخذ رأي أكثر من فقيه عند حدوث أي منازعة في خصوص المعاملة .

فرأينا أن القاضي شاور أبا عبد الله بن عبد الرؤوف صاحب المظالم والفقيهين المشاورين ابن الشقاق وابن دحون .

وكانت فتوى قاضي قرطبة عبد الرحمن بن بشر مخالفة لآرائهم ، ولكنهم حين اقتنعوا بها أيدوه وتركوا جوابهم الأول عدولا عنه إلى ما رأوه الأصوب ، وهذه أسمى مراتب العدالة التي تتمثل في الرجوع إلى الصواب وعدم الإصرار على رأي سابق بان خطؤه أو التعصب له . ويمكن تشبيه المشاورة في هذه الحالة وما أسفرت عنه ، بما هو معروف في النظم القضائية المعاصرة من تعدد درجات القضاء ، في صورة أمعن في تحقيق العدالة تتمثل في مشاركة قاض من آخر درجة لقاضي الدرجة الأولى في تبادل الرأي وتمحيصه .

ــ بيع العقار المثمر :

من قضايا بيع الأرض أو الدار التي بها ثمار ناضجة .

قال ابن عتاب : أنه شاهد ابن الفخار (686) سنة 400 هـ استغنى في رجل باع ملكا له بقرية ، وفي الملك شجر زيتون وقد طاب ثمرها ولم يشترط المبتاع الثمرة (687) . إلا أنه في العقد « اشترى فلان من فلان جميع ما حوته أملاكه من الأرض والشجر » على ما يجري في العقود ولم يذكر الثمرة ، فأراد المبتاع أخذها فأفتى ابن الفخار بأنها له ، واحتج على ذلك بأن الشجر نفسه لو لم يذكر في الابتياع لدخل في الأرض وإذا دخل الأصل في الشراء فالثمرة المتولدة عنها والتي هي فرع منها أحق بالدخول .

---

(686) هو « أبو عبد الله محمد بن عمر الفخار المتوفي سنة 419 هـ/1028 م » انظر ابن سهل ورقة 423 ، ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم 1113 ص 483 ــ 484 .

(687) ابن سهل ، ورقة 137 .

وقد استند ابن عتاب (688) إلى هذا الحكم في قضية مشابهة ، حين دعى للفتوى في دار بيعت وفيها نخلة مزهية . ولكنه خولف في تلك الفتوى ، إلا أنه أصر على رأيه ، وظل يذكر الفقهاء بفتوى ابن الفخار إلى أن أصدر الحكم بمقتضى رأيه في سنة 437 هـ/ 1045 م . وكان ابن عتاب قد استند في هذا الحكم إلى ما قرره محمد بن عبد الله بن الحكم (689) من أن الثمرة للمشتري ، إلا إذا شرط البائع خلاف ذلك ونص عليه اتباعا للسنة .

من تلك القضية نرى أن التعامل في مثل تلك المنازعات كان يخضع لقواعد ثابتة ضابطة ، مردها إلى الأصول الفقهية . وهذه القواعد تعتبر مفسرة أو مكملة لنية الطرفين ، ولهما في ذلك كل الحرية لأن العقد شريعة المتعاقدين ، مادام الشرط الذي تضمنه الاتفاق لا يخالف النظام العام أو حرمة الآداب .

ـ البيع غير النجاز المقترن بشروط

قال ابن سهل في نوازله (690) :

« من ابتاع نصف كرم بثمن منجم على أن ينفقه في تحصين الكرم وعمارته » .

ولذلك مثال في قضية رجل اسمه فرج ابتاع من رجل آخر اسمه سليمان نصف كرم ، وعقد العقد بينهما أبو محمد بن دحون وكان الثمن خمسة عشر مثقالا عيونا ذهبا ، مقسطة عليه ثلاثة أعوام بالإضافة إلى مثل هذا الثمن أي خمسة عشر مثالا أخرى ، فضلا عما يغله الكرم خلال هذه السنوات الثلاث ، ينفق كل ذلك على تحسين الكرم في الأوجه التالية : تسوية الأرض وقطع الأشجار والحفر

---

(688) هو « أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن المتوفي سنة 462 هـ/1069 م » . انظر ابن سهل ورقة 422 ، الصلة ترجمة 1194 ص 515 ـ 517 .

(689) انظر ابن فرحون : الديباج 231 .

(690) ابن سهل ورقة 139 .

(691) منجم = مقسط .

بالفأس للوصول إلى الماء وشق القنوات وبناء حائط حول الكرم ، على أن يتكفل فرج بكل ذلك بصفته وكيلا عن سليمان ، وبعد انتهاء المدة المذكورة يصبح فرج شريكا لسليمان في نصف الكرم .

ومثار الإشكال في هذه القضية أن البائع سليمان عرض هذا العقد على صاحب السوق أبي علي حسن بن ذكوان (692) ، الذي شاور الفقهاء فكان رأي ابن جرج (693) أن مثل هذا البيع لم يجزه مالك ، وكانت حجته أنه استدل على حكم لمالك في قضية اعتقد أنها مشابهة لها . إذ ذكر مالك فيمن ابتاع من رجل نصف سلعة على أن يبيع المبتاع النصف الباقي لصاحبه في غير البلد الذي باع منه فيه النصف أنه لا يقر مثل هذا البيع . وأبدى ابن القاسم (694) تلميذ مالك رأيا مشابها لذلك ، لا سيما وأنه من علل هذا البيع أنه لم يشترط خلف الخمسة عشر مثقالا لو تلفت (695) .

لذلك رأى ابن جرج فسخ هذا البيع بينهما ، ويكون لفرج فيه نصف الكرم على هيئته يوم قبضه ، لأن البيع الفاسد إذا فات لزم المبتاع قيمته ما ابتاع يوم قبضه ، غير أن ابن دحون أفتى بأن البيع جائز وماض ، على حسب ما وقع وأفتى المسيلي (696) مؤيدا لقول ابن دحون . أما الفقيه ابن عتاب فرأى أن هذا العقد فيه علل ووجوه من الفساد (697) ، وهي أن مبلغ الخمسة عشر مثقالا ثمن

---

(692) « أبو علي حسن بن محمد بن ذكوان توفي سنة 451 هـ/ 1059 م » . انظر ترجمته في الصلة رقم 312 ص 136 .

(693) «أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن جرج توفي 439 هـ/ 1047 م » انظر ابن سهل ورقة 425 ، والصلة ترجمة 706 ص 217 — 218 .

(694) «أبو علي عبد الرحمن بن القاسم العتقي صاحب مالك أخذ عنه أهل المغرب المذهب ، توفي بمصر سنة 191 هـ/806 م » .

(695) ابن سهل ورقة 139 .

(696) هو « حسين بن سلمون من أهل قرطبة ويعرف بالمسيلي ، كان أحد الفقهاء المشاورين الذين أمر بتأخيرهم علي بن حمود ثم أعادهم إلى الشورى » . انظر ترجمة التكملة ط كوديرا رقم 74 ص 27 .

(697) ابن سهل ورقة 140 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

نصف الكرم دين في ذمة فرج ومقسطة عليه في ثلاثة أعوام ، بالإضافة إلى مثل هذا المبلغ من ماله إلى جانب ما يغل الكرم في الأعوام الثلاثة ، وأن البائع وكل فرجا في إنفاق هذا المبلغ في الكرم ، وقد كره مالك ذلك لأن سليمان لم يكن حاضرا وقت الإنفاق وهذا مما يفسد البيع .

ورأى أبو الأصبغ عيسى بن سهل أن فساد العقد يرجع إلى أن سليمان باع نصف الكرم بثمن وأجرة مجهولة ، لاشتراطه على المبتاع فرج عمارة الكرم وتحصينه بالثمن ، ومثله ربما يشتري في الأعوام الثلاثة من غلته ، والحاصل في الغلة مجهول ، وكذلك التصرف في إنفاقه مجهول ، والأجرة في ذلك مجهولة ، وقد يغل الكرم ما ينفق في إصلاحه وقد لا يغل ، وليس في المخاطرة والغرر أبين من هذا (698) .

ومما يستحق الملاحظة في هذه القضية أن النزاع فيها ، وهو متعلق بكرم مغروس في أرض قد طرح على صاحب السوق ، بينما تبدو القضية خارجة عن اختصاصه ، إذ هي أقرب إلى أن ينظر فيها قاضي الجماعة نفسه .

ـــ البيع الشامل : (مشتملات البيع)

من صور هذا النوع البيع الذي لم يحدد في البائع صراحة في العقد شمول البيع للطاحونة أو الدرج ، فلمن تكون هذه التوابع ؟ (699) .

سأل القاضي ابن عتاب عمن باع دارا فيها مطاحن ولم تذكر في التبايع ، فأراد البائع أخذها ومنعه المبتاع ، فقال له : إن كانت مبنية فهي للمشتري وكذلك الدرج المبني ، وإن كانت غير مبنيّة فهي للبائع ، كذلك المنقولات من متاع وأدوات بيت وماعون وما إلى ذلك .

وقال بعض من حضر اختلف في الحجر الأعلى من المطاحن . وفي وثائق ابن العطار أنه للبائع ، وفي الحجر الأسفل من الطاحون أنه للمشتري ، لأنه مبني

(698) المرجع السابق 143 .

(699) ابن سهل ورقة 142 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

كسائر بنيان الدار ، أما الدرج فقال ابن العطار (700) أنه للمبتاع بخلاف ما قاله ابن عتاب ، وقال القاضي أبو بكر بن زرب (701) في مسائله ممن يؤكد أن السلم يكون في الدار وأنه لمشتريها ما ينعقد في وثائق أشرية الدور بجميع منافعها ومرافقها ، والسلم من المنافع ولا يوصل إلى الغرفة إلا به . قال له بعض أصحابه : ينبغي على هذا القول أن يدخل الدلو والحبل والبكرة في البيع إذ لا يوصل إلى الانتفاع بالبئر إلا بذلك كما لا يوصل إلى الغرفة إلا بالسلم ، فقال : ليس مثله والسلم خلاف ما ذكرت ، فالسلم عندي من منافع الدار وهو داخل في البيع وليس للبائع أخذه ، هذا مذهبي ، قال القاضي أبو الأصبغ « يريد ما ذهب إليه القاضي وابن العطار في السلم » .

مما تقدم يتضح أن الأمر فيما يتعلق بدخول الطاحونة والسلم والدلو والحبل وما إليها في الشيء المباع لم يكن مقطوعا فيها برأي واحد ، وإنما تفرقت فيه وجهات النظر ، فذهب رأي إلى القول بأن بعض هذه الأشياء لا تدخل في العقار المباع ما لم تكن لازمة للوصول إلى الانتفاع بالعقار ومخصصة له . وهذا الرأي يقرب من الأحكام الواردة في القانون المصري والقانون الفرنسي فيما يتعلق بالعقار بالتبعية أو التخصيص حيث يعتبر المنقول لمنفعة العقار وخدمته واستغلاله عقارا بالتبعية ، يأخذ حكمه ويجري مجراه وإن كان في ذاته في الأصل منقولا ، ومن ثم يشمله بيع العقار ، ولا ينفصل عنه .

(700) هو « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله بن سعيد الأموي عرف بابن العطار ، توفي سنة 399 هـ/ 1008 م .» . انظر ابن سهل ورقة 423 ، الصلة ترجمة 1048 ص 459 ـ 460 ، ترتيب المدارك ، 650/4 ـ 656 .

(701) هو «أبو بكر محمد بن يبقى بن زرب المتوفي سنة 381 هـ/ 991 م » انظر ابن سهل ورقة 422 ، ابن الفرضي ترجمة 1363 .

والقضية الأخرى في مثل هذا البيع الشامل :

قال ابن سهل (702) :

سئل أبو عمر بن القطان (703) عمن باع جميع أملاكه بقرية كذا ، وقال في عقد الابتياع : في الدور والدمن (704) والأفنية والزيتون والكروم ولم يزد في الوثيقة على هذا .

وللبائع في القرية أرحى لم تذكر في الوثيقة ، فقال المبتاع : هي لي وقال البائع : إنما بعت ملكي فيما نصصت في الوثيقة وما لم أذكر — وهي الأرحى — لم تدخل في البيع . فكتب ابن القطان بخط يده : الأرحى للمبتاع وجميع ما بالقرية من العقار . قال القاضي : هذا الجواب يوافق ما في سماع أصبغ في كتاب الصدقة ويخالف قول قاسم بن محمد (705) : هكذا ألغيت هذه المسألة في بعض الكتب .

يلاحظ أن النزاع مثار الخلاف في هذه القضية ينحصر فيما إذا كان البيع الوارد بصيغة التعميم على ممتلكات البائع في حالة تعيين بعض هذه الممتلكات دون البعض الآخر ينصرف إلى ما شمله التعيين وينحسر عما سواه على الرغم من إطلاق عبارته ، أم أنه يشمل ممتلكات البائع جميعا في مكان وزمان محددين ، وما ذكر بعض هذه الممتلكات إلا على سبيل البيان لا الحصر . وظاهر من ظروف القضية أن رأى أبي عمر بن القطان يذهب إلى القول بأن هذا البيع يعتبر شاملا لجميع ممتلكات البائع أخذا بعموم الصيغة التي ورد بها وإطلاقها ، لكون المطلق يجري على إطلاقه ، ولو أن هذه الصيغة لم تتضمن ذكرا للأرض ، وذلك تأسيسا

---

(702) ابن سهل ورقة 143 .

(703) هو «أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال يعرف بابن القطان توفي سنة 460 هـ » . انظر ابن سهل ورقة 422 ، وترجم له ابن بشكوال في الصلة بقرم 130 ص 64 — 65 .

(704) الدمن : الأنقاض .

(705) هو «قاسم بن محمد بن سيار المتوفى سنة 277 هـ/889 م» انظر ابن الفرضي ترجمة 1049 .

على تفسير نية المتعاقدين بانصرافها إلى التعميم دون التخصيص على الأقل في ذهن المبتاع ، بيد أن ثمة رأيا آخر مسند إلى قاسم بن محمد على نقيض هذا الرأي ، ولعل تعليل ذلك يجد سنده في أن البائع هو الذي يتخلى عن ملكه وأن مما يؤيد نيته في قصر البيع على ما خصصه بالنص في الوثيقة هو هذا التخصيص بعد التعميم ، أخذا بمبدإ أن الخاص يقيد العام والعكس ، ولا سيما أن التعميم سابق أما التخصيص فتال ولاحق ومن ثم ناسخ ، وبعبارة أخرى محدد لنطاق الأشياء الوارد عليها البيع ، والمعول عليه هو نية البائع إذا لم تتلاق مع قصد المبتاع باعتبار أن البائع هو الطرف المسقط لحقه والأولى بالرعاية عند تفسير نية الطرفين ، وهو تفسير ضيق بالتزام الحدود وعدم التوسع فيها .

بيع الدار الملاصق لحانوت أو حديقة :

من المسائل التي أثيرت وأفتى فيها فقهاء القرن الخامس الهجري : من ابتاع دارا يتصل بها حانوت أو جنة وادعى دخولها في ابتياعه (706) .

وتفصيل تلك القضية أنه عرض على شيوخ قرطبة سنة 454 هـ/1062 م أن شخصا باع دارا يتصل بها حانوت له باب يفضي إلى الدار وباب آخر يتجر عليه . وقضية أخرى مشابهة : من باع دارا تتصل بها جنة محدقة عليها وليس لها طريق إلا على الدار ، وادعى المبتاع دخولها في صفقته وخالفه البائع ، فكانت إجابة ابن عتاب بأنه إن كان عقد البيع قد حدد في أمر الدار والجنة ما اشتملت عليه الحدود فقد دخل في البيع ونفذ البيع فيه ، وإلا لم يدخل فيه ما خرج عنه .

وكان تفسيره لذلك أن لا مدخل لها إلا على الدار ، أما الحانوت فإنه مخالف لهذا إذ له باب آخر ، ولا يصح الجواب فيه إلا بعد الوقوف على ما يقوله المتبايعان . وجاوب أبو عمر أحمد بن القطان (707) : أما الحانوت فلا يدخل في بيع الدار وإن كان إليها باب مفتوح ، إلا أن يحدد ويشتمل عليه الحدود ، وكذلك الجنة إذا لم يقع تحديد لأنها غير الدار .

(706) ابن سهل ورقة 142 — 143 .
(707) الصلة ترجمة 130 ص 64 — 65 .

وجاوب ابن مالك (708) : إن كان المتبايعان حددا الدار فحسب البائع الوقوف عند ذلك ، وإن كانا لم يحداها ويعرفاها فالحانوت لا يقال له دار في المتعارف ، ولايدخل في البيع ، والجنة أيضا لا تدخل في البيع ، ولعله يمكنه أن يتخذ لها مدخلا يوما ما (709) .

لقد تباينت وجوه الرأي في هذه المسألة ، ولكل رأي حجته ووجاهته ، وقد كان أسلمها وأدناها إلى الصواب الرأي الذي ذهب إلى الاعتداد باتفاق الطرفين لتفسير نيتهما على أساس ما أورداه من تحديد في العقد وبيان لوصف الشيء المبيع ، فإن وصف البيع بأنه وارد على دار فالأصل فيه أنه لا يشتمل سوى الدار دون ما عداها من توابع وملحقات لا تدخل في هذا الوصف ، وإذا كان الطرفان قد حددا معالم الشيء المبيع بحيث يخرج عن نطاقه الحانوت والجنة ، فالعبرة في استبعاد هذين هي بهذا التحديد ، وفيما خلا ذلك يتوقف الحل على ظروف كل خصوصية على حدة ، ويقوم هذا الرأي كما هو واضح على تفسير منطقي عادل لنية الطرفين الثابتة بالعقد دون تحميل هذه النية ما لا تحتمل أخذا بالظاهر .

البيع آجل لأجل غير مسمى :

في مسائل ابن زرب : قال القاضي : فيمن باع بيعا واشترط حلول الحق عليه في شهر كذا (710) : كان ابن لبابة يقول : هو أجل مجهول إلا أن يقول أول الشهر أو آخره أو وسطه . وعلق ابن زرب على ذلك بأنه لا يأخذ بهذا الرأي ، وقد رأيت لمالك في المبسوط أنه أجل معلوم ، ويكون حلول الأجل في وسط الشهر إذ قال في شهر كذا ، وفي وسط السنة إذا قال في سنة كذا ، واستحسن

(708) هو « أبو مروان عبيد الله بن محمد بن مالك توفي 460 هـ/1067 م » . انظر ابن سهل ورقة 422 وابن بشكوال : الصلة ترجمة 670 ص 292 — 293 .

(709) ابن سهل ورقة 143 .

(710) ابن سهل ورقة 144 .

القاضي هذا وقال : أليس البيع إلى الجراد (711) أو إلى الحصاد جائزا وهذا أحق بالجواز .

ويتضح من عرض هذه القضية وملابساتها أن البيع بثمن مؤجل مع تجهيل يوم استحقاق الوفاء بالثمن وعدم تعيينه اكتفاء بالإحالة إلى واقعة أو ظرف زماني واسع المدى كالشهر أو السنة دون تحديد يوم بذاته لأداء الثمن ــ هذا البيع يقع صحيحا ، وإنما يتحدد فيه موعد السداد بيوم وسط بين بداية الشهر أو السنة أو الموسم ونهايته ، وهذا التحديد يقوم على فكرة عادلة لا تحيف فيها ولا إسراف ، ذلك أنه إذا استعصى التحديد كان الأخذ ببداية الميعاد منطويا على تحيف بالمدين قد يرهقه ، كما أن الأخذ بنهاية الميعاد ينطوي على إجحاف بمستحق الثمن بإطالة الأجل ، الأمر الذي قد يلحق به ضررا ، ومن ثمة كان توسط هذين الحدين ، وهما بداية الميعاد ونهايته ، هو أعدل الحلول إلى كلا الطرفين ، وهو تفسير منطقي سليم ، لما يمكن أن تؤول به نيتهما عند تجهيل يوم الاستحقاق ، وفي هذا الرأي اجتهاد رائع وحكم رصين ، حتى لا يكون الأجل لصالح البائع وحده أو المشتري وحده .

وفي القضية الثانية يقول ابن سهل في أحكامه : « سألت أبا عمر بن القطان عن العقد يؤرخ بصدر شهر كذا من سنة كذا كم الصدر (712) . فقال لي : الثلثان والنصف ، واحتج بما في سماع ابن القاسم عن مالك فيمن له على رجل حق فقال لغريمه : إن لم تقضني صدرا من حقي يوما (713) كذا وكذا فعليّ المشي إلى بيت الله إن لم ألزمك بحقي كله . فقال مالك : « أرى الصدر الثلثين ، ولو قيل النصف لكان قولا ، ولكن الثلثين أحب إلى إلا أن يكون حين حلف قد أجمع على شيء من أمره فهو على ما أجمع » . وقد سأل ابن سهل الفقيه ابن مالك عن هذه المسألة فذهب إلى أن الصدر في العقد أقل من ذلك .

---

(711) المراد الأرض التي جمع ما فيها من نبات ، انظر : اللسان ، مادة جرد .

(712) ابن سهل ورقة 144 .

(713) كذا في الأصل ولعلها « يوم » .

وقال ابن سهل إن هذا الرأي هو الأشبه أي الأرجح عنده فيه ، وهو أن يكون ثلث الشهر أو ما يقرب منه ، واستشهد في ذلك بآراء نقلها عن الفقيه الأندلسي عبد الملك بن حبيب (714) وبعض الفقهاء المصريين من تلاميذ مالك مثل ابن وهب وابن القاسم فقد جاء عند هؤلاء أن صدر الشهر هو نحو من ثلثه فأزيد .

والمسألة التي احتدم فيها الجدال في هذه القضية متعلقة بتحديد ميعاد الوفاء بالثمن ، في حالة ما إذا كان العقد يتضمن نصا على تحديد هذا الأجل بصدر شهر معين من سنة بذاتها ، إذ لا يدري مدى المقصود بصدر الشهر ، وهل هو نصفه الأول أو ثلثه أو ثلثاه أو أقل أو أكثر ، والتخريج الذي انتهى إليه الرأي في هذه القضية هو أن صدر الشهر أدنى إلى أن يكون في الثلث الأول منه بالأرجحية على الثلثين ، لأن الصدر يكون في مستهل النصف الأول من الشهر لا بعد ذلك . أما الثلثان من الشهر فيجاوزان الصدر ولا يحققان قصد المتعاقدين ، وهذا التفسير له وجاهته ومعقوليته ورجحانه .

بيع العقار المرهون رهنا سابقا أو لاحقا على البيع :

يقول ابن سهل (715) « من أحكام ابن زياد (716) كشفت — وفقك الله — عما يجب للمرأة القائمة عندك بكتاب ابتياع قطيع من دار زوجها ابن حرب ، وفي الكتاب حدود الدار وموضعها وما شهد به الشهود عندك في ذلك الكتاب ، وقبولك لشهادتهم وما ألغيت من تقدم تاريخ الابتياع لتاريخ كتاب الارتهان الذي قام به عندك مرتهن الدار من مروان ، فنقول — والله نسأله توفيقك : إن التاريخ المتقدم أحق وأولى مما جاء بعده ، فإذا جاز الشهود القطيع

---

(714) هو « ابو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس ابن مرداس السلمي المتوفي سنة 238 هـ/852 م » . انظر : ابن الفرضي ترجمة رقم 816 .

(715) ابن سهل ورقة 150 .

(716) هو قاضي الجماعة بقرطبة أحمد بن محمد بن زياد المتوفى في خلافة عبد الرحمن ابن محمد سنة 307 هـ » . انظر ابن الفرضي ترجمة 81 ، ابن سهل ورقة 423 .

المبيع قبل الرهن وثبت حيازته عندك ، كان الرهن في باقي الدار ، وكان المبيع من أملاك زوجة ابن حرب مطلقا من الرهن بعد يمينها أنها ما علمت بإرهان زوجها لجميع الدار ، هذا قولنا ــ والله نسأله التوفيق ، قاله ابن لبابة (717) وابن وليد (718) وابن غالب » (719) .

وتفصيل هذه القضية أن امرأة اشترت من زوجها جزاء من دار يملكها ، ثم تبين أن زوجها قد رهن هذه الدار كلها لآخر ، وثار النزاع حول ما إذا كان هذا الرهن يسري في مواجهة الزوجة بالنسبة للجزء الذي تملكته بالشراء أم لا يري في حقها ، وقد رأى القاضي أن الحكم في هذه المنازعة يكون على أساس أسبقية التاريخ ، تاريخ البيع أو تاريخ الرهن ، فإذا كان الرهن سابق التاريخ على البيع ، كان هذا الرهن المتقدم أحق وأولى مما جاء بعده من بيع ، أما إذا كان الرهن الشامل لجميع الدار لاحقا للبيع فإنه لا يحتج به على المشتري فيما آل إليه بالبيع ، إلا إذا ثبت علمه ورضاؤه به فكأنه أقر الرهن ، وفي حالة عدم الاحتجاج بالرهن الوارد على الجزء من المبيع الذي انتقلت ملكيته إلى المشتري ، فإن هذا الرهن في خصوص هذا الجزء لا يعتدّ به أي يبطل ويبقى الرهن صحيحا فيما عدا ذلك من باقي الدار ، والذي عليه العمل في التشريعات العصرية الراهنة ، أن الرهن ــ وهو حق عيني يثقل العقار ــ له أولوية وتتبع على العقار في أي يد انتقلت إليها ملكيته ، ما دام هذا الرهن قد تقرر من مالك العقار قبل التصرف فيه بالبيع ، أما الرهن اللاحق للبيع بعد خروج العقار أو جزئه من ملكية البائع، فصادر ممن لا يملكه ومن ثم يبطل بطلانا كليا بوصفه رهنا لملك الغير ، وفاقد

---

(717) هو « محمد بن عمر بن لبابة ، يكنى أبا عبد الله بن لبابة ، ت 314 هـ/ 926 م» انظر ترجمته في ابن الفرضي رقم 1189 ، وابن سهل ورقة 423 .

(718) هو « محمد بن وليد بن محمد بن عبيد الله ت 309 هـ/921 م » . انظر ترجمته في ابن الفرضى رقم 1180 ، ابن سهل ورقة 423 .

(719) محمد بن غالب المعروف بابن الصغار يكنى أبا عبد الله توفي سنة 295 هـ/906 م ، ذكره ابن الفرضى ترجمة رقم 1148 ، ابن سهل ورقة 423 .

الشيء لا يعطيه . وهذا يطابق ما اتجه إليه الرأي في هذه القضية ، إلا أن الرهن الحاصل من الزوج البائع لزوجته بعد البيع قد صح في عرفه ما دام قد تم بعلم المشترية ورضائها ، فكأنه صادر منها بموافقة ضمنية . ومن ثم يحتج به عليها ، وذلك حماية للدائن المرتهن حسن النية ، ورفعا للضّرر عنه ، أي أن الرهن يصح فيما بقي على ملك الراهن ويبطل فيما خرج من ملكه ، ما لم يقع بموافقة المالك الجديد .

اختلاف المتبايعين في ذاتية المبيع وفي مقدار الثمن :

قال ابن سهل (720) : « فهمنا ــ وفقك الله ما ذكرت ضبيعة أنها باعت من أصبغ دارا بحاضرة قرطبة بستين دينارا ، وأنها أقبضته الدار ولم تقبض منه الثمن ، وقول أصبغ أنه إنما ابتاع منها ربع الدار بثلاثمة دنانير وستة دراهم منذ أربع عشرة سنة ، ولم يجر بينه وبينها في ثلاثة أرباع الدار مبايعة ، وأن الثلاثة الأرباع لم تزل بيد أصبغ وفي ملكه فالذي نقول به إن قبلت البينة التي قدمها أصبغ أخذت له بها بعد الإعذار ، وإلا حلفت المرأة أنها إنما باعت بستين ، وكانت أكرته منه قبل ذلك وسكن بالكراء ، وأنها ما قبضت ثمنا في الربع الذي أقر بابتياعه ، ثم يحلف المبتاع على ما ادعاه من ابتياع الربع بالثمن الذي ذكر ، ثم يجب التفاسخ بينهما ولها عليه اليمين في ثلاثة أرباع الدار إن عجزت عن إثباتها . قاله ابن لبابة وأيوب بن سليمان (721) ومحمد بن وليد » .

الذي يؤخذ من ظروف هذه القضية أن امرأة باعت دارا بحاضرة قرطبة إلى شخص بستين دينارا حسب ادعائها ، ولكنه أنكر شراء الدار برمتها بهذا الثمن ، وإنما أكد أنه اشترى ربع الدار فقط من أربع عشرة سنة بثلاثة دنانير وستة

(720) ابن سهل ورقة 150 .

(721) هو « أيوب بن سليمان بن هاشم بن صالح بن هاشم بن غريب بن عبد الجبار ابن محمد بن أيوب بن سليمان بن صالح بن السمح المعافري يكنى أبا صالح ، توفي سنة 302 هـ/914 .» انظر ابن الفرضى ترجمة 267 ، ابن سهل ورقة 423 .

دراهم ، وأن ثلاثة أرباع الدار لم تكن محل بيع تم بينهما ، وقررت المرأة أن الربع الذي يدعي الرجل شراءه بهذا الثمن إنما كان مؤجرا له على سبيل الكراء ، وأكدت أنها إنما باعت له الدار كلها بستين دينارا ، وأنه سكن بالكراء وما تقاضته منه كان على سبيل الكراء لا البيع ، وأصرت على استحقاقها للثمن كاملا عن الدار جميعا ، وقد حلف المبتاع على ابتياعه الربع الذي ادعاه بالثمن الذي سماه ، فهذه اليمين تكون حاسمة .

ويعتبر البيع المدعى به من جانب البائعة مفسوخا فيما زاد على هذا القدر ، وللبائعة إن عجزت عن إثبات شمول البيع لكل الدار يمين على المبتاع متى حلفها استقر الوضع على أساسه ، من حيث ورود البيع على باقي الدار أو انحساره عنه . وهذا الذي انتهى إليه الرأي في هذه المسألة ويطابق الأثر القانوني الذي يترتب عادة على اليمين الحاسمة التي تعتبر منهية للنزاع في خصوص ما وقعت عليه .

وهذه القضية وإن حدثت وقائعها في القرن الرابع الهجري ، إلا أن ذكر ابن سهل لها في سياق أقضية القرن الخامس الهجري قد يفيد معنى اطراد الرأي فيها خلال هذا القرن ، لما جرى عليه الحكم في القرن السابق .

الغبن في ثمن المبيع :

قال ابن سهل (722) : « صبي ابتاع رحي وباعها بأقل مما اشترى بها» نظرنا ـــ وفقك الله فيما قلت ، وفهمنا ما أشير به عليك من القيمة بمحضرنا ، وقلنا : لا معنى للقيمة ، وإنما ينظر إلى ما باع به الصبي وما ابتاع به ودفعه إلى البائع منه ، فإذا كان الصبي باع بأكثر مما به ابتاع فليس عليه إلا ما كان ابتاع به ، وإن كان باع بأقل مما به ابتاع كان الفضل للصبي ، ونقض فعل الصبي في الرحي وفسخ بيعها وردت عليه رحاه » .

---

(722) ابن سهل ورقة 151 .

واستند ابن سهل في فتواه إلى آراء بعض الفقهاء المتقدمين ، من أمثال عبيد الله ابن يحيى (723) وابن لبابة ، ويحيى بن عبد العزيز (724) وسعد بن معاذ (725) ومحمد بن وليد .

هذه القضية تعالج صورة من صور الغبن في ثمن الشيء المبيع على نحو ما هو معروف في التشريعات الراهنة ، ذلك أن الصبي الذي لما يبلغ الرشد إذا باع ما اشتراه بأكثر من الثمن الذي اشترى به فإن له على من باعه هذا الشيء الثمن الذي باعه إياه به ، والفرق بين الثمنين حق خالص له وربح حلال ، أما إن باع الصبي بثمن بخس أقل مما اشترى به فإن المرجع إليه وحده في نقض البيع واسترداد المبيع للغبن ، أو في طلب تكملة الثمن لإجازة البيع .

توجيه اليمين :

قال ابن سهل (726) : « امرأة باعت ملكا وأشهدت بقبض الثمن ثم قامت تطلبه بحدثان البيع وقال : إنها لم تقبضه ، وشهدت ببينة بقيامها في طلبه ولم يثبتوا قدر قرب القيام فحلف إليها في مقطع الحق بالله لقد كان قيامي على ابن عبدوس في طلبي ثمن المال الذي بعته منه بقرية اطرانة بقرب البيع بعشرة أيام أو أقل منها ، فإذا حلفت وجب لها اليمين على ابن عبدوس في الثمن لقد نقده إياها وقبضته منه ثمنا ، فإذا حلف برىء ولزمها حيازة ما باعت وإن نكل ردت اليمين عليها فحلفت ما قبضت منه شيئا من ثمن هذه الأرض ، وإن نكلت في اليمين الأولى سقط مطلبها عن ابن عبدوس في اليمين والثمن . قاله ابن لبابة وأيوب بن سليمان ومحمد بن وليد « .

---

(723) هو « أبو مروان عبيد الله بن يحيى المتوفى سنة 298 هـ/910 م » ، انظر ابن الفرضى : ترجمة 764 ، ابن سهل ورقة 423 .

(724) هو «أبو زكريا يحيى بن عبد العزيز المتوفي سنة 295 هـ/ 907 م » ، انظر ابن الفرضى : ترجمة 1570 وابن سهل ورقة 422 ، 423 .

(725) « سعد بن معاذ الشيباني المتوفى 308 هـ/920 م » ، انظر ابن الفرضى : ترجمة 537 ، ابن سهل ورقة 423 .

(726) ابن سهل ورقة 151 .

تدور هذه القضية حول حلف اليمين على قبض الثمن والعدول عنه ، ومفاد الرأي فيها أن حلف اليمين يحسم المنازعة فيما وقع عليه ، وأن العدول عنه مؤداه رد اليمين على من وجهها ، فإذا أداها ثبت حقه ، وإن نكل عنها بدوره ، سقط هذا الحق .

قضية من ابتاع دارا باسم زوجته ثم أنكر :

قال ابن سهل (727) : « فهمنا ــ وفقك الله ــ ما سألت فاطمة من إيقاف زوجها على ب المشهود فيه عندك بابتياعه للدار المحدودة فيه لها وبمالها ، هل هذه الدار بيده . فإن قال نعم وجب عليه الحكم بها لزوجته بعد الإعذار إليه في الشهود الذين شهدوا عليه بالإقرار بابتياعها ، وإن أنكر أن تكون بيده فإن أتتك فاطمة بشاهدين تعرفهما بأن هذه الدار بيده ، فإن قال نعم عبد العزيز وجب إخراجه عنها والحكم عليه فيها بعد الإعذار إليه البينة ، وإن عجزت عن إثبات كونها بيده وجبت اليمين عليه ، ثم يؤخذ بثمنها المذكور في كتاب الابتياع ، قاله عبيد الله بن يحيى وابن لبابة وابن وليد وغيرهم » .

تنحصر وقائع هذه القضية في أن شخصا ابتاع دارا باسم زوجته أي بطريق الوكالة عنها ولحسابها لا لحساب نفسه ، ثم أنكر أن يكون الابتياع باسم الزوجة ولحسابها على الرغم من إشهاده أمام القاضي بأنه ابتاع هذه الدار بعينها لزوجته وبمالها ، فجرى التساؤل عما إذا كان الزوج حائزا للدار ومقرا بملكيتها لزوجته ، إذ في هذه الحالة يتعين إلزامه بتسليمها الدار ، ما دام غير منكر لواقعة شراء هذه الدار لحساب زوجته وبمالها الخاص ، أما إذا أنكر حيازته للدار ثم ثبتت هذه الحيازة الفعلية بالبينة ، وجب نزعها منه ورد الدار إلى حيازة الزوجة المالكة باعتبار أن هذه الحيازة فرع من الملكية ، فإن عجزت الزوجة عن إقامة الدليل على حيازة الزوج للدار وجهت إليه اليمين ووجب عليه أن يرد إلى الزوجة ثمن الدار المسمى في كتاب البيع ، لأن وجود هذا الثمن تحت يده يصبح بغير سند ولا وجه حق ، على أساس أنه لم يشتر الدار لحسابها .

(727) ابن سهل ورقة 151 .

وتثير هذه القضية مشكلة قانونيّة سببها ما إذا كان الشراء بالوكالة لحساب الغير ومن مال هذا الغير يقع لصالح الموكل بعلاقة مباشرة بينه وبين البائع أم أنه يقع لحساب المشتري الظاهر .

والرأي أنه إذا كشف المشتري عن أن شراءه إنما هو لحساب شخص آخر فإن الحق ينتقل إلى هذا الأخير مباشرة ، أما إذا أنكر فإن عليه أن يرد إلى الموكل الثمن الذي تقاضاه منه ما دامت الصفقة لم تتم لحساب هذا الأخير . وتبرير ذلك يقوم على افتراض أن الوكيل لم يقم بتنفيذ الوكالة وتنصّل منها ، فيلزمه رد الثمن وهذا ما يعرف بشراء الوكيل لحساب نفسه ما وكل في شرائه لحساب الغير .

التنصل من التوكيـــل :

قال ابن سهل (728) : « وكيل باع منارا بتوكيل ثم غاب ، فقام ربه بعد ذلك على مشتريه وزعم أنه أمره ببيعه فشاوره في بيعه بثمانية مثاقيل ، فقال لا أبيعه بذلك فقال له المأمور أنا أبيعه لك من امرأة باثنى عشر مثقالا مؤخرة وأنه رضي بذلك ، فقال المشتري : لا أدري شيئا من هذا الذي تدّعى ، إنما اشتريته منه بثمانيه مثاقيل قبضها مني .

قال القاضي : سألت ابن عتاب عن هذه المسألة فقال لا سبيل للبائع إليه ، فقلت له : فهل له على المشتري اليمين أنه قد دفع إلى المأمور الثمن ففكر ثم قال : له ذلك ، قال القاضي : النظر ألا يمين له عليه إلا أن يثبت أن المنار كان له وأنه أمر ذلك الإنسان ببيعه ونحوه » .

جوهر النزاع في هذه القضية أن شخصا أناب عنه وكيلا في بيع منارة يملكها ، ثم غاب هذا الوكيل فادعى الأصيل أنه لم يقبل ما عرضه عليه من بيعه إياها بثمن معجل قدره ثمانية مثاقيل ، إنما فوضه في بيع هذه المنارة بثمن مؤجل السداد قدره اثنا عشر مثقالا ، بينما زعم المشتري أنه تراضى مع الوكيل على شرائه بثمانية

(728) ابن سهل ورقة 152 .

مثاقيل دفعها إليه فورا ، وأنكر المشتري علمه بما جرى من مشاورة بين الأصيل والوكيل في خصوص تحديد ثمن البيع . وقد انتهى القاضي في هذا النزاع إلى أنه لا حجة على المشتري فيما ادعاه الموكل ، ولا سبيل لهذا الموكل إلى الرجوع على المشتري بشيء ما .

أما فيما يتعلق ببراءة ذمة المشتري من الثمن بأدائه إياه إلى الوكيل فإن ثبوت ذلك منوط بحلف اليمين متى تحققت واقعة توكيل الأصيل للمأمور في بيع هذه المنارة . والتفسير القانوني لهذه المسألة أن الوكيل بوصفه نائبا عن الأصيل يمثل هذا الأخير في التصرف الذي فوض فيه ، ومتى ثبتت الوكالة فإن التعامل بين الوكيل والمشتري يكون بمثابة تعامل بين الأصيل والمشتري فيلزم الطرفين على هذا الأساس ويقع اتفاق الوكيل مع المشتري فيما يتعلق بالثّمن ملزما للأصيل .

أما إذا انتفت الوكالة فلا يكون ثمة محل لشيء من ذلك ، لأن الأمر عندئذ يكون تصرفا في ملك الغير ولا يحتج به وبالتالي على المالك الحقيقي ، أما تصرف الوكيل بصفته نائبا ومفوضا في حدود الوكالة فإنه يكون ملزما للموكل ومرتدا إليه .

دعاوي استرداد الحيازة :

قال ابن سهل (729) : مسألة عبد الرحمن وفطيس ابني عيسى بن عبد الرحمن بن فطيس .

« أثبتا عند صاحب المظالم في قرطبة أبي بكر بن أدهم عقد استرعاء بملك أبيهم عيسى لأرض بقرية دوش الجبل (730) من إقليم الجنسطمار من عمل قرطبة ، حدها كذا ، وأنه اغترسها كرما ولم يفوت شيئا من ذلك في علم شهدائه إلى أن توفي ، وأنهما تملكاه بعده ولم يفوّتاه ، وأن عبد الملك بن محمد بن جهور تسور عليهما في قطعة منه تعرف بالسهلة ، ولم يقدما على التكلم في ذلك تملكه

(729) ابن سهل ورقة 150 .

(730) لم يرد اسم هذين الموضعين في المصادر الأندلسية المعروفة بين أيدينا .

على قرطبة ، وأثبتا عنده موت أبيهما ووراثته وانفرادهما بالكرم وحيز الكرم والقطيع ، وثبت حيازتهما عنده وأشهد بذلك كله ولم يبين في تقييده حد القطيع المغصوب ، ثم أقام بما قيد ابن أدهم لهما وأثبتاه عند القاضي محمد بن أحمد بن بقيّ (731) وسألاه الرأي في ذلك ، فأفتى محمد بن جرج مولى الطلاء أن إنزالهما فيما غصب لهما واجب والحكم بذلك لازم ، قال : وجه الإنزال أن ترسل شاهدين ممن حيز عليهما الكرم المغصوب ، واللذين وجها للحيازة مع غلام من قبلك مع عبد الرحمن وفطيس إلى الكرم ، وينزلان فيه بأمرك وتشهد على ذلك من حكمك .

قال القاضي : وأفتيت أنا أن هذا الحكم نافذ لهما لا يحتاجان معه إلى ما سألاكه من الانزال ، وأيديهما مطلقة على ما نص في تسجيله لهما ولو لزمك ذلك للزم غيرك بعد ما شاء لهما ولا تصل الحكم إلى غير غاية .

وهذا أمر لا معنى له ولا سمع به ، إلا إن كان منعهما منه مانع ودفعما عنه دافع ، فوجه الحكم حينئذ أن تحضر مجلس نظري ذلك المعترض أو وكيله ويتقيّد قوله بتبيين اعتراضه ، ثم يجري الخصام فيه على وجهه بحسب العادة فيه . والانزال أيضا لا يكون إلا في معين محدود الأقطار والجهات ، والقطيع المغصوب الذي جرى فيه الحكم لم يذكر تحديده ولا زرعه ولا في أي جهة من الكرم هو ، ففيما تنزلهما لو لزمك ذلك وفي أي قطيع ترجى الحجة للغائب ، حملنا الله واياك على ما يقرب منه .

قال القاضي : هذه المسألة والتي قبلها كان باب الأقضية والأحكام أليق بها من هذا الباب ، لكنا ذكرناها هنا لما فيها من ذكر الإنزال إذا اتصل بذكر الانزال ذلك في الأملاك المبيعة ، والله ولي التوفيق » (732) .

---

(731) هو « محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد توفي سنة 470 هـ/ 1077 م » . الصلة ، ترجمة 1203 ص 21 .

(732) ابن سهل ورقة 150 .

نخلص من وقائع القضية المتقدم ذكرها أن النزاع فيها يدور حول ما إذا كان لصاحب الأرض المغتصبة الحق في استرداد القطيع الذي اغتصب منه بحكم من القاضي بتمكينه من ذلك ، أم أن له هذا الحق دون حاجة إلى الالتجاء إلى القاضي .

فالأرض في هذه الخصوصية كانت ملكا لشخص أبرم بصددها عقد استرعاء لشخص آخر ، ثم مات عنها وورثه ولداه واغتصب الحاكم قطعة من هذه الأرض . وكان الرأي أنه متى ثبت حق الورثة لدى القاضي في قطيع من الأرض محدد المعالم وتأيد ذلك بعلم من يعرف هذا الحق ، كان له أن يستولى عليها بالانزال فيها ولو أن الحاكم الغاصب قام بتسويرها فإن اعترض الغاصب كان عليه عبء الإثبات ولزم الالتجاء إلى قاضي المظالم للفصل في المسألة على الوجه المعتاد ، بعد سماع الشهود ودفاع الغاصب أو من ينوب عنه ولا سيما إذا كانت معالم الأرض محددة ، وهذا أدخل في باب الأحكام .

وهذه الصورة أقرب شبها إلى ما يعرف في القوانين الحديثة بدعاوي الحيازة ومنع التعرض ، حيث يحمي الشارع بصفة مؤقتة الغاصب في مواجهة المتعرض إلى أن تثبت ملكية صاحب الحق فيرد له حقه ، وذلك صونا للنظام في المجتمع حتى لا تسود الفوضى واقتضاء الحق بالقوة ويضطرب الأمن والنظام .

الإقرار في مجلس القاضي وعدم جواز الرجوع فيه :

ذكر ابن سهل في نوازله (733) : « طلب بيبش بن فلان بخمسمائة مثقال ونيف من ذهب أغلبية رفعت إليه قراضا ، وكتب رب المال به عليه عقدا أشهد به على نفسه فقرأت العقد عليه وقلت له : عندك هذا المال . ؟ قال : عندي ، قلت له فأعطه إياه . فقال : منه هنا شيء ، ومنه غنم بطليوس ينهض معي وأدفع إليه الغنم ، وأعطيه الذي هنا . فقيل له : فسر هذا الذي عندك . فقال :

---

(733) ابن سهل ورقة 153 .

ثم أشياء ـــ قيل له : ماهي ؟ قال : مات كثير من الغنم . وثبت هذا كله من مقاله فأفتى ابن عتاب ، إن عليه حميلا يوجّهه حتى يثبت ما ادعاه من موت الغنم . وإن لم يقم حميلا فليلازمه الغلام حتى يثبت ذلك . ودعا رب المال إلى اعتقال فرس هذا المطلوب لئلا يغيبه ويدعي العدم .

فافتى ابن عتاب أيضا باعتقاله واعتقال جميع ما يوجد في منزله ، مما يشبه أنه للرجال ويلازمه في ذلك كله الغلام . وأفتى ابن عبد الصمد (734) أنه لا ضامن عليه ولا يلازمه الغلام ، لأن مال القراض من الأمانة لا في الذمة .

قال القاضي : والصواب في هذه المسألة عندي أن جميع المال قد لزمه إحضاره ولا يقبل منه ما ادعى موته من الغنم ، لقوله : المال عندي إذ وقفته عليه ، وهذا إقرار بجملته فلا يقبل منه دعواه في مجلسه أن بعضه ذهب بموت ولا غيره ، لأنه لو قال بعد هذا الإقرار : قد ذهب جميعه وإنما قلت هو عندي طمعا في تأخيره حتى أنظر في أمره وشبهه من الكلام لم يسمع منه ولزمه ، وإذا لزمه وبان لدده وروغانه وجب عليه ضامن به حتى يحضره ، والله الموفق للصواب » .

تتلخص وقائع هذه القضية في أن شخصا أقرض آخر مبلغا من المال ، فلما طالب الدائن مدينه بأداء القرض لم ينكر وجوده عنده وأقر به أمام القاضي ، ولكنه ادعى أن جزءا منه لديه والجزء الآخر من ماله في بطليوس في هيئة غنم لديه ، فلما طلب إليه بيان قيمة هذه الغنم ادعى أن جانبا كبيرا منها قد نفق ، فأشار ابن عتاب بأن يتوجه معه مثل للقاضي إلى حيث توجد الغنم لإثبات دعواه .

أما قاضي الجماعة قرطبة فقد رأى في تصرف المدين ضربا من التهرب والمراوغة ، وقضى بأن عليه إحضار المال كله طالما أقر به ، وإذا تبين أن دعواه كانت بهدف التهرب من أداء الدين وجب عليه ضامن حتى يؤدي الدين الذي في ذمته .

(734) هو «أبو محمد موسى بن هذيل بن محمد بن تاجيت البكري القرطبي يعرف بأبن عبد الصمد توفي 462 » ، انظر ابن سهل ورقة 424 ، ترجمته في الصلة رقم 1335 ص 575 ـــ 576 .

على من يقع الالتزام برد قيمة القرض في حالة تعدد المقترضين :

قال ابن سهل (735) : « دفع عبد الله بن أحمد إلى أحمد ومغيث أربعمائة مثقال ذهبا نصفية ، ليتجرا بها في صناعة الصرافين بسوق قرطبة على سبيل القراض وسنته ، ويتصرفا به في الصناعة المذكورة خاصة ، وقبض أحمد العدد المذكور وصار بيده وبيده يكون مدة تجرهما به على القراض المذكور ، فما أفاء الله فيه كان بينهم أثلاثا لعبد الله ثلث الربح بعد قبضه لرأس المال ، ولأحمد الثلث ، ولمغيث الثلث . ويكون تجر أحمد ومغيث وتصرفهما في المال على السواء ، وعليهما الاجتهاد في ذلك ما بلغ طاقتهما ، وليس لهما أن يصرفا المال المذكور في غير التجر الموصوف بالصناعة الموصوفة ولا أن يسافرا به ولا بشيء منه ، ورضي مغيث بأن يكون المال المذكور على يدي أحمد ، وعلى هذا الشرط دفع عبد الله إلى أحمد المال وعليه انعقد القراض بينهم .

سئل ابن عتاب عنه فجاوب : تصفحت هذا وتأملته إذا رغبت ذلك ، وهو عقد صحيح وقراض جائز لا علة فيه تبطله ولا شبهة توهنه ، قد أحكم عقده وأبرم أمره على مسألة لابن القاسم وقعت في المستخرجة وغيرها ، لا نعلم مسألة تعارضها ولا قولا لأحد من أصحاب مالك يخالف قوله فيها ، فصار ذلك كالإجماع منهم عليها ، وهي منصوصة غير محتملة لوجوه التأويل مكشوفة من هذا المعنى مشهورة عند أهل العناية بهذا الشأن .

وهي : قال ابن القاسم في رجل دفع إلى رجلين قراضا في المال عند من يكون ؟ نظر في ذلك إلى قول صاحب المال فاتبع قوله ، فإن اختلفا في الاشتراء والبيع فرأى هذا الاشتراء أو البيع وقال : هذا لا أراه فلا بد لهما من أن يجتمعا وإلا رد المال ، وهذا ما لم يقبض المال ، فإذا قبض فهو إلى من دفعه ربه عند مقارضتهما ، إن كان دفعه إليهما جميعا فجميعا ، وإن كان أحدهما فأحدهما وليس للآخر بعد كلام ولا مقال ، إذا كان بعلمه فتأمل رحمك الله نص هذا القول ونص العقد فإنك لا تجد بدأ منه .» .

(735) ابن سهل ورقة 153 .

تتناول هذه المسألة صورة عقد بمقتضاه دفع صاحب المال إلى شخصين مبلغا من النقود ليتجرا فيه بشروط معينة ، على أن يقتسم واياهما الأرباح فيما بينهم مثالثة بعد أن يسترد رأس المال ، على أن يكون الملزم بالرد هو الذي قبض المال بيده بالفعل وأصبح المتصرف فيه بإمرته بالاشتراك مع الآخر . ففي هذه الحالة يكون العقد صحيحا لا شائبة فيه ، ويقع الالتزام برد المال إلى صاحبه على عاتق من تسلمه من الشريكين باعتباره أنه هو الذي قبضه وإن كانا قد تسلماه معا مجتمعين فعليهما رده مجتمعين أيضا ، وهذا ما يتفق مع ما سبق أن أفتى به ابن القاسم في حالة مشابهة .

استنزال الأجرة من ثمن البيع :

قال القاضي : « أخبرني عبد الله بن موسى الشارقي عن ابن محون وابن الشقاق فيمن اكترى دارا بعشرة دنانير لعام أو أشهر ثم ابتاعها بعشرين على أن الكراء عنه محطوط أن ذلك لا يجوز . قال ابن دحون : هذا إن كان إسقاط لكراء مشترطا وإن وضعه البايع عنه بعد عقد البيع جاز . قال لي الشارقي وأجازه ابن جرج وهو خطأ يريد لأنه ابتاع الدار والكراء الذي عليه بالعشرين التي دفع فصار ذهبا وعرضا بذهب وهو بين الفساد وما طولب هو لا يدل على أن الكراء لا يفسخه الشراء وهو خلاف ما فوقه فتدبره » (736) .

وموضوع التساؤل في هذه الخصوصية يدور حول ما إذا كانت الأجرة المدفوعة مقابل الانتفاع بالعين تخصم من ثمن هذه العين فيما لو اشتراها المستأجر أم لا ، والمرجع في ذلك إلى اتفاق الطرفين فإن اصطلحا في العقد على استنزال الأجرة من ثمن البيع وقع هذا الشرط صحيحا ، وإذا لم يوجد مثل هذا الاتفاق فالأصل أن ثمن البيع يدفع مقابل تملك العين أما الأجرة فهي لقاء الانتفاع بالعين إلا إذا رضي البائع فيما بعد باستنزالها من الثمن .

---

(736) ابن سهل ورقة 154 .

ولما كانت الأجرة هي مقابل المنفعة فإن اتخاذ صفة المالك والمستأجر في شخص واحد ــ علما بأن المالك يملك كلا من حق الرقبة وحق الانتفاع ــ يجعل الأجرة لا تلزمه بعد أن أصبح مالكا ، ومن ثم يجوز عدالة خصمها من ثمن المبيع ، لأن المالك لا يستأجر ملكه ، وغير صحيح ما يمكن أن يقال من أن الكراء لا يفسخه الشراء ، لأن المستأجر بعد أن يصبح مالكا لا يمكن أن يظل مستأجرا في الوقت ذاته لما تملك ، وبهذه المثابة يسقط عقد الكراء وينفسخ الإيجار بصيرورة المستأجر مالكا .

ولما كانت الأجرة مقابل الانتفاع بملك الغير ، فإن هذه الأجرة لا تصبح مستحقة مقابل انتفاع الشخص بملكه هو .

مسؤولية المكتري عن الشيء موضوع الكراء :

قال ابن سهل (737) : من أحكام ابن زياد تكشف رحمك الله ابن منتصر عن البغلين اللذين اكتراهما من أيوب بن مزين إن كان ردهما أم لا ، فقال ابن منتصر : إني لم أكتر منك بغلين ، ولم أتعد الأمر الذي له اكتريت ، ولا زدت على العدد الذي حد لي الرسول عنك أنك رضيت بحمله على بغليك ، فعطب البغل الواحد بمزاحمته الدواب على بئر في بعض الطريق ، ورددت البغل الآخر إليك كما أمرني الرسول المكتري لي منك ، وقال ابن مزين : إنما جاءني الرسول من ابن منتصر في اكتراء بغلين مني فأكريت البغلين من ابن منتصر ، وبعثت الرسول بهما إليه على حمولة سلعة أقفزة قمح على كل بغل ، وحددت له مبيت ليلة لا غير فبات عني ليلتين » .

قال ابن لبابة : « يحلف المكتري بالله الذي لا إله إلا هو في مقطع الحق لما زاد على الحمولة التي شارطه عليها ، ولقد عطب البغل بغير تضييع ولا تفريط ، ولقد رددنا إليه الإكاف (738) والرسن (739) ، وقاله محمد بن لبابة » .

(737) ابن سهل ورقة 154 .

(738) الإكاف : هو الرحل الذي يوضع على ظهر البغل .

(739) الرسن : هو الحبل .

من الأصول العامة المقررة أن المستأجر يجب عليه أن يحافظ على الشيء المؤجر عينا كان أو دابة بعناية الرجل الحريص ، وأن يستخدمه فيما أعد له في الحدود المعقولة التي لا تسبب له تلفا أو هلاكا أو بوارا . وفي هذه القضية استأجر شخص دابتين من صاحبهما عن طريق رسول أوفده إليه ، وقد اشترط صاحب الدابتين على الرسول ألا يزيد في أحمالهما مما يسبب لهما إرهاقا أو يتجاوز طاقتهما من الأحمال ، وأن يردهما بعد ليلة واحدة ، فإذا أصاب إحدى الدابتين عطب بسبب تجاوز الحمولة كان المستأجر مسؤولا عن تعويض هذا العطب ، ولا يعفيه من هذه المسؤولية إلا حلفه اليمين بأنه لم يسرف في الحمولة ، فتقبل منه هذه اليمين بمراعاة أن الاتفاق على الحمولة لم يتم بينه وبين المالك مباشرة وإنما بين هذا الأخير وبين رسول المستأجر . على أنه بالتحليل القانوني للواقعة المعروضة يبين أن هذا الرسول إن هو إلا وكيل المستأجر يعمل باسمه ولحسابه ، فإن تجاوز حدود الوكالة بارتكاب خطإ فيما يتعلق باستعمال الشيء المؤجر فالأفضل أنه هو الذي يسأل عن هذا الخطإ .

وفي القضية المطروحة نرى أن القاضي تخفف من مسؤولية المستأجر بقبول يمينه لما تقدم من أسباب ، وإذا كانت وقائع هذه القضية ترتد إلى القرن الرابع الهجري في الأندلس فلم نعثر على مبدإ على خلاف ما قضى به فيها في القرن الخامس الهجري .

أداء الأجرة في حالة التأخير من الباطن :

قال ابن سهل (740) : « اكترى رجل حانوتا لشهرين ثم أكراه من آخر لهذين الشهرين ، كل شهر بكذا ، وانقضى الشهران ومضى من الثالث عشرة أيام ثم طلب المكتري الأول من هذا الثاني ما أكراه به للشهرين فقال : قد دفعت ذلك إليك . فأفتى ابن القطان : إن المكتري الثاني مصدق مع يمينه في دفع الكراء إلى

(740) ابن سهل ورقة 155 .

الأول ، وإن كان انقضاه أمد الكراء قريبا لخروج الحانوت عن يد المكتري الأول ، وانقطاع سبب ملكه عنه برجوعه إلى ربه ، وكأنه قاسمه على ذهاب الدهر من يد المرتهن ببينة ، أو كان مما لا ضمان فيه لأنه مما لا يغاب عليه ، ثم لا يختلف الراهن معه في مبلغ الدين ، فالقول قول الراهن إذ لم يبق بين المرتهن الذي كان في مبلغه كالشاهد له على ما في سماع يحيى وفي غير العتبية . قال القاضي وسأل ابن عتاب عن ذلك فقال : أيما يصدق المكتري في كراء الشهر الأول إذا حلف أنه قد دفعه ، وأما الشهر الثاني فالقول قول المكتري الأول الذي أكرى الحانوت منه مع يمينه لقرب انقضاء أمد الكراء ، ولا فرق بينهما وبين رب الدار والحانوت لو تنازع مع المكتري في قبض الكراء . وتكلمت مع ابن مالك في ذلك فقال مثله وقال لي : كما لا يختلف خروج الساكن من الدار وبقاؤه فيها في تنازعهما في دفع الكراء ، وهذا الصواب والله أعلم » .

صورة هذه القضية أن شخصا استأجر دارا من مالكها لمدة شهرين ، ثم أجرها من الباطن لشخص ثالث ، ومضت عشرة أيام من الشهر الثالث ، فلما طلب المستأجر الأصلي المستاجر من الباطن بالأجرة ، قبل القاضي من المستأجر الثاني حلف اليمين على أنه أدى الأجرة إلى المستأجر الأصلي ، واكتفى بهذه اليمين لبراءة ذمته . أما كون علاقة المستأجر من الباطنْ قد انتهت بعد عشرة أيام من الشهر الثالث فمعناه أنه رفع يده عنها وأخلاها بعد هذه الأيام العشرة ، فبقاؤه في يده خلال الشهر الثاني والعشرة الأيام التالية ينطوي على استصحاب للقرينة التي أخذ بها القاضي ، وهي أن دفع الأجرة يتم مقدما ، فإذا حلف اليمين كانت يمينه بالإضافة إلى هذه القرينة مثبتة لبراءة ذمته .

التنازع في الكــراء :

قال ابن سهل (741) : « اكترى رجل دارا لعشرة أشهر ، وسكنها ورحل عنها ، ثم قام عليه ربها يطلبه بكراء الشهر العاشر ، بعد أربعة أشهر من خروج

(741) ابن سهل ورقة 155 .

المكتري منها . فقال : كنت شرطت عليّ التقديم لآخر الأشهر فقدمت كراءه إليك ، وقال ربها لم أشترط ذلك عليك ولا قبضته منك . فأفتى ابن عتاب أن القول قول ربها مع يمينه أن لم يقبضه منه ، لادعاء المكتري في تقديمه يريد ولاقراره أنه لم يدفعه في محله كما قال قد دفعته إليك بعد انقضاء شهرين أو ثلاثة من انقضاء أمر الكراء .

وأفتى ابن القطان وابن مالك أن الساكن مصدق مع يمينه لطول أمد سكوت ربها عنه بعد خروجه منها ، يريدان لأنه لو قال دفعته إليك عند انقضاء أمد الكراء لصدق مع يمينه وكذلك يصدق في تقديمه ، وكان الذي ادعاه كثيرا ما يشترطه الناس من تقديم بعض الكراء لآخر أمد السكنى ، ويتفرع من هذا أن تشاح مع رب الدار في باقي الكراء ، فقال ربها ادفع إليّ من الكراء في كل شهر ما ينوبه من الجميع ، وقال الساكن إنما أدفع إليك ما ينوبه من باقي الكراء وتركنا ذكره كراهة التطويل » .

يتلخص موضوع هذه القضية في أن شخصا استأجر دارا من مالكها لمدة عشرة أشهر ثم رحل عنها ، وبعد انقضاء أربعة أشهر من تاريخ نهاية مدة الإيجار طالبه المالك بأجرة الشهر العاشر بمقوله إنه لم يدفعها .

وقد اختلف الرأي في هذه المسألة ، فذهب ابن عتاب إلى أن المالك يصدق بيمينه فيما يدعيه من عدم اقتضائه أجرة الشهر العاشر ، ولكن ابن القطان وابن مالك ذهبا إلى أن سكوت المالك على المطالبة بأجرة الشهر العاشر مدة أربعة أشهر يعتبر قرينة لصالح المستأجر ، الذي يصدق في هذه الحالة بيمينه فيما لو حلف أنه أدى الأجرة بأكملها سلفا ، لأنه لو قال أنه أدى الأجرة المستحقة عن هذا الشهر بعد انقضاء مدة الايجار لصدق بيمينه ، فمن باب أولى يكون مصدقا بيمينه فيما لو قرر أنه أدى الأجرة جميعها مقدما وتأيدت هذه القرينة بسكوت المالك عن المطالبة بهذه الأجرة مدة أربعة أشهر بعد خروج الساكن من العين .

تملك الغلـــة :

قال ابن سهل (742) : « قال القاضي أبو بكر بن زرب في مسائله : من

(742) ابن سهل ورقة 156 .

ادعى أنه ابتاع دارا من رجل فأنكره ذلك ولم تقم للمدعي بينة فإنه يؤخذ بخرجها وقضى بذلك . فقال له ابن دحون : أليس الغلة بالضمان فقال : ليس في مثل هذا . هو مقر بأن الدار كانت للقاضي ويزعم أنه ابتاعها ولم يثبت ذلك فهو يرجع عليه بالغلة ، ولو قال الدار ملكي ولم يدع ابتياعها ثم ثبت للقائم ملكها لم يرجع عليه بالغلة ، ولو قال الدار ملكي . قال القاضي أبو الأصبغ قد سمعت بعض شيوخنا يقوله وهو دليل ما في الشفعة من المختلطة » .

يؤخذ من مفهوم هذه القضية أن من يشغل عينا كدار مثلا ، ويدعي أنه تملكها عن طريق الشراء ثم يعجز عن إقامة الدليل على صحة ادعائه ، فإنه يلزم بخراجها للمالك الذي أنكر بيعها إليه . أما إن كان يدعي أن الدار ملكه بطريق ما غير طريق الشراء ، فإنه لا يلزم في هذه الحالة بأداء الأجرة إلى من يدعي ملكية الدار إلا إذا أقام هذا الأخير الدليل على صحة ادعائه .

وجملة القول أن الأجرة وهي مقابل المنفعة التي هي إحدى عناصر حق الملكية ، لا تستحق إلا لمن يثبت له أصل هذه الملكية ، لأن مالك الأصل يملك الفرع ، وهذا هو المنطق السليم الذي ذهب إليه القاضي في موضوع المنازعة .

السمات العامة للمعاملات في قرطبة في القرن الخامس :

نخلص من استظهار الأقضية التي سلف إيرادها على التفصيل والبيان الموضحين فيما تقدم ، أن القرن الخامس الهجري في قرطبة تميز بطابع في المعاملات المدنية والتجارية وفي التحقيقات والمحاكات الجنائية ، ويمكن تحديد ملامح هذه المعاملات بوجه عام بما يلي :

أولا : تخصيص القضاء وتحديد وظيفته وولايته بحسب طبيعة المنازعات وموضوعها ومبلغها من الأهمية ، وتوزيع صلاحياته على هذا الأساس بين جهات مختلفة متدرجة ومراتب متباينة ، بما يحققه التخصص من مزايا اكتساب الخبرة والتمكن من معرفة المبادىء والأحكام السابقة واستقرارها ، وسرعة الفصل في الخصومات وما يترتب على التدرج من إسناد كل منازعة إلى من هو أكثر صلاحية لنظرها من القضاة .

وقد كان ثمة قاضي الجماعة وصاحب المدينة والقاضي العادي وقاضي المظالم وقاضي الرد وصاحب السوق وصاحب الشرطة . ولكل مرتبته واختصاصه الذي يتفق مع هذه المرتبة ومع درجة أهمية المنازعة وخطورتها ، على أنه لم يكن هناك حد فاصل بين اختصاص كل من هؤلاء واختصاص الآخر ، فكثيرا ما كان يقع مزج وتداخل بين هذه الاختصاصات ولا سيما إذا ما كانت المنازعة تثير مسألة قانونية مما يدخل في اختصاص أكثر من قاض واحد .

فكان القاضي الذي تعرض عليه مسألة من هذا القبيل يتناولها برمتها ، ويفصل فيها بغير توقف من نظرها ، حتى لا يرد المتنازعين إلى قاض آخر قد يتنصل هو أيضا من الحكم فيها ، فيكون ثمة تعطيل لمجرى العدالة ، وهو ما يسمى في العرف القانوني الراهن بتنازع الاختصاص السلبي ، حيث لا يجد صاحب الحق قاضيا ينصفه ويفصل في ظلامته ، بينما تغلب القضاء في قرطبة في تلك الحقبة من الزمن على هذه الصعوبة بأيسر الطرق .

ثانيا : أن رجل القضاء ـــ على هيبته وعلى الثقة في علم القائمين عليه وبراعة اجتهادهم وإلمامهم بالفقه وبالأصول والمبادىء والسوابق القانونية ـــ لم يكن يستأثر بإبداء الرأي في المسائل التي تتباين فيها وجهات النظر ، بل كان يأخذ بمبدإ الشورى في القضاء ابتغاء العدالة المطلقة ، بالرجوع إلى أهل الرأي ومشاورتهم واستطلاع حججهم ، ورأى السلف من الفقهاء من خلالهم فيما أشكل على القاضي من أمور للاهتداء إلى أصوب الحلول وأرجحها وأعدلها في كل مسألة تثير صعوبة قانونية ، توكيدا للطمأنينة في نفوس المتقاضين وتلمسا للعدالة الحقة وتصونا من الوقوع في الزلل .

ثالثا : أن المعاملات بين الأفراد في تلك الحقبة من التاريخ كانت من التطور والتشعب والتنوع واتساع الجوانب ، تبعا لازدهار أوجه النشاط الحضاري والاجتماعي والاقتصادي وتعدد المصالح والنمو العمراني بحيث

خلف الفصل في القضايا ـــ وكان هذا الفصل مبنيا على الاجتهاد ـــ تراثا قضائيا يعدّ ثروة خصيبة في الفقه الإسلامي .

رابعا : إن أهم القضايا شأنا كانت هي تلك المتعلقة بالمنازعات العقارية ، وأن المبادىء التي قررها القضاء في شأنهما تكاد تتفق في روحها وجوهرها وتأصيلها مع العديد من المبادئ والأصول القانونية المأخوذ بها في الكثير من التشريعات الحديثة ، بل يمكن أن تعد هي المصدر التي استوحته تلك التشريعات فيما تضمنته من أحكام .

ولم يكن القضاء في المنازعات الإدارية أقل شأنا منه في المنازعات العادية ، وقضاء المظالم خير شاهد على ذلك بما كفله من إنصاف للضعيف إزاء أي اعتداء يمسه من جانب صاحب النفوذ والسلطة .

وقد تميز القضاء الإسلامي في تلك الآونة بتولي القاضي بحسب اختصاصه تنفيذ الأحكام التي يصدرها ، حفاظا على حقوق أصحاب الشأن وعلى قدسية الأحكام واحترامها . وقد كانت إجراءات التحقيقات الجنائية تتميز بكفالة ضمانات الحيدة وحق الدفاع وعدالة التصرف على أمثل وجه ، فالدقة في البحث والتحري والمعاينة والتفتيش والاستقصاء وإثبات الحالة هي دأب المحقق ، مع عدم الاعتداد باعتراف منتزع بالإفزاع أو التهديد أو الإكراه ، كذلك سلم هذا القضاء من الانحراف في التحقيق لغرض أو هوى ، ومن العبث بالحريات ومن المساس بها ، ما لم يثبت الجرم ضد مرتكبيه بدليل قاطع مقبول والعيب الشكلي في الإجراءات موجب لبطلانها ، والقصاص واجب متى تحققت دواعيه ، ولا توقع عقوبة إلا بعد مشاورة في ضوء الوقائع التي تثبت صحتها من التحقيق الذي يقوم به صاحب المدينة وأعوانه من ذوي اختصاصات رجال الشرطة .

كل هذا دليل على وجود نظام قانوني وقضائي في المجتمع القرطبي في ذلك الحين ، على مستوى رفيع من المبادىء القويمة وأصول العدالة يعتبر

إحدى الدعامات الأساسية في بنيان الدولة ، ويشهد بحسن تنظيم هذا البنيان وتقدمه الحضاري ، على الرغم مما يتميز به القرن الخامس (وهو الذي تستغرق الشرط الأعظم منه الفتنة والحروب الأهلية ثم عصر الطوائف) من فساد الحياة السياسية والإدارية بوجه عام ، فإن سلطة القضاء ظلت بعيدة إلى حد ملموس عن التأثر بهذه العوامل وعن الطابع العام الذي يتميز به هذا العصر من الناحية الخلقية وهو تزعزع القيم وتخلخلها ، وهذا هو ما يستخلص من تلك القضايا التي تعرضنا لها خلال هذه الدراسة ، إذ رأينا أن سلطة القضاء كانت محتفظة باستقلالها وجارية على تقاليد موروثة عن العصر السابق ، لم تكد تمتد إليها يد الفساد كما امتدت إلى كثير من ميادين الحياة العامة في قرطبة خلال هذا القرن .

مستوى المعيشة

لعل أنسبَ تطبيق لدراسة مستوى معيشة الأفراد في قرطبة في القرن الخامس الهجري هو ما ذكره ابن سهل في نوازله في باب الحضانة والنفقة ، إذ يوضح لنا النفقات ومقدار ما ينفق منها ، وبالطبع تلك كانت الحد الأدنى للإنفاق كما حددها أئمة مذهب مالك الفقهاء والمجتهدون .

وليس هذا معناه أن غالبية أفراد المجتمع الأندلسي عامة والقرطبي خاصة ، كانت تلك النفقات هي الحد الأدنى لهم ، ولكن ربما كان العكس صحيحا ، فإن هذا المستوى المعيشي ربما انطبق على أدنى فئة من المجتمع الأندلسي ، وهي فئة العامة ، هذا إلى جانب أنه لم يغب على الفقهاء عند تحديد تلك النفقة يسر الشخص وسعة حاله وكفافه وفقره .

النفقات المنزلية وتشمل السكن والغذاء والكساء .

والزوج هو المسؤول عن تدبير تلك النفقات المنزلية للزوجة ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها ، وترك تحديد ذلك للقاضي طبقا للمستوى

الاجتماعي الذي يعيشه الزوج والزوجة ، فذكر ابن سهل في نوازله « أن النفقة واجبة للزوجة على زوجها إذا بنى بها أو دعى للبناء بها ، شريفة كانت أو وضيعة وغنية أو فقيرة ولا ثمّة حد لها إلا على قدره وقدرها مع اجتهاد السلطان عند نزول الأمر وعلى حال الزمان إذا لم يتفقا في ذلك على شيء » (743)

كان القاضي يحدد للزوجة تفاصيل نفقات الغذاء ، وكانت تشمل القمح والإدام الزيت والخل شهريا ، وذلك لدخول الزيت والخل في الطعام اليومي للأسرة القرطبية ، هذا إلى جانب اللحم الذي كان يفرض أسبوعيا ، أشار ابن سهل إلى ذلك بقوله إنه إذا لم يتفق الزوج والزوجة على مقدار ما ينفق في البيت وطلبت أن يعرض لها عليه ، «فرض لها من المعاش قفيز قمح في الشهر بالكيل القرطبي ، وهو فيها وسط من الوقت وهو بالمد أربعة وأربعونِ مدا ، هكذا قال ابن حبيب في ذلك كله ، ويريد بهذا المد مد النبيء صلى الله عليه وسلم الذي هو رطل وثلث » (744) .

وتعادل تلك الكمية في المشرق كما ذكر ابن حبيب رواية عن ابن القاسم : « يفرض لها في بلدنا ــ يعني مصر ــ ما بين الويبتين إلى الثلاث ، والويبة مقدار نصف قفيز بالقرطبي لأن في الويبة اثنين وعشرين مدا . وسئل مالك عن ذلك فقال : « يفرض لها ببلدنا هذا مد لكل يوم بالمد الشامي ، وهو مد وثلث بمد النبيء صلى الله عليه وسلم » (745) .

كذلك كان لها نصيب من الزيت والخل لدخوله في جميع الأطباق الأندلسية الباردة والساخنة ، هذا إلى جانب استعمال الزيت في الإضاءة . قال ابن حبيب : « ويفرض لها من الإدام الزيت والخل على اجتهاده وعلى حال البلد ، وأرى أن يفرض في بلدنا ربع خل ونصف ربع زيت في الشهر لأنهما الإدامان اللذان يدور عليهما المعاش كله من السخن والبارد مع الاستسراج من

---

(743) ابن سهل ورقة 104 .

(744) المرجع السابق نفس الورقة .

(745) المرجع السابق نفس الورقة .

الزيت » (746) . وأضاف أيضا أنه « لا يفرض لها سمن ولا عسل ولا قطنية ولا صير » (747) ولا جبن ولا غيره ، إلا إذا كان كارهها في ذلك » .

وقد حرص المشر على أن يكون لها نصيب من اللحم ، وقد حدد تلك الكمية وعدد مرات تناولها أسبوعيا .

وقال ابن حبيب : « ويفرض لها اللحم المرة بعد المرة لا في كل ليلة ، والوسط في الجمعة ويوما وليلة ، وأرى أن يفرض اللحم درهما في كل جمعة إذا كان زوجها موسرا » .

ولم يهمل المشرع المصروف الشهري للضروريات الاستهلاكية .
وقال ابن حبيب : « وللصرف في الشهر لنوائبها من ماء وطحن وخبز وعسل وثياب درهمين أو ثلاثة في الشهر » .

كما افتى المشرع بأن الإكساء للزوجة طالما أنها حديثة عهد بالبناء ، إلا إذا كان صداقها يسيرا ، وقال ابن حبيب : « أما الكسوة فتصرف إن كانت حديثة عهد بالبناء وشوْرتها من صداقها عندها ، فليس لها غيرها لا في ملبس ولا مفرش وملحف بل له الاستمتاع بذلك معها ، ولا كلام لها فيها إلّا إذا كان صداقها يسيرا لا يقوم منه ذلك كلّه فعليه أن يكسوها ما لم يبلغه صداقها ، قال ابن سهل : (748) « وإن كان عهد البناء قد طال واختلقت (749) الشورة أو كان صداقها يسيرا كما ذكرنا فعليه لها ما لا غنى عنه لها ، وذلك في الوسط فراش ومرفقة وإزار واحد ولبد تفترشه على فراشها إن كان لا يستغنى عنه لعقارب تُخاف أو حيات أو فأر وبراغيث وإلا فلا سرير عليه ، وعليه من الحصر ما يكون عليه الفراش ، حصير حلفاء أو حصيرتين أو بردة ولباسها قميص فرو

(746) المرجع السابق نفس الورقة .
(747) نوع من السمك المملوح . انظر لسان العرب مادة صير .
(748) المرجع السابق نفس الورقة .
(749) اختلقت أي ... بليت

لشتائها ، من لباس مثلها من خرفان أو من فنليات (750) ، وقميص يواري الفرو ولفافة سابغة (751) لرأسها ومقنعة سابغة فوق اللفافة لتجمع بها رأسها وصدرها ، فإن لم تكن مقنعة (752) فخمار فإن لم يكن خمار فإزار تقذفه على رأسها وتجمع به ثيابها ، وخفين وجوربين يكون الخفان والفرو لسنتين ، ثم يجرد ذلك لها ويكون غيره مما وصفنا لسنة ، ثم يجرد ذلك والحكم مخير إن شاء أخذ هذا كله لها باسمه كما وصفنا وإن شاء أخذه بأثمانها ثم دفع ذلك إليها ، ما كان منه للشهر فمشاهرة وما كان على السنة فسنة سنة ، وما كان لسنتين فكذلك ما فعل منه فهو صواب » .

وأضاف ابن سهل قوله : « رأيت مذهب ابن المواز ألا يكسوها إلا ما يشبه مثلها ، وإن عجز عن ذلك فرق بينهما وليس أن يكسوها ثوب صوف ، وإن لم يجد سعة إذا لم يشبهه مثلها » (753) .

وذكر ابن سهل (754) مثالا عمليا لما طلبه ابن خالد من الفرض له بالنفقة والكسوة والخدم ، وكان على سعة من الحال فحدد مشاور قرطبة هذه النفقة كالآتي :

« وذلك قفيز قمح مطحون ، ومن الزيت نصف ربع للوقيد والإدام ، وحمل حطب ، وصرف سلعة درهم لكل شهر ، وإن اشتريت له خادم فرض لها قفيز مطحون ، ودخلت في هذا الصرف ، ويشتري له ظهاره » (755) وغلالة وسراويل للصيف مما يشبه مثله ، ورداء وكسوة الشتاء فرو ومحشو وزوج

(750) وردت في الأصل قلنيات والصواب ما أثبتناه والمفرد فنلية (Coneio) بالإسبانية ومعناه الأرنب البري .

(751) سابغة : أي واسعة .

(752) في الأصل مضمعة والصواب ما أثبتناه .

(753) المرجع السابق نفس الورقة .

(754) المرجع السابق ص 107 .

(755) الظهارة كساء خارجي يلقى على الثياب .

أقراق (756) وجوارب وخفان بلبودهما مما يصلح لمثله في سعة ماله قاله محمد بن لبابة ومحمد بن وليد وأيوب بن سليمان » .

وكان هناك الكثير من أصحاب البيوتات الأندلسية الميسورة من ملاك أراض أو تجار ، ولعل ما كانت تملكه من أراض وضياع يفسر لنا المستوى المعيشي المرتفع الذي كانت تتمتع به ، والأمثلة على ذلك كثيرة يكفينا منها ما أوردته المصادر من وصف هدية ابن شهيد للخليفة الناصر (757) لتدل على مستوى الأرستقراطية العربية حينذاك .

وفي القرن الخامس لم تعدم قرطبة هذا المستوى الاجتماعي من الثّروة والغنى ، خاصة في عهد بني جهور ، وكان رئيسهم أبو الحزم من أغنى رجالات قرطبة ، وهناك أمثلة كثيرة على هذا المستوى ، فعبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون والد أبي الوليد الوزير كانت له ضيعة بإلبيرة (758) وكذلك الفقيه أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان الغافقي من أهل قرطبة والذي توفي سنة 410 هـ في ضيعته بإلبيرة (759) .

وكان لابن حزم الفقيه ضياع بالسهلة غربي قرطبة (760) ، وكان للقاضي أبو الحسن الجذامي ضيعة بقرطبة (761) .

وممّا يدل على ارتفاع مستوى المعيشة لبعض أصحاب البيوتات الأندلسية ، ما ذكرته المصادر من أن مجلس القاضي عبد الرحمن بن بشر كان عجيب الصنعة

---

(756) في الأصل أمواق ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهي جمع «قرق » وهو الحذاء .

(757) نفح الطيب 334/1 .

(758) توفي سنة 405 هـ أثناء توجهه لتفقد ضيعته . انظر التكملة ترجمة 1279 ، ص 445 ـ 446 .

(759) الصلة ترجمة 55 ص 34 ، 35 .

(760) طوق الحمامة 66 .

(761) النباهي 93 .

حسن الآلة ، ملبس كله بالخضرة : جدرانه وأبوابه وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه ، وكل ذلك متشاكل الصفات ، وبهذا المجلس كان أنسه وخلوته (762) . وذكر ابن حزم أنه كان في داره بستان يتطلع منه على جميع قرطبة (763) ، وكذلك كان أبو عامر محمد بن عامر يحب شراء الجواري اللائي يتعشقهن ثم لا يلبث أن يبيع الجارية (بأبخس) الأثمان ، وأتلف في ذلك عشرات من ألوف الدنانير عددا عظيما (764) .
وفي الفصل الذي كتبناه عن أحكام المعاملات في قرطبة ما يدل على مستوى المعيشة التي كانت تعيشها بعض الطبقات الأندلسية من الغنى ووفرة الأموال لديها .

ولدينا أمثلة على أن بعض خلفاء الفتنة كانوا يعيشون في مستوى معيشي منخفض ، منهم المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، (766) الذي بلغت به الحال قبل تملكه أنه كان يستجدي الفلاحين .

حدد الفقهاء نفقة امرأة كبيرة محجور عليها ، فذكر ابن سهل في نوازله ما تتكلفه هذه المرأة من نفقات في حياتها المعيشية حتى عند غلاء الأسعار ، وأن تلك النفقة تنوعت ما بين مسكن لها الحرية المطلقة في تحديد مكانه ، ومأكل ولباس لها صيفا وشتاء فقال : « في الشهر ربعي دقيق وثمني زيت ونصف حمل متوسط من حطب وثلاثين درهما في صرفه ، وفي غلاء السعر ربعا ونصف ربع من دقيق وثمنا ونصفا من زيت ، وللباسها في العام قميصين وسراويلين وخفا ومقنعا من كتان ، وفي زمن البرد محشوا وفروا لثلاثة أعوام ، ولرقادها ملحفة ومرفقة لثلاثة أعوام وكساء فوقيا وفراشا مملوءًا من صوف لأكثر من هذه المدة على حسب ما

(762) النباهي 88 .
(763) طوق الحمامة 109 .
(764) المرجع السابق 73 .
(765) انظر : ص 194 وما بعدها .
(766) المغرب في حلى المغرب 55/1 .

يرى ، وكان أخوها عبد الرحمن وصيها قد أراد أن يضمها إلى داره لتسكن معه وأبت هي إلا السكنى مع بني أخيها فأفتى الفقهاء أن لها السكنى حيث شاءت » (767) .

من هذا النصف نرى احترام وتقدير الفقهاء للمحجور عليها ، وأن النفقة كانت من السعة بحيث تكفيها من شتى الظروف كما وضح في النص .

وكذلك كانت النفقة على الرضيع كافية جدا للإنفاق عليه ، وشملت جوانب الحياة المعيشية من مأكل وملبس صيفا وشتاء ومسكن .

فصل ذلك ابن سهل في نوازله بقوله : « وفرض غيره بغير قرطبة لرضيع قميصين ومحشوا وبنيقتين (768) وفسقيتين من كتان ولفافتي كتان ولفافتي صوف وشويذكة (769) بصوف في مهد وقطعة نطع (770) للشويذكة ومخدة مملوءة صوفا ونصف ملحفة ولحيف كان محشوا قطنا ، ولنفقته في الشهر ربع ربع دقيق وثمنى زيت طيب للأكل وثمنا واحدا للوقيد وربعا ونصفا من قمح وأجرة الرضاع وأجرة إكراء مسكن لها » (771) .

نفقة الطفل ابن ستة أعوام :

فلعل ما يلفت النظر هنا في هذه الحالة أن متطلبات الحياة المعيشية لم تقتصر على المأكل والملبس المتنوع صيفا وشتاء والمسكن ، بل شمل أيضا نفقات معلم القرآن والحجام والحمام وتفصيل ذلك كما ذكره ابن سهل في نوازله (772) .

(767) ابن سهل 108 .
(768) البنيقة في الأصل لغة هي لبنة القميص وهي رقعة تزاد في الثوب حتى يتسع ، ويبدو أنها هنا رقعة تلحق بثوب الطفل لتحمي صدره من وسخ الطعام .
(769) ربما كان المقصود بالشويذكة رقعة قماش . ربما كانت من أنواع المشمع لتحمي فراش الطفل من البلل .
(770) النطع كساء من الجلد .
(771) ابن سهل 108 .
(772) المرجع السابق 108 — 109 .

« فقصر في بعض وأفرط في بعض قال : « قال في الشهر ربعا وربع من الدقيق الطيب ، ومن الزيت العذب ثمنان ومثله للوقيد ، ومن الحطب الجزل حمل من أربع حزم ، ومن الصوف نصف مثقال يدخل فيه أجرة الفران ومعلم القرآن والحجام والحمام ، وله كراء نوبة من المسكن الذي يسكنه مع أمه ، ويخدمه من يقوم بجميع أموره ويكسى في العام للباسه قميصان من لين الكتان ومحشو كتان رقيق أو ملحم صفيق (773) وزوجا سراويلات من كتان ، وله من الأخفاف الجداد ثلاثة أزواج وفي البرد فرو خرفان وجوارب صوف وكبالة (774) من خز وغفارة يراوية (775) وللرقاد مرفعة كتان ملونة ومخدة كتان بيضاء مملوءتان صوفا وقطنا جديدا وملحفة كتان جديدة لينة ولحاف جديد من كتان محشو بالقطن ، وللبيت الذي يسكن فيه مع غيره حصير حلفاء ومقعد صوف مبطن بجلد ، ووساد صوف لزمن الشتاء ونمرقة جلد لزمن الصيف ، وما يحتاج إليه من أواني الفخار للعجين والاستسقاء والشرب ، وغربال الدقيق وحبل البئر ؛ فهذا ما حضرني في ذلك بعد الاجتهاد والتقصي » .

أما عن الأسعار : فسنقتصر هنا على ذكر أثمان بعض الأشياء استطعنا أن نخرجها من مخطوط ابن سهل ، فعلى سبيل المثال :

* ثمن البغل ستون دينارا سنة 474 هـ (776)/1081 م
* ثمن المنزل داخل قرطبة 288 مثقالا (777)

---

(773) صفيق معناها : سميك .

(774) أغلب الظن أن هذا اللفظ مأخوذ من اللاتينية Capiella وهي تصغير Cappa (بالإسبانية الحديثة Capilla تصغير Capa) وهو يدل — حتى اليوم — على عباءة قصيرة تلقى على الكتفين وتشد حول العنق برباط .

(775) لم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا بتفسير لهذا اللفظ .

(776) ابن سهل 171 .

(777) المرجع السابق 171 — 172 ، المثقال من الذهب يعدل سبعة أثمان الدينار ونصف دينار ، انظر ضوابط دار السكة 88 ، واختلف في نسبة الدرهم إلى نسبة المثقال فقيل مثلا أن 10 مثاقيل = 2/7. 14 درهم ، انظر المرجع السابق ص 47 هامش 3 .

* جنة بحاضرة قرطبة بشرقي مدينتها بربض حوانيت الريحاني بحومة مسجد أسلم ، بيعت بمبلغ 240 مثقالا ذهبا قرمونية في سنة 457 هـ (778)/ 1064 م .

* اشترى شخص أمة سوداء وكان ثمنها 161 مثقالا ذهبيا قرمونيا (779) ، وذلك في القرن الخامس الهجري .
* حدث قحط في إشبيلية في القرن الخامس الهجري في بعض الأعوام فبلغ قفيزهم أحد عشر مثقالا وزيتهم ثمانية مثاقيل للقسط (780) .

ولقد ارتبط مستوى المعيشة للأفراد في قرطبة في القرن الخامس الهجري بالحالة السياسية .

فلقد تعرضت قرطبة لفتنة سياسية أدت إلى اضطراب وكساد اقتصادي خلال الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري (399 ــ 422 هـ) وانعكس ذلك على مستوى معيشة الأفراد ، إذ ترتب على غلاء الأسعار ارتفاع مستوى المعيشة بالنسبة لطبقات المجتمع القرطبي ، خاصة طبقة العامة مع قلة دخل الفرد منهم ، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الهجرة بعيدا عن قرطبة ، وخاصة طبقة الحرفيين التي جذبتها مدن أندلسية أخرى فنشطت فيها الصناعات والحرف (781) .

أما طبقة أصحاب الأراضي والتجار فلم يكونوا أسعد حظا من الحرفيين وأرباب الصناعات السابقة ، فقد عدموا مواردهم المالية نتيجة لعدم الاهتمام بالأراضي الزراعية وكساد التجارة في ظل الأحداث والظروف السياسية .

أما فترة حكم بني جهور لقرطبة ، فهي تمثل استقرارا للأحوال السياسية والاقتصادية ، انعكس أثره على حركة المعاملات ورخاء الأسواق وإحياء لصناعات

(778) المرجع السابق 173 .
(779) ابن سهل 165 .
(780) الصلة 519/2 .
(781) عالجنا ذلك في فصل الصناعة .

ركدت في فترة الفتنة ، واستصلاح للأراضي الزراعية حول المدينة ، وأدى كل ذلك إلى استقرار مستوى المعيشة ، نتيجة ارتفاع دخل الأفراد لدى كل الطبقات القرطبية وانتعاش أحوالهم المعيشية ، واستمر ذلك فترة حكم بني عباد الأولى لقرطبة ، أما فترة خضوع قرطبة لبني ذي النون في طليطلة وما تبعها من قلق سياسي ، فلابدّ أن يكون أثر على الحالة الاقتصادية بسبب عدم استقرار الأحوال ، وانعكس ذلك على مستوى معيشة الأفراد فارتفع مستوى المعيشة ، ولم يقابله ارتفاع في مستوى دخل الأفراد نتيجة لعدم استقرار الأوضاع السياسية .

والفترة التالية من (471 ـ 500) ، وتشمل حكم بني عباد (471 ـ 484 هـ) وما تلاها من فترة حكم المرابطين شملت الجزء الأخير من القرن الخامس الهجري .

ويمكن أن نقول أن هذه الفترة اتسمت باستقرار مستوى المعيشة للأفراد وزيادة دخلهم ، بالرغم من ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية وزيادة المكوس التجارية أثناء فترة الحروب الدائرة بين المسلمين وألفونسو السادس في قرطبة .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في قرطبة

1) عناصر المجتمع القرطبي :

ـــ الأندلسيون .

ـــ البربر .

ـــ الصقالبة .

ـــ أهل الذمة .

2) الحياة العامة في قرطبة .

ـــ الزواج .

ـــ الطلاق .

ـــ مشهد الشارع في قرطبة .

ـــ الأعياد والمواسم والاحتفالات .

ـــ وسائل اللهو والطرب في قرطبة

عناصر المجتمع القرطبي .

ـــ الأندلسيون .

ـــ البربر

ـــ الصقالبة .

ـــ أهل الذمة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

تميز القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي من الناحية الاجتماعية بانحلال العناصر التي كان المجتمع الأندلسي بوجه عام والمجتمع القرطبي بوجه خاص يتكون منها ، والتي استطاعت الخلافه الأموية أن تجعل منها جميعا كتلة واحدة ومجتمعا متماسكا (1) .

وكان هذا التفكك الاجتماعي العنصري نتيجة طبيعية للانحلال السياسي الذي أصيبت به الأندلس بعد سقوط الخلافة ، فانحاز الصقالبة إلى شرق الأندلس ، وبقي الأندلسيون (الزعماء العرب) مسيطرين على جزء كبير من غرب الأندلس ، أما البربر فتجمّعوا في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة .

وسنتعرض في هذا الفصل للعناصر المكونة للمجتمع القرطبي ودورهم في الحياة الاجتماعية ، وهم الأندلسيون والبربر والصقالبة وأهل الذمة .

(1) د. محمود مكي : التشيع في الأندلس ــ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة 1954 مجلد 2 العدد 1 ــ 2 ص 126 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

أ) الأندلسيــون :

يتميز القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بأننا لا نستطيع أن نضع فيه فروقا واضحة بين أصول العناصر العربية والعرب ، المسالمة والمولدين . فقد تم التمازج بين تلك العناصر ، ويجدر بنا أن نطلق عليهم جميعا اسم الأندلسيين ، وذلك لصعوبة التمييز الدقيق بين تلك الأجناس ، وخير دليل على ذلك أن كثيرا من العرب تزوجوا بالأندلسيات ، بل إن كثيرا من خلفاء الأندلس كان يجري في عروقه الدم الأيبيري من جهة الأمهات والجدات ، وظهر هذا واضحا في صفاتهم الجسمية ، فقد ذكر ابن حزم (2) « أن خلفاء بني أمية ولا سيما ولد الناصر كانوا مجبولين على تفضيل البنت الشقراء ، لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم حتى صار ذلك فيهم خلقة ، حاشا سليمان الظافر فإني رأيته أسود اللمة واللحية ، أما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما ، فحدثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنهما كانا أشقرين أشهلين وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضي رحمهم الله ، فإني قد رأيتهم مرارا ودخلت عليهم فرأيتهم شقرا شهلا .

وهكذا أولادهم وأخواتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدري أذلك استحسان مركب في جميعهم أو لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجوروا عليهما .

وإذا كان ذلك ما يفعله طبقة الحكام ، فما بالك بأصحاب البيوتات الأندلسية الأخرى والطبقة الوسطى منها ، فإنها في اعتقادي جرت على هذا النهج . وكان نتيجة لهذا الامتزاج انتشار اللغة « اللطينية » التي كانت من الشيوع بين الأندلسيين حتى صار يُتعجب من الذي لا يجيد الكلام بها ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن حزم (3) عن بني بلى بن عمرو بن الحافي بن قضاعة ، إذ

(2) طوق الحمامة : 28 .
(3) جمهرة أنساب العرب 433 .

قال « ودار بلي بالأندلس الموضع المعروف بأسمهم بشمال قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ولا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم ويقرون الضيف ولا يأكلون إلية الشاة إلى اليوم » . وما أورده ابن حزم من ذلك دليل على ندرة من كانوا يجهلون اللغة اللطينية ، ويعني بها اللاتينية الدارجة .

وهناك كثير من القرطبيين استطعنا أن نعرف أنهم حافظوا على أصولهم العربية حتى القرن الخامس الهجري ، وكانوا يقطنون قرطبة في ذلك الوقت ، غير أنهم قلة إذا قيسوا بسكان قرطبة من الأندلسيين حينئذ .

ومن أولئك الذين حافظوا على أنسابهم العربية كما ذكر ابن حزم : بنو علّ بن عدنان ومنهم غافق بن الشاهد بن علقمة بن علّ ، ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة .(4) وبنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، ومن بقيتهم بنو ربيع بن محمد بن ربيع بن سليمان بن ربيع بن إبراهيم بن سليمان بن متوكل ابن طاهر بن عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ، كانوا بقرطبة وسكناهم بمقبرة بني العباس في الجانب الشرقي (5) .

وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون المدينة عند باب العطارين بقرطبة ، ومنهم بنو هارون (6) وبنو خولان ومنهم المحدث المشهور عمر بن عبد الملك ابن سليمان بن عبد الملك بن موسى بن هانىء بن مسلم بن أبي مسلم الخولاني (7) .

وهناك كثير من القرطبيين تدل أسماؤهم على أصولهم القرطبية أو الايبيرية ، ومن بين تلك الأسماء التي تكررت بكثرة : ابن بشكوال ولب والأفشتين وابن فيره وابن

(4) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب 328 .

(5) المرجع السابق 333 .

(6) المرجع السابق 354 .

(7) المرجع السابق 418 .

فرتون وبنو قرلمان وبنو غرسية ، ومن مظاهر هذا التأثير إضافة مقطع يتألف من « ون» في آخر اللفظ للدلالة على التكبير وهو ليس إلا المقطع الإسباني «on» ، كقولهم حفصون بزيادة واو ونون على حفص وغلبون بزيادة واو ونون على غالب وزرقون بزيادة واو ونون على أزرق وعبدون بزيادة واو ونون على عبد وهكذا (8).

وكان هناك القرطبيون الذين ينتمون إلى الموالي ، ولم نستطيع تتبع هؤلاء سوى ما ذكره ابن بسام منهم مثل آل خالد وبني أبي عبده وبني شهيد وبني بسيل وبني حدير (9) وبني سراج .

لقد كان من نتائج الفتنة البربرية أن هاجر كثير من العلماء القرطبيين إلى أقاليم الأندلس المختلفة وكان لهم أثرهم الثقافي والعلمي في نشر المعرفة والعلوم في الجهات المختلفة التي استوطنوها .

فعكفت العناصر الأندلسية على الحياة العلمية تثريها بتجربتها وتضيف إليها الشيء الكثير .

وبرزوا في ميدان التصوف والزهد والأدب والدراسات اللغوية والأديان والمذاهب والفقه والشورى والقضاء ، وظلت قرطبة مركز إشعاع فقهي وديني لممالك الطوائف المختلفة طوال القرن الخامس الهجري .

ب) البربــــر :

كان البربر من أسبق العناصر التي دخلت الأندلس وتحملوا أكثر أعباء الفتح ، وبالرغم من ثوراتهم في فترات عديدة إلا أنهم اندمجوا اندماجا كليا في المجتمع القرطبي وأصبحوا أندلسيين ، أما موجات البربر الوافدين ابتداء من خلافة الحكم المستنصر فكانوا هم السبب الرئيسي لانحلال الخلافة ، ذلك لأنهم أتوا إلى الأندلس في ظروف خاصة ، وكانت شهوتهم للسلطة السياسية في البلاد هي حافزهم الأول .

(8) لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا 26 .
(9) انظر الذخيرة 91/1/1 .

وقد حفل عهد كل من الخليفة الحكم المستنصر والحاجب المنصور ابن أبي عامر (10) وابنه عبد الملك (11) بوصول أعداد كثيرة من بربر العدوة (12) ، وقد أضافت المصادر في دور فرسان البربر في الحروب التي خاضوها في تلك الفترة ، وكانت سياسة الحكومة الخارجية عام جذب لهذه العناصر البربرية . فكان منهم من زناته « بنو الليث وبنو يفرن وبنو برزال وبنو دمر وبنو خزر منهم محمد بن الخير المغراوي وكان رئيس زنانة كلهم بالأندلس في الفتنة البربرية في حدود الأربعمائة من الهجرة » (12) .

ومن صنهاجة زاوي بن زيري وأبناء أخيه ماكسن وحباسة وحبوس (13) مع عدد عظيم من أبناء عشيرتهم ، قال ابن الخطيب (14) « ورغم أن عدة الفرسان من البرابرة الغرباء في ديوان ابن أبي عامر ثلاثة آلاف ينضاف إليها من رجاله الرقاصة السودان الداخلين في عدادهم ألفا راجل تتمة خمسة آلاف » .

وكان استخدام البربر في الجيش له أثره السيء على العناصر الأندلسية الموجودة فيه ، وقد ذكر أرشيبالدلويس (15) « أن تغير نظام الجيش الأموي باعتماده على البربر والصقالبة انطوى على خطرين عظيمين : أحدهما أن الارستقراطية العربية لم تعد تهتم بشؤون الحرب وركنت إلى استئجار من يتولون الدفاع عنها ، والثاني وهو الأكثر خطورة هو إفلات زمام المرتزقة بعد وفاة المنصور بن أبي عامر ، فانقلبوا على الرعية المدنية مع أنهم نظموا في الأصل من أجل الدفاع عنها ، وهكذا التهمت كلاب الحراسة الخراف التي كانت تحرسها وانتهت إلى الفوضى والانحلال » .

---

(10) أعمال الأعلام 63 .

(11) المرجع السابق 70 ، 87 .

(12) ابن حزم جمهرة أنساب العرب 461 — 467 ، نبذة تاريخية في أخبار البربر ص 79 .

(13) الإحاطة 1/521 .

(14) أعمال الأعلام 102 .

(15) القوى البحرية والتجارية ص 321 .

L. Provencil Hist. de Esp. Musl. Vol. III, p.p. 457 — 504 ff

وقد كانوا يتدخلون في الحياة السياسية معتمدين على قوتهم العسكرية وعلى أعدادهم الكثيرة الموجودة عندئذ في قرطبة ، وكانوا يساندون بعض الخلفاء ضد بعضهم الآخر . وأصبحوا سببا فيما تعرضت له قرطبة من ويلات وفتن استمرت حوالي ربع قرن (399 هـ ـ 422 هـ/ 1008 ـ 1030 م) خلال ما يسمى بالفتنة البربرية وهي الفترة التي خسر فيها الاقتصاد القرطبي كل شيء وهاجر كثير من القرطبيين إلى إشبيلية (16) وبلنسية (17) ونواحي الأندلس المختلفة ، وكتابات ابن حزم وابن حيان وغيرهما شاهدة على ما سببه البربر من مآس ومحن لقرطبة ، وتبدأ مأساة قرطبة في تلك الفترة عندما استولى محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي على الأمير في المدينة وأشاع وفاة هشام المؤيّد « فانصرف عنه الموالي والخواص واضطربت عليه بنو أمية ، وأتخذ جندا من العامة وقرّبهم وآثرهم على العامريين والطوائف البربرية التي أساء إليها (18) » وأهان رؤساء قبائل البربر وزعماءهم فكان حجابه يمنعون دخول البربر عليه إلا بعد نزع سلاحهم ولا يميزون بين أعلاهم وأدناهم (19) حتى « بعثوا منهم حقدا وأكسبوهم غائلة ومقتا ، وأذكروهم سريعا حسن ما كان يعاملهم به الحجاب أهل الدربة في الدول المنصرمة » (20) وحدث الزاوي بن زيري شيخ بني زيري أن حاول مقابلة الخليفة فمنع عند الباب (21) .

وكان البربر يسكنون الرصافة ، فنهبت دورهم ودور كثير لبني زيري هناك .

فكان المهدي يتكلم في مجالسه بسوء على البربر (22) ، وبلغهم الخبر بذلك ، فكان ابن عبد الجبار هو البادىء ببث بذور الشقاق والفتنة وتحريضه

(16) ابن الأبار : الحلة السيراء 36/2 .
(17) ابن عذارى : 160/3 .
(18) المرجع السابق 82/3 .
(19) المرجع السابق 75/3 ، أعمال الأعلام 112 .
(20) ابن عذارى 75/3 .
(21) المرجع السابق نفس الصفحة .
(22) المرجع السابق 78/3 ، أعمال الأعلام 112 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

للبربر على الثورة على النظام ، وبسوء معاملته لقوادهم ، وحاول هشام بن سليمان أن يستفيد من موقف البربر وحقدهم على ابن عبد الجبار لصالحه فجعل « يدس إلى رؤساء البربر ويسعى في خلع المهدي » (23) .

ودفع البربر المقيمون بقرطبة الثمن فقتل منهم أعدادا كثيرة ، وكذلك « النساء اللآئي باعوهن في دار البنات » (24) .

وفر عدد منهم إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن الناصر ، وبدأ الصراع الدموي بينه وبين المهدي ، « وصار إماما للبربر في عقب شوال من سنة تسع المذكورة » (25) . وبايعوه وسموه المستعين بالله ، وحاول البربر وزعيمهم دخول قرطبة فاستعانوا بشانجه بن غرسية (26) ليعاونهم ضد المهدي ورجاله ، وتم لهم ذلك وقتل النصارى من أهل قرطبة نيفا على ثلاثة آلاف رجل (27) ، وإن صح هذا العدد من القتلى فإنه يبين ضراوة القتال بين الطرفين ، ودور البربر في إذكاء هذا الشعور العدائي بين الأطراف المتنازعة ، فالبربر هم الذين ذهبوا مع سليمان بن الحكم إلى النصارى لطلب المعاونة ، وبالطبع كانت هناك شروط بينهما وتنازلات من البربر للنصارى نظير تلك المساعدة .

فلقد وجدالنصارى أن كلا القوتين المتنازعتين حينذاك تخطب ودهم لمساعدتهم على التغلب على القوى الأخرى ، وكانت نتيجة دخول البربر قرطبة قتل الأعداد الهائلة من الناس وغرق كثيرين منهم في الوادي . وهرب ابن عبد الجبار متنكرا إلى طليطلة (28) ، فخرج أهل قرطبة بأسرهم إلى سليمان ، فأحسن لقاءهم وتعجب شانجه بن غرسية من نتيجة المعركة (29) .

---

(23) ابن عذارى 78/3 .

(24) المرجع السابق 51/3 .

(25) ابن عذارى 51/3 وأعمال الأعلام 113 .

(26) وهو زعيم الجلالقة في الشمال وصاحب قشتالة ، انظر ابن عذارى 5/3 .

(27) الذخيرة : 30/1/1 أعمال الأعلام ص 113 ، ابن عذارى 51/3 « ثلاثين ألفا » .

(28) ابن عذارى 93/3 ، أعمال الأعلام 114 .

(29) ابن عذارى 90/3 .

وسكن البربر الزهراء ولكن بالرغم من ذلك ظل الحذر وعدم الاطمئنان سائدا بين القرطبيين والبربر ، «فالقرطبيون إذا وجدوا بربريا منفردا أو في خلوة قتلوه غيلة » (30) وكان البربر يخافون العامة في أسواق قرطبة ، « فإذا صهل فرس على فرس قامت نفرة لتعصب العامة عليهم وبغضهم فيهم ، وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحد منهم يده إلى أندلسي » (31) .

وطلب ابن عبد الجبار المساعدة من النصارى على دخول قرطبة ، وعلم سليمان بهذا الاتفاق فخرج لقتال المهدي والإفرنج وهزم (32) ، وفر إلى شاطبة ولما رأى البربر ذلك رجعوا إلى الزهراء لإخراج أولادهم وأموالهم ، وخرج عامة قرطبة إلى الزهراء فنهبوا وقتلوا من وجوده بها ، ودخل ابن عبد الجبار قرطبة ورجع ملكه لها ، « وكانت نتيجة ذلك أن قتل كل متشبه بالبربر وكل عدوى ، ومن لم ير العدوة إسرافا وتحاملا » (33) .

وحاول ابن عبد الجبار متابعة البربر الفارين ولكنه هزم بوادي آره سنة 400 هـ (34)/ 1009 م ، ورجع المنهزمون إلى قرطبة في اليوم الثاني ورحل الإفرنج عن قرطبة ورفضوا معاونتهم (35) ، وكان لهذا أثره على القرطبيين حتى كان بعضهم يلقى بعضا « فيعزيه كما يعزي من فقد أهله وماله أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول البربر إليهم » (36) .

وأمام هذا الموقف تآمر واضح مع طائفة من العبيد العامريين الذين دخلوا القصر على ابن عبد الجبار وأخرجوا هشام المؤيد ، وقتلوا ابن عبد الجبار وجزوا رأسه وبعثها واضح إلى البربر وذلك في ذي الحجة سنة أربعمائة (37) ، ورجعت

(30) المرجع السابق 92/3 .

(31) المرجع السابق نفس الصفحة .

(32) المرجع السابق 95/3 .

(33) المرجع السابق 97/3 .

(34) المرجع السابق 96/3 وأعمال الأعلام 115 « وادي يارو »

(35) المرجع السابق 99/3 .

(36) المرجع السابق نفس الصفحة .

(37) ابن عذارى 100/3 .

الخلافة إلى هشام المؤيد وقدم لحجابته واضحا الكبير (38) . وبالرغم من ذلك لم يهدأ البربر ولم يتركوا حصار قرطبة وتخريبها ، بل امتد ذلك إلى مدن أندلسية كثيرة فلم تسلم من الدمار والخراب سوى طليلطة ومدينة سالم (39) ، وكان القرطبيون شديدي الحنق على البربر ، فقد ذكر أحد العلماء الصلح مع البربر فقتل مكانه في الجامع (40) ، وحدثت مبادرات لإنهاء هذه الفتنة ولكنها فشلت ، وفي سنة 403 هـ/ 1012 م أوقع البربر الهزيمة بأهل قرطبة وفتحت أبوابها وطلب القرطبيون الأمان من سليمان ورؤساء القبائل البربرية . قال ابن حيان « وانتقل سليمان المستعين إلى مدينة الزهراء . وفي هذه السنة قسم بعض بلاد الأندلس على رؤساء البربر (41)» فأعطى صنهاجة إلبيرة وأعطى مغراوة الجوف وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتهما وأعطى بني دمر وأزداجه وشذونة ومورور وغير ذلك من الحصون والقاسم بن حمود طنجة وأصيلا (42) ، وأما علي بن حمود فولاه سبتة (43) ، واستفاد علي بن حمود من الأحداث ، وكان يرى في الفتيان العامريّين خصوم المستعين حلفاءه الطبيعيين ، وكاتب كبيرهم صاحب المرية وأظهر كتابا زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد حين رأى اضطراب أمره وأرسل يقول له « أنقذني في أمر البرابر والمستعين وأنت ولي عهدي » (44) . وقد راح علي بهذا يكسب دعواه مظهرا من الشرعية والحق (45) ، وبهذا الكتاب مدحه الشعراء المتشيعون وسموه « عهد هشامي » (46) .

---

(38) المرجع السابق 101/3 .

(39) المرجع السابق 104/3 .

(40) ابن عذارى 103/3 .

(41) حسبما نقله ابن عذارى 113/3 .

(42) ابن عذارى 114/3 ، أعمال الأعلام ص 119 : « أصيلا الخضراء » .

(43) ابن عذارى 113/3 ، 114 ، أعمال الأعلام 119 .

(44) ابن عذارى 116/3 ، بغية الملتمس 22 ، صبح الأعشى 247/5 ، نزهة الأنظار 165 .

(45) د.محمود مكي : التشيع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية . مجلد 2 العدد 1 ـــ 2 ص 134 .

(46) الذخيرة 10/2/1 ، التشيع في الأندلس 134 .

وذاعت دعوة علي بن حمود ولباها بنو زيري وبعض حكام الثغور الجنوبية (47) ، أما الأسباب التي جعلت البربر يتجهون إلى علي بن حمود تاركين زعيمهم المستعين ، فإن علي بن حمود كان ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب (48) ، وبالرغم من هذا النسب العربي فإنهم ينتمون في الواقع — من حيث النشأة والعصبية والمصير — إلى البربر ، وينقل ابن بسام عن ابن قتيبة في ذكر العلويين « أنهم انتهوا إلى طرف بلاد البربر فنكحوا إليهم وتبربروا معهم » (49) ، وكان الطابع البربري غالبا عليهم حتى إنهم لم يكونوا يتكلمون العربية بل اللهجة البربرية . وبويع علي بن حمود بالخلافة في قرطبة سنة 407 هـ/ 1016 م (50) . وعندئذ قهر البربر (51) .

فكان يقتل من تثبت إدانته لأول وهلة ، « وضرب عنق أحد البرابرة على حمل عنب قال أخذته كما يأخذ الناس فأمر به فقتل وطيف برأسه بسائر البلد » (52) . من ذلك نرى أن علي بن حمود رغم علاقته بالبربر والاستعانة بهم ضد المستعين ، كبح جماحهم لتستقر له الأمور وليكسب عطف أهل قرطبة إلى حين ، وولي الخلافة بعده أخوه القاسم ابن حمود 409 هـ/ 1018 م ، وعمل البربر على الوقيعة بين القاسم بن حمود وبين ابن أخيه يحيى بن علي ، ففر الأول من قرطبة سنة 412 هـ/ 1021 م وخلع يحيى بن علي 413 هـ/ 1022 م ، وفي سنة 414 هـ/1023 م تسلط البربر على أهل قرطبة في الأسواق لكنهم هزموا فخرجوا منها مع القاسم إلى إشبيلية .

---

(47) ابن عذارى 116/3 ،، بغية الملتمس 22 ، صبح الأعشى 257/5 .

(48) جمهرة أنساب العرب 49 — 52 ، الذخيرة 78/1/1 ، ابن عذارى 119/3 .

(49) الذخيرة 78/1/1 ، التشيع في الأندلس 127 .

(50) الذخيرة 79/1/1 ، ابن عذارى 120/3 .

(51) ابن عذارى 121/3 ، أعمال الأعلام 129 .

(52) ابن عذارى 121/3 .

أما في خلافة عبد الرحمن المستظهر بالله سنة 414 هـ/ 1023 م فقد كان سبب قتله إكرامه وفدا من البربر قدم عليه (53) .

وعين القاسم مرة أخرى خليفة في قرطبة ، وفي خلافة يحيى بن علي المعتلي بالله الثانية 417 هـ/1026 م خرج يحيى إلى مالقة وترك بها وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى ، « وقيل إن القرطبيين قتلوا يومئذ من البربر ألف رجل » (54) وفي خلافة هشام بن محمد المعتد ، كان وزيره حكم بن سعيد القزاز يأخذ أموال التجار فيتكرم بها على البربر ويجزل لهم العطاء ، فبغضه أهل قرطبة (55) .

ولقد نجح الرئيس أبو الحزم جهور في سياسته الداخلية والخارجية حيال البربر ، فذكر ابن الخطيب « أنه دافع بحسن تدبيره البرابرة وأحسن الجوار والمعاملة » (56) .

وكذلك فعل ابنه أبو الوليد من بعده ، واقتفى آثار أبيه في السياسة (57) ، وأصبحت قرطبة في عهد الجهاورة بالنسبة للبربر بلدا يزورها ملوك البربر وهم في أمان واطمئنان ، فلقد زارها باديس بن حبوس وغيره من ملوك وزعماء البربر الذين خلعهم بنو عباد من ممالكهم ، فكانت قرطبة في عهد بني جهور مأوى وملجأ للملوك المخلوعين من البربر وأجرى عليهم الأرزاق . بل أتى بعضهم بأمواله وكان سببا في انتعاش السوق ورواج الحالة الاقتصادية حينما ظفروا بالأمن والطمأنينة .

(53) انظر تفصيل ذلك في ابن عذارى 138/3 — 139 ، أعمال الأعلام 135 .
(54) ابن عذارى 143/3 ، أعمال الأعلام 137 .
(55) ابن عذارى 146/3 .
(56) أعمال الأعلام 148 .
(57) المرجع السابق نفس الصفحة .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

لقد توالت الأحداث سريعا في شبه الجزيرة الأندلسية ، وأمام المد النصراني الزاحف على الممالك الإسلامية من الشمال سقطت طليطلة في يد ألفونسو سنة 478 هـ/ 1085 م (58) .

وكان لقرطبة دورها في استدعاء بربر صنهاجة المرابطين إلى الأندلس ، فبالرغم من أنها من أملاك ابن عباد وأنه أرسل وزيره ابن زيدون وأسند إليه ما لا بدّ منه من إبرام العقود السلطانية (59) ، إلا أنه كان ضمن هذا الوفد قاضي الجماعة أبو بكر بن أدهم ، وحرص ابن عباد على أن يكون ابن أدهم ضمن الوفد ، حتى يعطي ليوسف بن تاشفين صورة حقيقية ، وأن هذا النداء ليس على المستوى الرسمي للدولة فقط ولكن أيضا على المستوى الشعبي ، واقتفى أثره ملوك الطوائف في إرسال وفودهم فكان قاضي بطليوس وقاضي غرناطة ضمن هذه الوفود .

وكانت وجهة نظر الجانب الأندلسي هي أن يستعينوا بالمرابطين للوقوف في وجه ألفونسو وأطماعه (60) ، وجال في خاطر بعض كبراء الأندلس حينئذ الاستعانة بعرب إفريقية ، ولكن كان لقاضي الجماعة بقرطبة أبو بكر بن أدهم رأي في هذا الأمر ، فقال لهم « نخشى أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية أو يتركوا الإفرنج ويبدؤوا بنا ، والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا » (61) .

ولقد بينت لنا المصادر تخوف مستشاري ابن عباد من الاستنجاد بالمرابطين ، وأنه أولى به مداراة ألفونسو ، وقد يكون هذا التخوف راجعا إلى طبيعة الرواسب القديمة بين البربر والأندلسيين من جهة ، وهذا إلى جانب سلسلة الصراعات التي

---

(58) انظر تفاصيل تلك الأحداث : ابن غالب 288 ، ابن خلدون 186/6 ، الكامل 142/10 ابن الكودبوس 85 ، الحلل الموشية 22 ، نفح الطيب 352/4 ــ 356 وفيات الأعيان 67/5 ، أشباخ 60 ، عبد الله عنان : ملوك الطوائف 375 ــ 380 .

(59) الاستقصا 36 .

(60) التبيان 103 الحلل الموشية 27 ، وفيات الأعيان 116/7 ، نزهة الأنظار 170 ، نفح الطيب 359/4 ، الاستقصا/ 231 أشباخ 73 ، دوزي : ملوك الطوائف 281 ، عنان : ملوك الطوائف 317 .

(61) الكامل 151/10 ــ 152 ، نفح الطيب 360/4 ، الاستقصا/ 37 .

كانت بين المعتمد حاكم قرطبة وإشبيلية وزعيم الحزب العربي وبين بربر الأندلس بزعامة بني زيري .

وكان رد يوسف بن تاشفين على خطاب المعتمد بن عباد « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر إلا أنا بنفسي » (62) .

ويرى بروفنسال أن المرابطين حين تدخلوا في أمور الأندلس كانوا محقين حين استرابوا بأمراء عاجزين أو قانعين (63) .

ولقد وجد يوسف بن تاشفين في حركة الجهاد (64) هذه بلسما يشفي جراح المغرب ويوحد بين قبائله كلها تحت لوائه ويقر الأمن والسكينة في ربوعه (65) .

وأمام المد النصراني ومصالحة ملوك الطوائف لألفونسو وشكايات الرعية من جورهم ، وفتاوي الفقهاء وأهل الشوري من العرب والأندلس بخلع ملوك الطوائف (66) ، جاز يوسف إلى الأندلس سنة 483 هـ/ 1090 م الجواز الثالث متظاهرا بأنه يغتنم محاربة النصارى بكل ما وسع (67) ، ولم يشترك معهم في معركة حاسمة ، إنما كان يهدف إلى إرهاب العدو ملوك الطوائف على السواء ،(68) ذلك ليأمن الحلف الذي قد ينشأ بينهما .

---

(62) المعجب 191 .

(63) أدب الأندلس وتاريخها 16 .

(64) عن الجواز الأول ومعركة الزلاقة والجواز الثاني انظر : الروض المعطار 83 ، 94 ، بغية الملتمس 31 ، أعمال الأعلام 246 ، الاستقصا 40/2ــ43 ، ابن الكردبوس 93 ، 95 المعجب 193 ــ 195 أشباخ 82 ، التبيان 105 ــ 106 ، وفيات الأعيان 29/5 ، الكامل 151/10/ ــ 155 . وعن دور ابن عباد في الحرب انظر الروض القرطاس 65/2 ، الاستقصا 42/2 . وعن الجواز الثاني انظر الروض القرطاس 66/2 ، ابن خلدون 186/6 . المغرب العربي 249 ، أشباخ 90 .

(65) د. حسن أحمد محمود . قيام دولة المرابطين 269 .

(66) المغرب العربي 25 ، ابن خلدون 186/6 .

(67) أشباخ 93 .

(68) قيام دولة المرابطين 303 .

لذلك رأى إسقاط كل مملكة على حدة ، ومن قرطبة كاتب يوسف عبد الله بن بلقين أمير غرناطة بالذهاب إليه ، وكاتب أقاليم غرناطة ومعاقلها للثورة عليه (69) ، وأخيرا ذهب إليه بقواته وأعطاه الأمان في النفس والأهل دون المال (70) ، وكتب عبد الله بيده عقد تسليم غرناطة والمنكب (71) ، وكانت غرناطة أول المدن التي استولى عليها يوسف بالأندلس (72) . وكان خلع عبد الله في رجب 483 هـ (73)/ 1090 م وكذلك عزل تميم صاحب مالقة ، وتقابل الأخوان في مكناسة (74) . وفي العام التالي 484 هـ/1091 م تم عزل المعتمد في رجب 484 هـ (75) وحمل إلى أغمات بالمغرب ، وكان سير بن أبي بكر هو الذي حاصرها وقبض على المعتمد وتقلد إمارتها بعده (76) .

وأرسل يوسف جيشا آخر إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج ، ودخلها عنوة وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون في تلك المعركة (77) .

لقد كانت نظرة القرطبيين والاندلسيين إلى المرابطين نظرة احترام وتبجيل ، فبفضل المرابطين هزم ألفونسو السادس في الزلاقة ومن قبل كان لا يجرؤ أحد من ملوك الطوائف على التصدي له ، واعتبر الأندلسيون المرابطين مخلصيهم من ظلم

---

(69) التبيان 147 — 148 .

(70) التبيان 149 — 154 .

(71) التبيان 159 .

(72) الكامل 155/10 ، أبو الفدا 198/1 .

(73) أعمال الأعلام 235 ، الإحاطة 146/1 ، نفح الطيب 94/4 .
ابن الكردبوس هامش ص 104 ، أبو الفدا 198/1 « 499 هـ » ، صاحب تاريخ القيروان يذكر 480 هـ .

(74) التبيان 263 .

(75) الحلة السيراء 55/2 .

(76) الحلة السيراء 102/2 .

(77) الحلة السيراء 62/2 .

ملوك الطوائف وكثرة ضرائبهم وقسوة عمالهم ، ولم يبد الأندلسيون تحمسا أو دفاعا عن ملوك الطوائف عندما قرر يوسف بن تاشفين عزلهم . وأظهر الأندلسيون إعظامهم ليوسف بن تاشفين ، ونشأ الود في الصدور (78) ، بل إن قلوب أهل الأندلس قد أشربت حب يوسف وأصحابه (79) . وقد استغل بعض الأندلسيين لبس اللثام تشبها بالمرابطين لإنجاز بعض الأعمال التي تعود عليهم بالنفع ، مما دعا ابن عبدون أن ينهي عن لبسه قائلا (80) : « يجب أن لا يلثم إلا صنهاجي أو لمتوني أو لمطي ، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام وهما ، ويكلم في ذلك مع السلطان فإنهم عتاة ويمتاز بذلك من عسى أن يكرم أو يوقر أو تقضى له حاجة من المرابطين ، لأن العبيد أو الحشم إذا تلثم وغير شكله حسبته رجلا مثيلا ، فتجري إلى بره وإكرامه وهو لا يتأهل لذلك » ولعل ذلك كان راجعا إلى مكانتهم الاجتماعية التي تمتعوا بها في الفترة الأخيرة من القرن الخامس الهجري ، وحرص ابن عبدون على استتباب الأمن والنظام في الشوارع والأسواق ، خاصة ووفود المرابطين تزداد نزوحا إلى الأندلس ، لذلك رأى أن لا يمشي أحد في المدينة بسلاح ، « فإن ذلك داعية إلى الفساد لا سيما البربر فإنهم قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا » . ويرى ابن عبدون كذلك في لثام عبيد المرابطين وحشمهم وأتباعهم بأنه يكون مغايرا ومختلفا عن لثام سادتهم فقال « عبيد المرابطين إن تلثموا فتكون علامة يعرفون بها مثل أن يتلثموا بخمار أو بمئزر وشبه ذلك ، وكذلك الحشم والأتباع يكون شكلهم غير شكل المرابطين ، وهذا أحسن إن قدر عليه وفيه منافع كثيرة يجب أن يجعل مكان السلاح التي يحبسونها إما أسواط لدوابهم وإما أقزال وهو الرمح الصغير (81) .

(78) المعجب في تلخيص أخبار المغرب 166 .

(79) المرجع السابق 200 .

(80) ابن عبدون 28 .

(81) المرجع السابق 28 .

لقد كانت نظرة المرابطين إلى القرطبيين خاصة والأندلسيين عامة مختلفة تماما عن نظرة برابرة الفتنة الذين كانوا محدودي النظرة ، وكل مشاغلهم المحافظة على السلطة والجاه والاستقرار بقرطبة مهما كانت الوسيلة ، حتى رأيناهم مشاركين مشاركة فعالة في عمليات القتل والسلب والنهب والتخريب في الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري ، ثم رأينا كيف أن سياستهم في الممالك التي خرجوا بها كانت لها نفس النظرة المحدودة وكان لذلك أثره على القوى النصرانية في الشمال فقد استطاعت أن تنهض وتقوى .

وبدأت عملية الاسترداد في الوقت الذي ضعفت فيه القوى الإسلامية باستهلاكهم بعضهم البعض من جهة ، ومحاربة ألفونسو لهم من جهة أخرى وأخذ الجزية منهم من جهة أخرى ، لذلك كان عبور المرابطين إلى الأندلس هو مرحلة طبيعية لتلك الفترة ، ونحن بذلك نقرّر أن المرابطين كانوا يعيشون عصرهم ويقدرون مقدار الخطر الذي يتعرض له المسلمون في الأندلس . ولقد فطن لذلك بعض ملوك الطوائف في النهاية ، بعد الدور الكبير الذي لعبه الفقهاء في التّنبيه إلى خطر نصارى الشمال .

ج) الصقاليـة :

يسمي متز (82) Mez الصقالبة والترك من العبيد البيض « أرستقراطية العبيد » .

وكان العبيد الصقالية يقدمون على الترك ، حتى قال الخوارزمي « ويستخدم الترك عند غيبة الصقلبي (83) » .

(82) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة الطبعة الثالثة 957 القاهرة 280/1 .

(83) المرجع السابق 282/1 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وكانت شرق أوربا (84) هي أماكن جلبهم ، ومنها ينقلون إلى بلغاريا حيث تتجه قوافل الرقيق غربا ثم تخترق ألمانيا وفرنسا إلى الأندلس .

وكان أغلب تجار الرقيق في أوربا من اليهود ، وأدى ذلك إلى استقرار الجاليات اليهودية في مدن مقاطعة سكسونيا مثل مدينة مجديبورج ومزيبورج (85)

وظل اليهود يتبعون أواخر القرن التاسع طرقا برية تصل وادي الرون وإقليم لنجدوك بالحدود الأندلسية (86) .

فكانوا في أثناء نقلهم الرقيق يدفعون ضرائب باهظة ، وذلك في ألمانيا على الأقل ، فكان قانون الجمارك في مدينة كوبلنتز يقضي بأن يدفع عن كل رأس من الرقيق أربعة دنانير ، وكان أسقف مدينة (Chur) يفرض على الرأس دينارين يدفعان في جمرك فالشتات (87) Wallestadt

وكان بعض اليهود يسرقون أبناء النصارى أنفسهم ويبيعونهم للمسلمين في إسبانيا (88) .

ويذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار الأندلس في القرن الرابع الهجري أن هؤلاء الصقالبة عند قربهم من الأندلس يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود (89) ، وكانت تلك حرفتهم الرابحة وصار لهم في فردان باللورين مراكز مهمة للخصاء (90) Monufactures d'eunuques

(84) المرجع السابق 283/1 ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة 1960 ص 57 .

(85) الحضارة الإسلامية 283/1 .

(86) القوى البحرية والتجارية 274 .

(87) الحضارة الإسلامية 283/1 .

(88) المرجع السابق نفس الصفحة .

(89) ابن حوقل : صورة الأرض 106 .

(90) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 274 ، أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، مدريد 1953 ص 9 .

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا من الجنسين إلى الأندلس ، حيث تطور الأمر إلى استخدامهم في الحرس والحاشية والجيش ، فأخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ حين وفاة عبد الرحمن الناصر 3750 من الفتيان وعدد النساء ستة آلاف وسبعمائة وخمسين (91) ، ويجرى على الجميع اللحم والخبز والطير والحيتان وغير ذلك (92) .

وهكذا ألف الصقالبة عنصرا من عناصر المجتمع القرطبي المهمة خلال القرن الرابع الهجري . وقد استطاع بعضهم أن يكون ثروات طائلة ويمتلك العبيد والأراضي الشاسعة ، ونرى الكثير منهم قد وصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة مثل دري صاحب الشرطة وأفلح صاحب الخيل (310 هـ — 316 هـ/ 922 — 928 م) وقند الذي حكم طليطلة سنة 336 هـ/ 947 م وطرفة صاحب المطبخ ، وخلف الفتى الكبير الذي عين صاحبا للطراز سنة 313 هـ / 925 م .

وكان فتح الحجام الخصي مولى الناصر ومزينه (93) ، وقد غضب عليه الحكم المستنصر فسجنه ثم أفرج عنه .

ومن فتيان القصر الخليفي مرتاح وسكر ومعقل (94) وميسور الفتى الكبير (95) والصقلبي الجعفري (96) وأفلح الوكيل (97) وذكاء الوصيف

(91) أعمال الأعلام 40 — 41 ، العبادي : المرجع السابق 11 اختلف في تقدير هذا الرقم نفح الطيب 102/2 ، 103 .
(92) أعمال الأعلام 41 .
(93) ابن حيان : المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي ص 73 .
(94) المقتبس 185 .
(95) المرجع السابق 104 ، ابن عذارى 249/2 .
(96) المقتبس 117 .
(97) المرجع السابق 189 .

الخصي الذي عينه الخليفة الحكم المستنصر ناضرا للأمير أبي الوليد هشام متكفلا بأموره (99) وكذلك شاطر الجعفري صاحب خيل الأمير هشام (99) .

وبالرغم من إخلاصهم للعامريين إلا أنهم شاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وبسائر البلاد ، فأحيانا نراهم منتصرين وأحيانا منهزمين إلا أننا نراهم يظهرون دائما روح الإقدام والطموح والاستبداد (100) .

فرأينا نظيفا الخادم ونصرا المظفري فيمن معهم من الغلمان يدافعون عن الزاهرة أمام أنصار البربر محمد بن عبد الجبار والعامة فيردونهم عنها (101) .

وفي سنة 399 هـ/ 1008 م أيضا في الحروب الدائرة بين البربر وابن عبد الجبار وصل البربر إلى مدينة واضح وسألوه التدخل لإنهاء الفتنة والصلح مع ابن عبد الجبار ، ولكنه لم يوافق على ذلك صراحة (102) .

وكان عند المهدي بليق غلام واضح فاتخذ له المهدي جيشا وسار به واضح ، ونادى منادي واضح في سائر الثغور من حمل شيئا من الطعام إلى محلة البربر فقد حل ماله ودمه (103) .

ورأينا كذلك رسل واضح وابن عبد الجبار إلى ابن مامة زعيم النصارى ليحارب معهما ضد البربر (104) .

وذكر ابن حيان أنه بعد وفاة فاتن الحكمي نصب المهدي مكانه جؤذرا الحكمي للقيام بأمر القصر ، « ولم يكن بالبعيد منه في رفعة خلاله وثقته وأمانته

(98) المرجع السابق 77 .
(99) المرجع السابق 142 .
(100) الصقالبة في اسبانيا 17 .
(101) ابن عذارى 58/3 .
(102) ابن عذارى 85/3 .
(103) المرجع السابق 86/3 .
(104) المرجع السابق نفس الصفحة .

وفهمه ومعرفته لجميع أهل الدولة أنه لم يقم على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلب كهذين الخادمين فاتن وجوذر سعة معرفة وحسن خدمة ولطف إشارة مع رحب صدر وشدة احتيال خلاف ما عليه العصابة » (105) .

وفي سنة 400 هـ/ 1009 م وصل إلى قرطبة جملة من العبيد العامرية من شاطبة وغيرها ، وفيهم عنبر وخيران ، وكانوا يعملون في السر على الإيقاع بالمهدي (106) . وفي ذلك العام أيضا كانت الواقعة بين البربر وواضح ، وملك البربر جميع ما كان في عسكر واضح من مال وسلاح (107) .

وفي جولة أخرى كان المهدي قد دفع إلى واضح خمسين ألف دينار ليوزعها على جند مدينة سالم ، وانهزم واضح وبقي المال في داره فنزلها زاوي بن زيرى فاحتوى على ما في الدار (108) .

ورأى واضح وابن عبد الجبار في قتالهما للبربر أن يعاقدا الإفرنج على شروط منها تسليم مدينة سالم لهم ، فدخلوها وضربوا في مسجدها الناقوس وحولوا قبلته ، ثم شرطوا على واضح أن يلزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم إلى جانب الشراب واللحم وللقومس في كل يوم مائة دينار (109) .

وقد رأى الصقالبة في النهاية أنه لا سبيل لهم إلى القضاء على الفتنة إلا بالتخلص من ابن عبد الجبار وقتله وذلك في ذلك الحجة من سنة 400 هـ/ 1009 م ، وتآمرت طائفة من العبيد العامريين مع واضح الذي كان حاجبا للمهدي فقتلوا المهدي وبعث واضح برأسه إلى البربر (110) .

---

(105) التكملة ترجمة 17 ص 10 — 11 .

(106) ابن عذارى 3/96 — 97 .

(107) المرجع السابق 3/87 .

(108) ابن عذارى 3/91 .

(109) المرجع السابق 3/94 .

(110) ابن عذارى 3/100 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وكان يظن أن هذا الأمر يقضي على الفتنة ويرضي البربر .

وبعد مقتل المهدي رجعت الخلافة إلى هشام المؤيد ، فاستحجب واضحا الذي حاول بطريقة أخرى إنهاء الفتنة وذلك عن طريق مبادرات الوساطة ، فأرسل ابن بكر رسولا إلى سليمان المستعين لإنهاء هذه الفتنة ، ولما علم الجند القرطبيون بذلك قتلوا هذا الرسول ولم يستطع كل من واضح وهشام المؤيد إنقاذه (111) .

ثم بعد ذلك رأى واضح الهرب من قرطبة أمام تلك الأمور المعقدة التي لا حل لها ، وعلم الجند بذلك فزحف إليه ابن وداعه وقتله (112) .

وفي سنة 401 هـ/ 1010 م حاول ابن مناو العامري وزير هشام المؤيد الذي لقب بذي الوزارتين (113) الصلح مع البربر ، ولكن الفقهاء عارضوه . وفي سنة 402 هـ/ 1011 م ومع ازدياد أحوال قرطبة سوءا واشتداد الحرب البربرية رأى ابن مناو أن طريق سلامته في الهرب من قرطبة إل بطليوس بعد أن أخذ معه كل متاع رفيع (114) ، وذلك لخوفه أن تكون نهايته مثل نهاية صديقه واضح .

وذكر ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة في أحداث سنة 403 هـ/ 1012 م أنه لما استولى البربر مع سليمان على قرطبة خاف العبيد العامريون على أنفسهم فهربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرهم .

ولكن بالرغم من ذلك رأينا أسماء الصّقالبة ضربت على العملة أثناء سنوات حكمه ، مثل حبيب بين سنتي 403 و404 هـ/ 1012 ـ 1013 م ومدرك بين سنتي 404 هـ و405/ 1013 ـ 1014 م ، ولابدّ أن يكون هؤلاء وأمثالهم أصحاب دار السكة في قرطبة (115) .

---

(111) المرجع السابق 105/3 .

(112) المرجع السابق 105/3 .

(113) ابن عذارى 107/3 .

(114) المرجع السابق 109/3 .

(115) Antonio Prieto Vives. op. cit. p. 106

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وفي سنة 405 هـ/ 1014 م قصد عبد الله ويعرف بالمعيطي مجاهدا العامري صاحب دانية فبايعه مجاهد أميرا للمؤمنين (116) .

وفي سنة 407 هـ/ 1016 م دخل علي بن حمود قرطبة وكان معه خيران العامري الذي كان طامعا أن يجد مولاه هشاما المؤيد حيا ، فلما لم يجده أظهر خلافه فأراد قتله ففر إلى شرق الأندلس (117) .

ورأينا كيف كان للصقالبة دور في قتل الخليفة علي بن حمود 408 هـ/ فقد قتله ثلاثة صبيان أغمار منهم منجع وصاحباه (118) .

وفي سنة 409 هـ/ 1018 م رحل المرتضي من شرق الأندلس ومن معه من الموالي العامريين فنصبوه خليفة ، وتوجهوا إلى حيث كان القاسم بن حمود يومئذ فخرجوا على غرناطة ليبدؤوا بحرب ذلك الفريق من صنهاجة ، فكانت بين رأوى والمرتضي مراسلات (119) . وكانت الهزيمة في عسكر المرتضي (120 .

وفي سنة 417 هـ/ 1026 م خرج يحيى بن علي المعتلي من قرطبة إلى مالقة فأتى الموفق مجاهد وخيران العامريان فدخلوا قرطبة (121) .

وعندما تولى هشام المعتد الخلافة دخل قرطبة سنة 420 هـ/ 1029 م . وجاء معه بعض العبيد العامريين ولكن لم يكن لهم دور في شيء .

لقد استطاع عدد كبير من الصقالبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبي ، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة .

---

(116) الذخيرة 28/1/1 ، ابن عذارى 116/3 .

(117) ابن عذارى 121/3 ــ 122 ، الكامل 271/9 .

(118) ابن عذارى 122/3 .

(119) المرجع السابق 125/3 ــ 126 .

(120) المرجع السابق 127/3 ــ 128 .

(121) المرجع السابق 143/3 ــ 144 .

فكان تليد الخصي مشرفا على خزانة الكتب للخليفة المستنصر ، وهذا دليل على تمكن بعضهم من الأدب والعلوم ، الأمر الذي جعل الخليفة المستنصر وهو عالم بالتواريخ يعهد إليه بتلك المهمة .

ووصف ابن بسام أحد صقالبة المنصور بن أبي عامر وصفا طريفا بقوله : « وكان لابن أبي عامر فتى بسيسي فاتنا ، أوحد لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب ، فناظر صاعدا بين يديه وأعجب به المنصور حينما أسكت صاعدا ، وكان فاتن حسن الخط واسع المعرفة فصيح اللسان حاضر الجواب إلى عفاف طُعمه ونزاهة نفس وجمال صورة وتوفي سنة 402 هـ/ 1011 م ، ولم يتخذ النساء ولا كشفن له عورة » (122) .

ويضيف ابن بسام أنه كان في ذلك الزمان (بقرطبة في القرن الخامس) جملة من الفتيان المجابيب ممن أخذ من الأدب بأوفر نصيب (123) .

ورأى ابن بسام تأليفا لرجل منهم يدعى بحبيب الصقلبي (124) وهو من فتيان الدولة الأموية بقرطبة وكان من أهل الأدب والاتصاف بالفهم والتيقظ . وكان له كتاب تعصب فيه لقومه سماه « الاستظهار والمغالبة » على من أنكر فضائل الصقالبة » وذكر فيه جملة من أشعارهم ونوادر أخبارهم ، منهم عمارة الصقلبي الفتى الكبير ، والصقلي ميسور ونجم الوصيف (125) ، وذكر أنه اطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوي على جملة من أشعار الصقالبة ونوادر أخبارهم ، ويلاحظ أن ابن بسام قد اعتذر عن ذكره بقوله « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا » (126) ورد الدكتور مختار العبادي تجاهله لهذه الأشعار إلى أمرين (127) : إما أن أشعار الصقالبة كانت من النوع الشعبي على شاكلة

(122) الذخيرة 22/1/4 .
(123) المرجع السابق نفس الصفحة ، نفح الطيب 81/4 .
(124) التكملة ترجمة 89 .
(125) الذخيرة 22/1/4 .
(126) المرجع السابق نفس الصفحة .
(127) الصقالبة في إسبانيا : 15 — 17 .

الموشحات ، وإما أنها كانت أشعارا تقليدية من نوع الفخر على العنصر العربي بحكم كون مؤلفيها ليسوا بعرب ، وهذا مما دعا ابن بسام إلى تجاهل شعرهم ، ويضيف الدكتور العبادي أن الرأي الثاني هو الأرجح لسببين :

السبب الأول : تعصب ابن بسام للمذهب العربي التقليدي ، الذي كان يمثله الشاعر أبو عامر بن شهيد والمؤرخ ابن حيان والفقيه ابن حزم .

والسبب الثاني : هو عنوان كتاب حبيب الصقلبي نفسه ، الذي يظهر لنا بوضوح نزعة المؤلف في إظهار فضل الصقالبة على الأدب والشعر العربي وتفوقهم على العنصر العربي في هذا المضمار ، وهذا مما دفع المستشرق الألماني جولد زيهر إلى اعتبار هذا الكتاب البداية الأدبية الأولى نحو الشعبية في اسبانيا . وكان جؤذر الحكمي الخادم بقصر الخلافة بقرطبة يتحقق بعلم العربية والتدقيق لمعانيها (128) .

وكان أفلح مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر من العلماء ، (129) وكذلك درى الصقلبي مولى الخليفة الناصر ، الذي كانت له رحلة إلى المشرق ، فسمع بمكة من ابن الأعرابي وغيره وحدث وكتب عنه (130) وذكر ابن الفرضي تراجم الكثير من الصقالبة الذين كان لهم حظ من العلم والأدب ، ونذكر منهم بدر مولى ريوان الصقلبي الصيدلاني (131) المتوفي سنة 390 هـ/ 999 م ، وبدر مولى ابن شهيد الصقلبي (132) ، وكذلك بدر مولى أحمد بن قطن الزيات (133) وتوفي سنة 394 هـ/ 1003 م .

واستعان كثير من الصقالبة بالكتاب الأندلسيين ، فقد كان الفقيه زكريا بن عبد الله (134) وهو من أهل قرطبة كاتبا للحاجب جعفر الصقلبي وكان من قبل

---

(128) التكملة ترجمة 17 ص 10 .
(129) ابن الفرضي ترجمة 262 .
(130) ابن الفرضي ترجمة 433 .
(131) ابن الفرضي ترجمة 294 .
(132) ابن الفرضي ترجمة 295 .
(133) المرجع السابق ترجمة 296 .
(134) التكملة ترجمة 234 .

كاتبا للخليفة الحكم المستنصر . وكذلك الفقيه محمد بن أحمد بن عبيد الله الرعيني الذي تقلد النظر في أحباس الحاجب جعفر (135) ، وذكر ابن بشكوال كثيرا من هؤلاء الصقالبة العلماء في تراجم القرن الخامس الهجري مثل :

يحيى بن نجاح مولى جعفر الحاجب وكان من أهل الورع والزهد والعلم ، وهو مؤلف كتاب سبل الخيرات في الوصايا والمواعظ والزهد والرقائق وتوفي بمصر سنة 422 هـ/ 1030 م (136) ، وكذلك رائق الفتى الصقلبي (137) ، ودراج الفتى الصقلبي الذي توفي بالمشرق (138) ، ولبلب الفتى الذي كان ممن رحل وحج وسمع العلم وكان خيرا وتوفي قريبا من سنة 460 هـ/ 1067 م (139) ، وشاكر بن خيرة العامري ويكنى أبا حامد الذي نشأ بشاطبة وعنى بالقراءات والآثار وتوفي 470 هـ/ 1077 م (140) .

وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية من أهل العلم والمعرفة بالأدب (141) ، محبا للعلماء محسنا لهم كثير التولع بالمقرئين للكتاب العزيز حتى عرف بذلك ، وأثنى عليه ابن حيان في كتاب المتين بهذا الشأن (142) ، وأضاف المراكشي فذكر عنه أنه كان مؤثرا للعلوم الشرعية مكرما لأهلها (143) فقصده كثير من العلماء من المشرق والمغرب وألفوا له تواليف مفيدة ، منهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي (144) وصاحب التاريخ في الدولة

---

(135) التكملة ترجمة 384 .
(136) انظر ترجمته في الصلة 1462 ص 628 ــ 629 .
(137) المرجع السابق ترجمة 422 ص 183 .
(138) المرجع السابق ترجمة 419 ص 181 .
(139) المرجع السابق ترجمة 1029 ص 451 .
(140) المرجع السابق ترجمة 533 ص 229 .
(141) ابن عذارى 155 ــ 158 .
(142) المغرب في حلى المغرب 401/2 .
(143) المعجب 127 .
(144) التكملة ترجمة 417 .

العامرية ، وسكن الجزائر الشرقية في كنف مجاهد العامري ، وولي الأحكام هنالك إلى أن توفي في سنة 423 هـ/ 1031 م ، ووفد عليه أفراد الشعراء كإدريس بن اليمان وجلة العلماء كابن سيدة (145) . ومدح ابن دراج مجاهدا بقصيدة طويلة في سنة 419 هـ (146)/ 1028 ، ووفد عليه صاعد البغدادي زميل ابن دراج في بلاط العامريين بقرطبة من قبل (147) ، وأبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني (148) ، وبلغ من إكرامه لأدباء دولته أن عرض على أبي غالب اللغوي ألف دينار على أن يقول في مقدمة كتابه أنه مما ألفه له (149) . وكان مجاهد يشارك في التأليف وله كتاب في العروض يدل على قوته فيه ، ويضيف ابن حيان إلى ذلك أنه كان أشد الناس في الشعر ، لا يزال يتعقبه على القائل كلمة كلمة مما جعل الشعراء يقصرون عن مدحه (150) وحذا إقبال الدولة عليّ بن مجاهد حذو أبيه في الإقبال على العلماء ، إلا أن ذلك كان تطبعا لا طبعا (151) .

ومدح ابن دراج مباركا ومظفرا العامريين صاحبي بلنسية وشاطبة بقصيدة طويلة (152) . وهناك قصيدة في مدح لبيب الصقلبي صاحب طرطوشة (153) وفيها يذكره بما يربط بينهما من خدمة الدولة العامرية . ويرى الدكتور محمود مكي أن الشاعر ابن دراج ربما أمل بمدحه مباركا ومظفرا ما كان

---

(145) المغرب في حلى المغرب 401/2 .

(146) ديوان ابن دراج تحقيق د.محمود مكي 478 — 481 .

(147) الذخيرة 4/1/4 — 5 ، د. محمود مكي المرجع السابق المقدمة 79 .

(148) الذخيرة 97/1/3 ، الصلة ترجمة رقم 289 ص 125 ، د. محمود مكي المرجع السابق نفس الصفحة .

(149) نفح الطيب 180/4 .

(150) ابن عذارى 156/3 ، الصقالبة في إسبانيا 21 — 26 ، د. محمود مكي 79 .

(151) المغرب في حلى المغرب 401/2 .

(152) ديوان ابن دراج 101 — 108 ، ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام نفس القصيدة ، 223 ، 225 قصيدة أخرى بديوان ابن دراج 520 — 523 ، المغرب في حلى المغرب 299/2 .

(153) ديوان ابن دراج 109 — 114 .

المتنبي قد أمله في كافور الإخشيدي حين قصده بعد مفارقته لسيف الدولة ، وقد احتفظ لنا الديوان في مدحهما بقصيدتين (154) .

وقد كان خيران الصقلبي يحترم العلماء الأندلسيين ويقدرهم ، فقد كان وزيره ابن عباس الكاتب الأديب ، وكان ممن وفد إلى المرية من العلماء الفقيه أحمد بن محمد ابن عفيف بن عبد الله بن مريول ، الذي خرج عن قرطبة في الفتنة فأدنى خيران مكانته وقلده قضاء لورقة والتزم الصلاة والخطبة بجامعها ، ولم يزل حسن السيرة فيهم محمودا لديهم محببا إليهم إلى أن توفي (155) ، وقد مدح الشاعر ابن دراج خيران العامري (156) بقصيدة طارت شهرتها في المشرق والمغرب وهي النونية .

ولم يكافىء خيران الشاعر على مدحه إياه إلا بقدر ما سمحت به جلافة الصقلبي وبعده عن تذوق الأدب (157) ، فبلغ الخبر أبا جعفر بن جواد الطبيب فقصد الشاعر بخمسة عشر مثقالا دفعها إليه وقال له : اعذر أخاك فإنه في دار غربة . وقد سارت فعلة خيران هذه حتى ضرب بها المثل ، وبقي صداها يتردد في الأندلس طويلا .

وقد شارك الصقالبة في أحداث قرطبة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولعل سبب ذلك تمتعهم بمركز القوى في القصر الخليفي منذ عهد عبد الرحمن الناصر حتى الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري ، ولا يفوتنا هنا أن نقرر أن كثيرا من خلفاء قرطبة وخاصة خلفاء الفتنة البربرية كان يتعشق هؤلاء الفتيان الخصيان إلى جانب الجواري الصقلبيات ، في الوقت الذي كانوا يعملون كخدم في القصر الخلافي لخدمة الحريم ، وكانوا عنصرا مهما من عناصر الانتاج في المجتمع القرطبي .

---

(154) لعل ذلك حدث بعد خلع أهل طليطلة عبد الملك بن عبد الرحمن بن تيود وقبل ولاية إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون . انظر البيان المغرب 276/3 — 277 ، مقدمة ديوان ابن دراج ص 70 .

(155) الصلة ترجمة 75 ص 46 — 47 .

(156) الذخيرة 74/1/1 ، ديوان ابن دراج 86 — 94 .

(157) د. محمود مكي (مقدمة) ديوان ابن دراج القسطلي 69 .

وقد استطعنا أن نستنتج ذلك بدراسة بعض التراجم التي أوردها ابن الفرضي في تاريخه ، فقد عمل بعض هؤلاء الصقالبة في مهن مختلفة لدى الارستقراطية أصحاب البيوتات الأندلسية . واشتهر منهم ديدان الصقلبي الصيدلاني (158) ، ومن اسمه نستنتج أنه كان يعمل في الصيدلة وتجهيز الأدوية ، وكان بدر مولى له وهو من سراة الموالي (159) ، وكذلك بدر مولى ابن شهيد الصقلبي (160) ، وبدر مولى أحمد بن قطن الزيات (161) .

وكان أصحاب البيوتات الأندلسية الميسورة والطبقة الوسطى في المجتمع تشتري العبيد الصقالبة الخصيان للعمل داخل المنزل في الخدمات المنزلية المختلفة ، وربما كان الفحول — وهم غير الخصيان — هم الذين يعملون في المهن الأخرى خارج المنزل ، هذا إلى جانب أن بعض الجواري الصقلبيات كانت تتخذ للمتعة أو يقمن بالغناء والرقص ، وبالطبع كانت أسعار هذا الصنف من الرقيق تتفاوت تبعا للمهنة التي تقدمها الجارية .

وكان بعض القرطبيين يهيم بهؤلاء الفتيان (162) هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى أورد لنا صاحب الذخيرة (163) نقلا عن ابن حيان أن الوزير القرطبي ابن السقاء كان له دار أخرى للخلوة بالغلمان (164) وسموها «دار اللذة» ، لأنه كان يجيئها في أكثر النهار بعد فراغه من أحكامه فيقضي بها راحته ، فإذا جاء الليل عاد إلى دار سكناه التي فيها أهله .

---

(158) ابن الفرضي ترجمة 294 .

(159) المرجع السابق نفس الصفحة .

(160) ابن الفرضي 295 .

(161) ابن الفرضي ترجمة 296 .

(162) طوق الحمامة 44 ، 130 الذخيرة 279/2/1 — 280 ، ولعل هؤلاء الفتيان من الصقالبة الخصيان .

(163) الذخيرة 189/1/4 — 190 .

(164) لعل الغلمان المقصودة هنا هم الصقالبة الخصيان الذين كان يشتريهم الوزير للاستمتاع بهم .

عاش النصارى من أهل الذمة في خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في ظل الحكومة الإسلامية متمتعين بسائر حقوقهم ، وكانوا يؤدون شعائرهم دون أن يتعرضوا لضغط من قبل الحكومة الإسلامية ، بل كان عدد من كبار رجال الذمة (النصارى) الذين كان يطلق عليهم اسم المستعربين (los Mozarabes) يتولون وظائف كبرى في الدولة في أيام عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، فقد كان من بينهم وزراء وكتاب وأطباء وسفراء ، وعلى الرغم من أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجري ، وهي الفترة التي توافق المنصور بن أبي عامر ، كانت تتميز بحدة الصراع بين الأندلس الإسلامية وجاراتها من الدويلات المسيحية (165) .

وعلى الرغم من الطابع التخريبي الذي اتخذته حملات المنصور بن أبي عامر للكنائس والمقدسات المسيحية ، فإنه لا يبدو أن ذلك انعكس على أوضاع النصارى المستعربين في داخل الدولة الإسلامية ، فقد بقي نصارى قرطبة متمتعين بالحريات التي تمتعوا بها من قبل .

ويظهر أن انهيار الخلافة الأموية في قرطبة وتمزق الأندلس إلى دويلات الطوائف منذ أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لم يكن له تأثير سيء على أوضاع النصارى المستعربين في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ، بل على العكس كان انهيار السلطة المركزية في قرطبة مؤديا إلى مزيد من الحرية لهذه الجاليات النصرانية ، ويدل على ذلك أننا لا نسمع في أثناء الحرب الأهلية التي نشبت منذ قيام الفتنة البربرية بأن الكنائس أو الأديرة قد تعرضت للتخريب الذي تعرضت له أجزاء كبيرة من مدينة قرطبة ، وكان عدد كبير من الأسر المسيحية القادمة من ليون وغيرها من مدن إسبانيا النصرانية يعيشون في قرطبة في ظل الدولة العامرية .

---

(165) أبو الكردبوس ص 63 — 64 .

ونعرف من بينهم رجلا من أسرة بني غومس (166) وهو شانجة بن غومس من امراء شلطانية (167) Seldana وقربون (168) Carrion بلغ من وفائه لعبد الرّحمان شنجول بن منصور بن أبي عامر أن قال أثناء فتنة محمّد بن هشام بن عبد الجبّار له : « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطإك فإن عشت عشت معك وإن مت مت معك » (169) .

ووجود مثل هذه الأسر بكثرة في قرطبة في أواخر القرن الرابع الهجري ، يدل على أنه لابدّ أن تكون لهم كنائسهم التي كانوا يؤدون فيها شعائرهم وطقوسهم المسيحية على المذهب الذي كان يسمى مذهب المستعربين .

وقد كانت بعض هذه الطقوس تؤدى بفخامة الأنظار ، حتى إن بعض الأندلسيين المسلمين المتعودين على بساطة الشعائر الإسلامية كانوا يبدون دهشتهم إزاء ما كانوا يشهدونه من احتفالات النصارى بالمناسبات الدينيّة ومواكبهم فيها . ويبدو ذلك في نص يرجع إلى الربع الأول من القرن الخامس الهجري بقلم الأديب الأندلسي أبي عامر بن شهيد ، وفي هذا النص يتعجب ابن شهيد من حماسة هؤلاء النصارى لأداء طقوسهم الدينية ، وكان قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور وائتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير (170) أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراج واطرحوا النعم كل اطراح » (171 .

(166) وكان جدهم يسمى غومس بن ديز Gomez Diaz
وعن هذه الأسرة انظر ديوان ابن دراج تحقيق د. محمود مكي ص 402 حاشية . و.L Provencal, Hist. Esp. Musl. Vol. III p. 252

(167) شرق ليون .

(168) كان يحكمها غرسية بن غومس ، انظر ديوان ابن دراج ص 387 حاشية .

(169) ابن عذارى 70/3 .

(170) الزنانير : جمع زنار وهو حزام يشده المسيحيون على أوساطهم .

(171) نفح الطيب 66/2 .

ولقد أعجب الشاعر ابن الحداد من طريقة أدائهم للطقوس الدينية قائلا : (172)

وقد تلوا صحف أناجيلهم بحسن ألحان وأصوات

وتدل بعض الفتاوي التي أدلى بها بعض الفقهاء الأندلسيين في خلال القرن الرابع الهجري ، على أن الحكومة الإسلامية لم تتعرض بسوء للكنائس القائمة في قرطبة في داخل المدينة ، ولكنهم لم يكونوا يسمحون بإنشاء كنائس جديدة في المناطق التي امتد إليها عمران المدينة ولا في الأحياء ذات الأغلبية من المسلمين .

وإذا كان ذلك صحيحا في خلال القرن الرابع الهجري ، فإن الحرية التي تمتع بها النصارى في قرطبة في خلال القرن التالي لابدّ أنها كانت أكثر وأوسع مدى ، وربّما دليلنا على ذلك بعض الإشارات التي وردت في الشعر والتي تتحدث عن قرع نواقيس الكنائس (173) مما يدل على أن الشعائر النصرانية كانت تؤدى بصورة علنية ظاهرة .

وإننا لا نجد ما يدل على أن أهل الذمة ــ سواء منهم النصارى أو اليهود ــ كانوا يلزمون بلبس زنار مميز لملابسهم ، كما كان الأمر في بعض بلاد الشرق وكما سيحدث في الأندلس في ظل المرابطين ، كما يظهر من إشارة لابن عبدون في كتابه عن الحسبة حيث يذكر أنه « يجب أن تكون لهم علامة يعرفون بها على سبيل الخزى لهم » (174) .

---

(172) الذخيرة 213/2/1 ــ 214 .
وكان كثيرا ما يزور الكنيسة لرؤية حبيبته المسيحية ، وقال في ذلك :
أُمولِعَتِي بصلبان ورهبان ونساك
ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك

انظر الذخيرة 219/2/1 .

(173) ابن حزم طوق الحمامة 133 ، نفح الطيب 66/2 ، ليوبولد توريس بلباس : الأبنية الإسلامية ص 107 .

(174) ابن عبدون 51 .

ويرى الجرسيفي بأن يمنع أهل الذمة من التزيي « بما هو من زي المسلمين أو بما هو من أبهة وينصب عليهم علما يمتازون به من المسلمين كالشكلة في حق الرجال والجلجل في حق النساء » (175) .

وهناك أحكام أخرى وردت في كتاب ابن عبدون عن الحسبة يمكن أن تستدل منها على كثير مما يلقى أضواء على الحياة الدينية للنصارى وكنائسهم وشعائرهم ، فهو يذكر أنه « يجب أن يمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين فسقة زناة لوطة » (176) .

وهذا النص يدل على أن النساء المسلمات كن كثيرا ما يدخلن الكنائس ، ربما للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب التي تقام فيها .

كذلك ينص ابن عبدون على أنه « يجب أن تمنع الإفرنجيات من الدخول في الكنيسة ، إلا في يوم فضل أو عيد فإنهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين » (177) . وفي هذا النص دلالة وافرة على عدد أفراد الجالية النصرانية في العواصم الأندلسية وعلى شيوع عادة دخول النساء في الكنيسة في غير أيام الأعياد والأيام المشهودة .

وعلينا أن نذكر أن التشدد الذي يبديه ابن عبدون مع النصارى ربما كان مظهرا من مظاهر النزعة المتشددة التي سادت حكم المرابطين بصفة خاصة ، ويرى منهم من الجهر بممارسة شعائرهم ، وذلك بأنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس ، وإنما تضرب في بلاد الكفر » (178) .

---

(175) الجرسيفي : رسالة في الحسبة 122 .

(176) ابن عبدون 48 ، وفي ذلك يقول الشاعر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد »

وكل قس مظهر للتقى بأي انصات واخبات

وعينه تسرح في عينهم كالذئب يبغي فرس نعجات

انظر الذخيرة 1/2/213 ــ 214 .

(177) ابن عبدون 48 .

(178) المرجع السابق 55 .

وإن كان ابن عبدون ينص على أن بعض ملوك الطوائف قبل دخول المرابطين إلى الأندلس كانوا أيضا يميلون إلى التشديد على النصارى ، فهو يدعو إلى أن يجبر القسيسون على الختان « كما كان يفعل بهم المعتضد بن عباد (المتوفي سنة 462 هـ/ 1069 م) فإنهم متبعون بزعمهم لسنن عيسى — عليه السلام — وعيسى قد اختتن ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه ويتركون ذلك » (179) .

أما بالنسبة لليهود فقد كان لهم حي يقع بين الرصيف وقصر الخلافة ، ويمتد إلى غربي المدينة ، وكان يخترق هذا الحي الذي يحمل حتى اليوم اسم حي اليهود La Juderia (وإن كان يخلو الآن من اليهود تماما) طريق رئيسي يؤدي إلى البيعة الكبرى La Sinagoga .

وتؤيد نوازل ابن سهل بأن الحي اليهودي بقرطبة لم يكن قاصرا عليهم فقط ، بل كان فيه دور للمسلمين ، نستدل على ذلك من قضية عرضت على قاضي الجماعة بقرطبة وهي أن وكيل اليتيم باع دارا له « لقربها من دور اليهود وحيث تباع الخمر ومجتمع أهل الشر والفساد » (180) .

وكانت حجة وكيل اليتيم التي اقتنع بها قاضي الجماعة والفقهاء بأنه أراد إخراج اليتيم من مجتمع اليهود إلى مجتمع الإسلام .

ولقد لعب اليهود في القرن الخامس الهجري في الممالك الأندلسية دورا هاما في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتلك الممالك ، وعلى سبيل المثال نرى منهم إسماعيل بن النغريلة وزير باديس ملك غرناطة ثم ابنه يوسف (181) بعد ذلك .

---

(179) المرجع السابق 49 .

(180) ابن سهل ورقة 33 .

(181) يوسف بن النّغريلة له أشعار يتطاول فيها على المسلمين واستهزأ بهم وجاهر بمقدرته على أن ينظم القرآن في أشعار (انظر المغرّب في حلى المغرب 114/4/2) وله رسالة في ذلك حينما كان وزيرا في الفترة ما بين (456 — 459 هـ) ولقد ظفر الفقيه ابن حزم برد أحد الفقهاء على رسالة يوسف بن التغريله ورد على المشكلات التي أثارها وتقع في ثمانية فصول (انظر ابن حزم : الرد على ابن النّغريلة اليهودي ورسائل أخرى تحقيق إحسان عباس) . =

وكانت الجالية اليهودية بقرطبة في القرن الخامس الهجري تمارس شعائرها في حرية تامة .

ولقد استمرت مدرسة قرطبة للدراسات العبرية تمثل مركز الصدارة في أوائل القرن الحادي عشر ، وتوسعت حتى أصبحت دار للإفتاء للشريعة اليهودية ، وأصبحت بديلا لمدرستي العراق (صورا وبمبادثا) اللتين كانتا تصدران الإفتاء (182) .

ولقد حددت كتب الحسبة بعض العلاقات الاجتماعية لأهل الذمة من اليهود ، فقال ابن عبدون أنه « يجب أن لا يذبح يهودي لمسلم ، ويؤمر اليهود أن يتخذوا أوضاعا لأنفسهم » (183) ويرى ابن عبدون أيضا أن اليهود غير أمناء في نقل العلوم ، فقال إنه « يجب أن لا يباع من اليهود ولا من النّصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم ، فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين » (184) . وكان يشك في نصيحتهم الخالصة لمرضاهم من المسلمين فقال « لا يترك طبيبا يهوديا أو نصرانيا أن يجلس ليطيب المسلمين ، فإنهم لا يرون نصيحة مسلم إلا أن يطبّبوا أهل ملتهم » (185) . ويرى ابن عبد الرؤوف أن « ينهي المسلمون أن يتعمدوا شراء اللحم من مجازر أهل الذمة » (186) .

كذلك رأى الجرسيفي أن « يمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في

= وكان رد ابن حزم مما أضاف بسخط الناس على ابن النّغريلة إلى جانب ما فعله قصيدة الزاهد الإلبيري أبي إسحاق فثارت صنهاجة على يوسف بن النغريلة واليهود وقتل في هذه المذبحة آلاف من اليهود وغنموا أموالهم (انظر الذخيرة 272/2/1 ، أعمال الأعلام 233 ، دوزى : ملوك الطوائف 168 .

(182) محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس ص 35 — 36 .

(183) ابن عبدون ص 49 .

(184) المرجع السابق 57 .

(185) المرجع السابق نفس الصفحة .

(186) ابن عبد الرؤوف 94 .

منازلهم والتكشيف عليهم ، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين ، ومن ركوب الخيل بالسروج والزي بما هو من زي المسلمين » (187) .

ويرى التشدد مع المسلمين الذين يقومون بخدمة أهل الذمة فقال « ويمنع المسلمين أن يحاولوا لهم كل ما فيه خساسة أو إذلال للمسلمين كطرح الكناسة ونقل آلات الخمر ورعاية الخنزير وشبه ذلك لما فيه من علو الكفر على الإسلام ، ويؤدب من فعل ذلك » (188) .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(187) الجرسيفي 122 .
(188) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

2) الحياة العامة في قرطبة :

الزواج

الطلاق

مشهد الشارع

الأعياد والمواسم والاحتفالات

وسائل اللهو والطرب في قرطبة

الـــزواج

ذكر ابن سهل أن فرائض النكاح ثلاث : الولي والصداق وشاهدان وسنته : إظهاره والوليمة والدخان ، والنكاح مندوب إليه لمن قوى عليه ، ولا يكون إلا بولي ذكر وصداق ، ولا حد لأكثره ، وأقله محدود وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم كيلا أو ما قيمته أحدهما (189) ولا يجوز إلا بحضرة الزوج والزوجة والولي ، ولا يجوز أن يوقف على رضى أحدهم بغيبة بعضهم عن بعض في الموضع البعيد (190) ، وقال ابن عبد الرؤوف : ومن شرطه الخطبة (191) .

وكانت عملية اختيار الفتى لعروسه عملية سهلة ، فالاختيار عادة يتم بوساطة الأهل والأصدقاء ، أو يكون الفتى قد رأى الفتاة أو شاهدها في مكان عام ، أثناء شرائها الحاجيات من السوق أو زيارة أحد الأقرباء أو الأصدقاء . وأحيانا كانت الأمهات تتدخلن تدخلا صريحا في اختيار العروس لأبنائهن ، ومثل هذا كان يقابل أحيانا بعدم الرضى من جانب الشباب لعدم اقتناعه بالعروس .

ولقد باعت أم جاريةً لابنها وكان يحبها حبا شديدا وذهبت إلى انكاحه من بعض العامريات مما كان سببا في فقدان عقله حبا ووجدا على الجارية المبيعة (192) .

وكان يقوم أيضا بعملية الخطبة النساء المسنات على سبيل حب الخير والوصل بين الفتى والفتاة .

وذكر ابن حزم أن هناك بعض النساء المسنات اللائي قطعن الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالهن إليهن تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة (193) .

(189) ابن سهل ورقة 73 .
(190) ابن عبد الرؤوف 79 .
(191) المرجع السابق 79 .
(192) ابن حزم طوق الحمامة ص 104 .
(193) المرجع السابق 50 .

وكان لا يشترط في خطبة العروس أن تكون قرطبية مثل فتاها القرطبي . وكانت هناك مدن اشتهرت بجمال نسائها وحصانتهن مما كان يرغب في الزواج منهن ، مثل مدينة جنجالة (194) ومدينة بلش (195) .

وكانت تمر فترة الخطبة بين الشاب والفتاة بسعادة وأمل في المستقبل وفي تكوين بيت الزوجية ، ولا يعني هذا عدم قيام مشكلات بين الخطيبين خلال هذه الفترة ، إلا أن الأسرتين لم تكونا تعدمان حلا لهذه المشكلات .

ويورد ابن سهل في نوازله صورا لبعض المشكلات التي قد تعترض سبيل الخطبة ، منها ما يذكره من أن امرأة ادعت أن ابنها خطب ابنة أخيها ، وكانت فتوى الفقيهين ابن لبابة وابن وليد لقاضي قرطبة أن يؤخذ رأيها ، فإن لم توافق تركت وما قالت وإن رضيت به زوجا فوضت نكاحها للقاضي ــ إن كره أعمامها ــ ويأمر القاضي الشاب (ابن عمتها) بأن يثبت أمامه كونه كفؤا لها ، فإن ثبت ذلك أمر بإنكاحها (196) . ويبدو في هذه القضية أن الأعمام كانوا غير راضين عن زواج الفتاة من ابن عمتها ، وربما وضعوا العراقيل أمام هذه الخطبة ، فما كان من العمة إلا أن أبلغت أمرها للقاضي الذي كان في جانب الفتاة إذا رضيت بالفتى وثبتت كفاءته لها .

ولقد حوت كتب الحسبة كثيرا من النصوص لأئمة المذهب المالكي في كثير من مشاكل الزواج ، غير أن نوازل ابن سهل حفلت في باب النكاح (197) بكثير من القضايا والمشاكل الواقعية ، وآراء فقهاء قرطبة المجتهدين الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري ، ومن قضايا الأحوال الشخصية المطروحة في نوازل ابن سهل نعرف أن المشاكل التي تعرض لها القضاء القرطبي في القرن الخامس الهجري

---

(194) جنجالة مدينة بينها وبين مرسية 50 ميلا انظر الإدريسي ص 195 .

(195) بلسن مدينة بينها وبين بطليوس 12 ميلا انظر الإدريسي ص 186 .

(196) ابن سهل 75 .

(197) ابن سهل « باب النكاح » من ورقة 73 إلى 85 .

مشابهة للمشاكل المألوفة في الشرق ، بل هي نفسها ، وكان قضاة قرطبة في القرن الخامس أشد حرصا على تنفيذ قواعد المذهب المالكي وآراء الأئمة من تلاميذ مالك تنفيذا حرفيا ، على الرغم من تطور الأحوال في القرن الخامس الهجري .

ولكن لاحظنا أن الفقهاء المشاورين في هذا القرن كانوا أكثر مرونة وملاءمة للعصر من قضاتهم الذين كانوا يستفتونهم وينتظرون آراءهم للأخذ بها وتنفيذها . كذلك عرفنا من دراسة هذه القضايا أن الزواج لم يكن بالمسألة السهلة التي لا تحتاج إلى وقت من القاضي ، بل لاحظنا أنها كانت تحتاج إلى كثير من الإجراءات المعقدة ، من شهود وإثبات لكفاءة الزوج وشروط يريد الزوج أو الزوجة إثباتها في عقود الزواج ، وغير ذلك من الأمور التي درج عليها المجتمع القرطبي من قبل .

ولعل ذلك كان راجعا إلى أن القرن الخامس الهجري في قرطبة شهد تغيرات اجتماعية واقتصادية صحبت التغير السياسي .

وكان قاضي قرطبة يحرص إذا رفعت إليه قضية بين زوجين أن يسير بخطى وئيدة رتيبة ، حتى لا يقع في المحظور ويجعل جل اعتماده في أحكامه على الفقهاء المشاورين .

وفي الفترة الأولى من هذا القرن (399 هـ ــ 422 هـ)/ 1008 ــ 1031 م ، وهي فترة الفتنة والحروب الأهلية ، كان يسود بيئة قرطبة قلق عام لتدهور أحوال المجتمع القرطبي ، واستمر ذلك أكثر من عشرين عاما لقي فيه الكثير من القرطبيين حتفهم إلى جانب أعداد هائلة من البربر القاطنين لها .

وأعتقد أن حالات الزواج خلال هذه الفترة القاسية قد قلت في قرطبة وإن لم تكن قد ندرت ، وهذا أمر طبيعي جدا ، لأنها كانت فترة عدم استقرار وخوف وقتل للشيوخ والشباب ، وانعكس هذا الأمر على النساء ، ولقد وضح لنا ابن حزم مدى تأثير هذه الفتنة القرطبية على النساء القرطبيات بقوله : « إن المرأة لم تعد تهتم بنفسها وزيها وزينتها، وعلت وجهها آثار البؤس واليأس ، فحين دخل ابن حزم قرطبة 409 هـ/ 1018 م بعد خروجه عنها في بداية الفتنة ، لم يستطع تمييز بعض النساء من أقاربه حتى قيل له إن هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت

نضارتها وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية ، وذهب ذلك النوار الذي كان البصر يقصد نحوه متنورا . فلم يبق إلا البعض المنبيء عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وهدمها الصيانة التي كات غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا » (198)

وكلام ابن حزم ينطبق بالطبع على الكثرة من نساء قرطبة في تلك الفترة ، فالأحزان والمآتم عمت كل بيوت قرطبة تقريبا ، فمن أين تأتي الأفراح وحفلات الزواج والاستعداد لها ؟ والناحية الأخرى ارتباط حالات الزواج بالناحية الاقتصادية للعروسين ، وقد رأينا الأحوال الاقتصادية في تلك الفترة ، هذا إلى جانب هجرة عدد عظيم من القرطبيين من قرطبة هربا من الفتنة . وهكذا يمكن القول بأن فترة القرطبية أتسمت بقلة حالات الزواج .

أما عصر الاستقرار ، وهو عهد بني جهور ثم عهد بني عباد والمرابطين ، فلعله كان فترة عادية في كثرة عدد حالات الزواج ، نتيجة لعودة الحياة الطبيعية لقرطبة وللانتعاش الاقتصادي المتزايد وهدوء الأحوال السياسية واطمئنان الناس فيها ، وسنرى من القضايا التي عرضها ابن سهل في نوازله الأنواع المختلفة للمشكلات الاجتماعية التي كانت تحفل بها مجالس القضاء في قرطبة ، منها « من غاب غيبة منقطعة عن ابنته البكر» (199) وذكر ذلك أخوها للقاضي وطلب منه الإذن بزواجها ، بعد أن وضح له أن أباه غاب عنها منذ سنتين غيبة منقطعة لم يعلم خلالها مكانه ، وقد احتاجت أخته وصارت في ضيعة ، وخطبها كفء لها قادر على أن يصونها ، فاستفتى القاضي الفقيهين محمد بن لبابة وابن وليد ، وكان رأيهما أنه إذا ثبتت غيبة الأب وحاجة الأخت وكفاءة الزوج ورضى الفتاة به فإن للقاضي أن يأمر بتزويجها من الذي خطبها ، وأخذ قاضي قرطبة في قضايا كثيرة في هذا الشأن بما ورد في سماع يحيى عن ابن وهب من أنه إن كان أبو الفتاة يرسل إليها نفقة لم يجز لأحد أن يزوجها ، وإن كان لا يرسل إليها شيئا وقطع غيبته فإنكاح الولي والإمام إياها برضاها جائز ثم لا يكون للأب فسخه » (200) .

---

(198) طوق الحمامة 112 .

(199) ابن سهل 82 .

(200) ابن سهل 82 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وذكر ابن عبد الرؤوف أنه لا تنكح المرأة إلا بإذن وليها ، ولا يجوز النكاح بغير ولي (201) .

وقال ابن لبابة وأيوب بن سليمان وابن وليد في النكاح الذي عقده مولى أنه يحق للولي الذي يجب له النظر في فسخه (202) .

ولقد كان قاضي قرطبة أحيانا يشكل عائقا أمام سرعة إجراءات الزواج وتسهيلها ، فنجد أنه لا يوافق على إجراء الزواج إلا بعد سؤال الفقهاء ، فقد رغبت يتيمة في عقد نكاحها من رجل كفء لها في حاله وماله ، وطلبت الإذن لها من القاضي بالزواج ، وكانت شهادة الشهود أن هذه اليتيمة خلو من زوج وفي غير عدة منه ، وأنهم لا يعلمون لها وصيا من أب ولا وكيلا من قاض ولا ولي غير السلطان ، والصداق نقدا ولا آجل مؤقت قريب المدة ، وبالرغم من ذلك لم يأمر القاضي بنكاحها منه ، وكان يود التحقق من الشهود من أين علموا أن هذا الزوج كفء لها ، « فكان رد الفقيه عبد الله بن يحيى عليه « أنه ليس عليك كشفهم من أين علموا أنه لها كفء » ، وعليه أن يأمر بنكاحها ، أما رد الفقيه ابن لبابة فكان مثله وأضاف أن اليتيمة بالغ في سنها وأنها في غير عدة من زوج ، وهذا مما يجب بثبوته ثم يأمر بالزواج » .

وأورد لنا ابن سهل أن سن زواج الفتاة هو سن البلوغ ولم يحدد بالضبط مقداره بالسنوات . وحدث مرة أن تزوجت فتاة عمرها عشر سنين وأراد الزوج الدخول بها فرفض الأخ ذلك لخلاف بينهما ظهر بعد وفاة الأم أو كان من قبل ، ولكن وجود الأم حال دون إبداء الابن رأيه ، فلما توفيت منع هذه الزيجة ، وخدمته الفرصة فقد كانت أخته صغيرة السن ، ومعنى ذلك أنه لولا هذا الخلاف لتم الزواج ، وكان سن الزوجة حينئذ عشر سنوات . فاشتكى الزوج

---

(201) ابن عبد الرؤوف 80 .

(202) ابن سهل 82 .

لقاضي قرطبة ، فكان رأي الفقيه أبو صالح بفسخ العقد لأن الفتاة تزوجت صغيرة (203) . وقضية أخرى هي أنه إذا تم البناء بالزوجة الصغيرة وأصبحت حاملا فإنه أيضا يفسخ نكاحها ، وتبقى حتى تضع وله ارتجاعها ونكاحها إن أراد بعد ذلك (204) . ولعلنا أمام تلك القضية نستنتج أن القاضي كان حرفيا أمام تنفيذ النصوص الفقهية ، ذلك لأن الفتاة تزوجت وبنى بها زوجها وأصبحت حاملا وهذا يدل دلالة قاطعة على بلوغها ، فلماذا يحكم القاضي بفسخ العقد بحجة أنها تزوجت قبل سن البلوغ ؟ ولم يوضح لنا قاضي قرطبة في هاتين القضيتين الجزاء الذي يناله الموثّق الذي عقد هذا الزواج في مثل تلك الحالات ، وكان الموثق هو الذي يقوم بعقد النكاح وكتابة الصداق والشروط . وقد حدد ابن عبدون صفات موثق الزواج بأنه يجب أن يكون رجلا فقيها ورعا غنيا ، ولا يكون شابا ممن يريد القاضي أن ينعشه بذلك (205) . وقال ابن عبد الرؤوف : لا يعقد الموثّقون بإذن ولي أبعد وثم أقرب منه ، فإن تسور الأبعد على العقد وعقد ودخل الزوج بالزوجة فإنه يؤدب لأنه تسور على حق غيره وأوطأ الفرج على غير سنة ، ويعقد الإمام أو من يقدمه الإمام العقد في ذلك بعد أن يثبت عنده عدم الولي أو السيد إن كانت أمة والولي من قبل الأب ولا يكون من قبل الأم (206) .

وفي مثل هذا النوع من القضايا لم نر في نوازل ابن سهل تطبيقا لمثل هذا الجزاء التأديبي من قاضي قرطبة ضد من يتسور على حق غيره كما ذكر ابن عبد الرؤوف . والأمثلة كثيرة لتلك القضايا ، فهناك « من زعم أنه أولى بعقد نكاح قد عقده غيره » (207) فاستدعى القاضي الأطراف المعنية في تلك القضية

---

(203) ابن سهل ورقة 73 .
(204) المرجع السابق نفس الورقة .
(205) ابن عبدون 13 .
(206) ابن عبد الرؤوف 80 .
(207) ابن سهل 79 .

والشهود ، وكان رأى الفقهاء يقضي بألا يزوجها ولي وثم أولى منه حاضر ، فإن فعل وزوج نظر السلطان في ذلك (208) .

وقضية أخرى « الذي رفع إلى القاضي أن وليته زوجها ولي سفيه من غير كفء لها » (209) ، وكان رأى ابن لبابة وأيوب وعبيد الله وابن وليد بوقف الناكح عن الدخول حتى يتم نظر القضية ، فإن ثبت ذلك يفسخ النكاح . ورأينا كذلك أنه ليس من سلطة الوصي عقد نكاح الصغيرة (210) ، واستند الفقهاء إلى رأي ابن حبيب الذي قال إن الوصي يقوم مقام الأب في تزويجه الصغير من بنيه ، ولا يقوم مقامه في تزويجه الصغيرة كالصغيرة من بناته قبل بلوغها ولا بعد بلوغها دون أخذ رضاها بذلك (211) . ولعل السبب في هذا الموقف كان العمل على تجنب تأثير الوصي وأهوائه الخاصة على الفتاة ، مما قد يتسبب لها في مشكلات في حياتها الزوجية فيما بعد . وكان قاضي قرطبة لا يعتبر إنكار النكاح طلاقا (212) ، ودليلنا على ذلك في مسائل ابن زرب في وصي أنكح يتيمة من رجل ثم أنكر الناكح ذلك ، فقال له القاضي طلقها فقال : وكيف أطلق ما لم أنكح ؟ قال له : ولعلك قد فعلت ، فطلاقها خير لك ولها (213) .

ومن القضايا المثيرة التي عرضت أمام قاضي الجماعة بقرطبة قضية رجلين أدعى كل منهما نكاح امرأة ، (214) وكان رأى القاضي في هذه القضية أن توقف المرأة عن النكاح ويضرب لهذين الرجلين أجل لإثبات ما ذكراه ، فإن أثبتاه

---

(208) المرجع السابق 82 .
(209) المرجع السابق 81 .
(210) المرجع السابق 86 .
(211) ابن سهل 77 .
(212) ابن سهل 86 .
(213) المرجع السابق 86 .
(214) ابن سهل 78 .

فسخ العقد وإن عجزا عن البينة فسخ أيضا وقيل لها : تزوجي من تشائين منهما أو غيرهما ، وإن أثبت أحدهما صحة زواجه كانت زوجته وقطعت دعوى الآخر ، وإن ثبت نكاحهما وكان أحدهما أقدم نكاحا فهي للأقدم . قال ذلك ابن لبابة وابن وليد وابن غالب ، ولم نر في القضية الجزاء الذي ينزله قاضي قرطبة بالمرأة إذا تزوجت اثنين في آن واحد ، وهي تعلم أن ذلك مخالف للشريعة الإسلامية . ومن القضايا الطريفة الأخرى قضية المرأة التي ينكحها ولياها من رجلين وقد وكلتهما على إنكاحها (215) ، وتفصيل تلك القضية أن امرأة مطلقة راجعها زوجها ولم تعلم ، ثم تزوجت غيره بعد تمام عدتها ، وكان حكم القضاء في ذلك أنها تظل في عصمة الثاني ويبطل ارتجاع الأول ، ولقد كثرت الآراء المختلفة في تلك القضية .

ومن القضايا التي عرضت أيضا على قاضي الجماعة بقرطبة قضية العبد الذي نكح حرة بغير إذن سيده ، (216) فقال ابن لبابة يفسخ نكاحه إذا كانت الفتاة لم تعلم أنه عبد ، ولها أن تطلق نفسها منه متى شاءت ، (217) وإذا رضيت ورضي سيده بالنكاح فيمضي ، لأن العبد لا ينكح إلا بإذن سيده وإلا فلسيده الخيار في فسخه أو إجازته (218) .

ومن القضايا الطريفة أيضا التي عرضت أمام قاضي الجماعة بقرطبة قضية المرأة التي ادعت على رجل أنه اقتضها ، فذكرت لقاضي الجماعة أن هذا الرجل خدعها واَفتضّها ، ولكن كانت شهادة الشهود أن الرجل من أهل الطهارة والحسنى ، وأن هذه المرأة منسوب إليها الرمي بالزوّر ، فكان رد أبي صالح وابن لبابة الحد عليها ثمانين سوطا بتهمة القذف وتشويه سمعة الرجل ، وتضرب مائة سوط لإقرارها فيكون عليها مائة وثمانون سوطا إن أقامت على دعواها وإن رجعت عن ذلك لم ينلها إلا حد القذف (219) .

---

(215) ابن سهل 78 .

(216) ابن سهل 82 .

(217) المرجع السابق 116 .

(218) المرجع السابق 82 .

(219) ابن سهل 377 .

ونرى أحيانا أن الفتاة يعقد عقدها على فتى لم تكن تحبه ، فنراها تترقب فرصة مواتية لتطليق نفسها ، حتى إنها لا تبالي في سبيل ذلك بإنكار نسبها والتنازل عن ميراثها حتّى يفسخ القاضي نكاحها ، وتلك قضية حدثت في قرطبة ، فقد أنكح شخص ابنته البكر وليس له غيرها فمات ، فادعت أنها ليست ابنته وأنها كانت يتيمة وانتفت من الميراث ، وربما كان ذلك راجعا لعدم اقتناعها بالزوج وحبها له ، ولكن الفقهاء لم يلتفتوا إلى قولها وأفتوا بأن قول أبيها يلزمها ، أحبت أو كرهت في نكاحها وميراثها ولحوق نسبها وجميع أمرها (220) .

وقال ابن عبد الرؤوف في الرجل الذي يتزوج أكثر من واحدة ، في أن يسوي بين نسائه في الملبس والطعام والمبيت ، وإذا كانتا اثنتين فعليه ألا يفضل إحداهما على صاحبتها إلا ما لا يستطيع العدل فيه ، مثل الجماع والمحبة وليتّق الله في ذلك (221) . وأضاف ابن عبد الرؤوف أن يؤمر الرجل إذا كانت له ابنتان ألا يزوج الكبيرة على أنها الصغيرة ولا الصغيرة على أنها الكبيرة ، وذلك إذا كانت إحداهما تذكر بجمال ، ولكن بالرغم من ذلك كان يحدث عمليا ما يناقض قول ابن عبد الرؤوف ، وفي نوازل ابن سهل خير دليل على ذلك إذ قد يكون للاختين اسم واحد فيزوج الكبيرة على أنها الصغيرة (222) .

ومن المسائل التي يناقشها الزوج مع والد العروس ، المهر وتحديده ، ووقت سداده ، وكان الموثّق يقوم بتسجيل الصداق في عقد الزواج ، وله بالطبع أجرة من الزوج . وإذا محا بعض الصداق من الوثيقة المكتوبة فإن الكتاب في هذه الحالة يكون صحيحا كلّه . فيما عدا هذا الشرط فإنه يسقط إلا أن تثبته البينة (223) . وإذا اختلف الزوجان في الصداق ، (224) فالقول قول المرأة قبل البناء بها مع يمينها أو قول أبيها مع يمينه إن كانت بكرا ، والزوج بعد ذلك

(220) ابن سهل 76 .
(221) ابن عبد الرؤوف 83 .
(222) ابن سهل 75 .
(223) ابن سهل 85 .
(224) ابن سهل 74 .

مخير على أن يخلف على تكذيب المرأة وأبيها أو ترك النكاح ، ولا يلزمه شيء من الصداق .

ولقد ذكر لنا ابن سهل في نوازله ، قضايا ينكر فيها الزوج أو الزوجة بعض شروط الصداق (225) .

ولم يكن صداق الزوجة مقصورا على النقود بل كان أحيانا دارا وعندئذ كان هذا يسجل في العقد ، وتوضح فيه حدود الدار وأبعادها ، ويشهد الشهود على ذلك . وحدث مرة أن كان صداق المرأة دارا ، وأنكر الزوج حدودها ، ولم تتسلمها الزوجة فأفتى عبيد الله وابن لبابة وابن وليد ، بأن على القاضي أن يرسل رجلين من أهل العدل على الدار بمحضر الزوج ، ويحضر كتاب الصداق وتجاز الدار بمحضرهما على الحدود الواقعة في الصداق ، وينظران إلى كونها بيدها وفي قبضتها فإن ألفى فيها غيره (الزوج) وجب إخراجه إلا أن يدعي فيها بدعوى فتسمع دعواه (226) .

وهناك من شرط لزوجته في العقد ألا يتسرى عليها ، (227) وكان رأى ابن لبابة أنه يلزمه هذا الشرط فيما يستقبل بعد عقد النكاح ، أما ما ملكت يمينه من قبل فلا شيء عليه فيه ، وأضاف ابن لبابة إلى ذلك أن قول سحنون في هذا الموضوع جيد .

ومن القضايا الأخرى في هذا النوع من شرط لزوجته أن لا يرحلها من دارها ما لم يطلب بكرائها (228) .

وكان النقاش في الجهاز ومكوناته من الأمور التي كثيرا ما تتلاقى وجهات النظر فيها بين والد العروس أو وكيلها وبين زوج ابنته ، وكان والد العروس ينفق

(225) المرجع السابق من 95 — 98 .
(226) ابن سهل 91 .
(227) ابن سهل 100 .
(228) ابن سهل 101 .

الأموال في تجهيز ابنته حتى إنه كان يستدين أو يبيع بعض حاجاته لاستكمال هذا النقص في الجهاز .

وحكى أن محمد بن أفلح غلام الحكم قال « دفعت إلى مالا أطيقه من نفقة في عرس ابنة لي ، ولم يبق معي سوى لجام محلى . ولما ضاقت بي الأسباب قصدت محمد بن أبي عامر بدار الضرب حين كان صاحبها ، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له فابتهج بما سمعه مني وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره فملأ حجري ، وكنت غير مصدق بما جرى وعملت العرس وفضلت له فضلة كثيرة » (229) .

ونرى من هذا النص مقدار الإنفاق والتكاليف التي كانت تثقل كاهل والد العروس في تجهيز ابنته ، حتى إنه كان أحيانا يستدين لتكملة الجهاز ومستلزمات العرس .

ولقد كانت مكونات جهاز العروس تصنع في قرطبة وتشترى من أسواقها ، وأحيانا ترد تلك الأشياء من الأقطار الأندلسية الأخرى لتباع في قرطبة . ولقد اشتهرت مدينة مرسية بأنها البلد الذي تجهز فيها العروس التي تنتخب شورتها لا تقتصر في شيء من ذلك إلى سواها » (230)

وكانت مكونات جهاز العروس غالبا مدعاة للتفاخر بين أفراد الحي والعائلة والأصدقاء ، لذلك كان الأب يعطي ابنته أحيانا أشياء تزيد على حاجتها على سبيل الإعارة وذلك ليظهر أمام أهل الزوج والأصدقاء أنه جهز ابنته بجهاز كامل ، وأنه ينتمي لطبقة اجتماعية ميسورة أعلى من حالته الحقيقية . غير أنه في مثل تلك الحالة كان الزوج يرفض أحيانا رد تلك الأشياء المعارة ، ويعتبرها داخلة في مكونات جهازه ضاربا عرض الحائط بما يقوله والد العروس . وقد رأينا تلك القضية في نوازل ابن سهل وسأل قاضي الجماعة بقرطبة فيها الفقيه المشاور ابن عتاب عمن جهز بنته وهي بكر بجهاز وأخرج لها شورة (231) . وأقامت مع

(229) نفح الطيب 87/4 .

(230) نفح الطيب 207/4 .

(231) ابن سهل 100 .

الزوج أربعة أعوام ثم قام الأب يزعم أن نصف تلك الشورة إنما أخرجه على وجه التزين لها والإصلاح عليها ، أعارها إياها لا على أنها مالها ، فأجاب إذا مضت تلك المدة التي ذكرت فالأب غير مصدق فيما ادعاه من ذلك إن شاء الله عز وجل . وسئل ابن القطان عنها فجاوب « إن الأب مصدق فيما زاد على قدر النقد من الشوار » (232) .

من ذلك نرى أن عادة إعارة الأهل لأشياء كثيرة علاوة على جهاز ابنتهم كان يمكن أن يحدث في المجتمع القرطبي ، وأن يعير الأب ابنته أشياء كثيرة مع جهازها على سبيل التخزين والمباهاة والتفاخر أمام الناس والأهل ، وكان الأب أحيانا يطالب بتلك الأشياء بمجرد الانتهاء من احتفال الزواج وتهاني المدعوين .

وكان أحيانا يختلف الزوج مع والد العروس على مكونات الجهاز وقيمته (233) ، فالزوج يعتقد أن الجهاز الذي أحضر لا يتناسب مع قيمة ما دفع من الصداق .

وكان رأى فقهاء قرطبة في هذا الموضوع «أن يرسل القاضي شهيدي عدل إلى بيت الرجل ويشاهدا الجهاز فإن كانت قيمته مساوية معجل الصداق برىء الاب ، وإن كان غير ذلك على الأب الوفاء للزوج ، وزاد على ذلك الفقيهان محمد بن لبابة ومحمد بن وليد إذا كان يقرب الابتناء قبل أن يتغير الجهاز وإذا طال ذلك كان القول قول الأب » (234) وأعتقد أن الشاهدين كانا في مثل تلك الحالة من التجار أو الصناع الخبراء في مثل تلك الأشياء .

أما هدايا العروس ومستلزمات حفل الزفاف فلقد أورد لنا ابن سهل نصا صريحا يسأل فيه قاضي الجماعة بقرطبة الفقيه المشاور عبد الله بن عتاب عن الهدية التي يهديها الأزواج قبل البناء كالخفين والجوربين ونحوهما هل يقضى على الزوج بها؟ إن

(232) المرجع السابق نفس الصفحة .

(233) ابن سهل 91 .

(234) ابن سهل 92 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

امتنع منها وطلب بها . فقال لي : «بل يقضى عليه بها على قدره وقدرها وقدر صداقها ، وليس عليها أن تثيبه إلا أن تشاء فإن أبت أو أبى أبوها إن كانت بكرا لم يقض عليها بذلك ، قلت : فهل يقضى عليه بالعرس والأجرة للجلوة المتعارفة عندهم ؟ فقال لي : لا يقضى عليه بذلك إن امتنع منه ويؤمر به ولا يجبر . والصواب عندي أن يقضى عليه بالوليمة ، بخلاف ما تعطى الماشطة على الجلوة ، هذا لا يقضى به عندي إن امتنع منه ولا بأجرة ضاربة دف أو كبر » (235) .

وفي سماع ابن القاسم « سئل عن الناكح يلزمه أهل المرأة هدية العرس ، وجل الناس يعمل به عندنا ، حتى إنه ليكون فيه الخصومة ، أترى أن يقضى بها ؟ قال : إذا كان ذلك قد عرف من شأنهم » . (236)

بدراسة هذا النص الذي أمامنا نرى أن الهدية ونفقة العرس كانت في قرطبة خلال القرن الخامس من مستلزمات العريس كما جرت العادة بذلك .

وذكر ابن سهل أنه إذا أهدى العروس ثم طلق فله أخذ ما أعطاها ، لأنه إنما أعطى على الثبات والجمال لنكاحه وجمال العشرة (237) ، وإذا كان الفسخ بعد طول الزمان سنتين أو سنين فلا أرى أن فيها شيئا (238) .

ولقد كان تحديد ميعاد حفل الزفاف يتم عادة بالاتفاق بين الزوج ووالد العروس ، وكان غالبا يحدد بواسطة المنجم (239) . وكانت احتفالات الزواج تستمر أسبوعا كاملا في منزل العروس ، وتتلقى فيه تهاني نساء الأسرة والصديقات والقريبات . وكانت العروس تستعد لحفل الزفاف فتذهب إلى الحمام هي وصديقاتها ، وتقوم الماشطة بتمشيطها وتزويقها في الحمام ، ثم تأتي إلى المنزل

---

(235) ابن سهل 84 .

(236) المرجع السابق 85 .

(237) المرجع السابق نفس الصفحة .

(238) المرجع السابق نفس الصفحة .

(239) L. Provencal. Hist. Esp. Musl. Vol. III, p. 403

فتلبس ثوب الزفاف الغالي الثمن ، وتتحلى بالحلى المصنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، هذا إذا كانت العروس من طبقة اجتماعية قادرة على شراء تلك الأشياء ، أما إذا كانت العروس من طبقة اجتماعية فقيرة أو يتيمة ففي هذه الحالة كانت تستعير تلك الثبات والحلي من إحدى النساء التي كانت تسعد وتسر من ذلك (240) .

وكانت زفة العروس في شوارع قرطبة بمثابة الإعلان ليقبل المدعوون إلى منزل العروس ، للتهنئة وليشاهد الأصدقاء وأهل العروس مقدار قدرة الوالد على تجهيز ابنته ، بمشاهدة مكونات جهاز العروس وملابسها والهدايا التي قدمت إليها . وكانت العروس تزف إلى زوجها في موكب كبير وموسيقى ، وتتبع الموكب بغال تحمل الخزائن التي تشتمل على جهازها ، وفي ذلك قال أديب من القرن الخامس الهجري : إنني رأيت زفافا يمر بشارع من شوارع قرطبة ، وكان النقارى والزمار يسير في الوسط راكبا هودجه واضعا على رأسه قلنسوة من القماش ، مرتديا ثوبا من هذا الخز العبيدي ، وكان حصانه أيضا مزينا زينة رائعة يمسكه خادم شاب (241) ، وكان الحواة أحيانا يتقدمون ذلك الموكب ، وإن كان ابن عبدون يرى منعهم من ذلك (242) .

وكانت الولائم تعد بهذه المناسبة في منزل والد العروس ، ويدعى إليها الأصدقاء وكان الطباخ يقوم بعمل أصناف مختلفة من الأطعمة التي كانت تعجب المدعوين ، وكان الطباخ لا يأخذ شيئا مما يطبخه إلا عن شرط معلوم يشترطه على صاحب العروس أولا وعن هبة يهبها له (245) .

---

(240) طوق الحمامة 50 .

(241) الضبي : بغية الملتمس 190 ، جذوة المقتبس ص 134 .

(242) ابن عبدون : 51 .

(243) المرجع السابق : 52 .

(244) الجرسيفي 121 .

(245) يحي بن عمر 119 .

وأثناء حفلة الزواج يسمع ضرب البوق أو ضرب الكير أو المزهر أو الطنبور أو العود ، هذا إلى جانب غناء المغنين والمغنيات والراقصات وتتناسب فخامة مثل تلك الحفلات مع مدى ثراء أهل العروس وغنائهم ، وفي مثل هذه الحفلات يختلط الرجال والنساء وإن كان الفقهاء من أمثال الجرسيفي ينهون عن هذا الاختلاط ، (244) وفي بعض حفلات الزواج كان المدعوون يشربون الشراب المسكر والخمور . ولقد نهى يحيى بن عمر عن حضور تلك الولائم التي تقدم فيها المسكرات ، (245) وأمر ابن عبد الرؤوف أيضا بمنع اللهو على أنواعه في الأعراس ، إلا ما كان من الدف العربي واختلف في الكير (246) .

ووضحت كتب الحسبة أنه يجب أن يؤخذ سلاح الشبان لدى إقبالهم إلى العرس قبل أن يشربوا ، وإذا ظفر بالمعربد كتف وأهبط إلى صاحب المدينة ليؤدبه ويسجنه ، ويجب إذا وقع في العرس عربدة ألا يعرض أحد إلا الحاض وحده ، (247) وأحيانا كثيرة لم تصل الأمور لتلك الدرجة ، لذلك ربّما أسرع الأصدقاء بالصديق الذي تظهر عليه علامات السكر الشديد إلى منزله حتى لا يثير المشاكل لهم .

ولقد وضح لنا ابن سهل في نوازله مسألة من يتزوج من امرأة سبق لها الزواج وكان لها ولد صغير ، أو الزوج الذي سبق له أن تزوج وله ولد صغير ، ذكر ذلك ابن زرب في مسائله وقال : « إذا كان عنده من يكفله من أهله يدفعه له أو تدفعه الزوجة لهم ، وإذا بنى بها والصبي معه يظل معه أو معها ، وإذا أرادت بعد ذلك إخراجه عن نفسها لم يكن لها ذلك » (248) ، وإذا كان عند الزوج أكثر من طفل ففي هذه الحالة لابدّ من موافقة الزوجة ليسكن هؤلاء الأولاد معها (249) .

(246) ابن عبد الرؤوف 83 .

(247) ابن عبدون 54 .

(248) ابن سهل 103 .

(249) ابن سهل 103 .

من ذلك نرى أن الفقهاء كانوا حريصين على أن تبدأ الحياة الزوجية بين الزوجين بصورة هادئة طبيعية متفق عليها مسبقا ، حتى لا يكون أولادها أو أولاده السابقون من غيرها مدعاة لقلقه أو قلقها .

لذلك كان رأي الفقهاء أن يتكفل بهم أحد الأهل ، ولا مانع في هذه الحالة من زيارتهم للوالدين ، وإذا لم يتيسر ذلك كانت موافقة الزوجة هي الأساس في سكنى الأولاد معها . والحكمة في ذلك هو أن يعيش الأطفال في جو أسري ولا يمنعوا من رؤية آبائهم وأمهاتهم ، وكان على الزوج أن يجهز لزوجته منزل الزوجية الخاص بها ، وكان ذلك لا يمنع الزوج من السكن مع حماته وأهل زوجته (250) أو يسكن مع والديه ، وفي هذه الحالة لم تكن الحياة الزوجية تخلو من المشاكل ، فإذا اشتكت الزوجة الضرر بالسكنى مع أبوي الزوج كان على الزوج أن لا يسكنها معهما (251) ويبحث لها عن منزل خاص بها وكراء المنزل على الزوج (252) . وكان على الزوج أن ينفق على زوجته شريفة كانت أو وضيعة وغنية أو فقيرة (253) .

الطلاق

لقد كان الطلاق ظاهرة طبيعية في المجتمع القرطبي في القرن الخامس الهجري . فقد كانت معظم عقود الزواج مشروطة بشروط خاصة على الزوج إذا أخل بإحداها كان الطلاق حقا مكتسبا للمرأة تمارسه في أي وقت شاءت ، دون الرجوع إلى الإجراءات الكثيرة للإثبات حتى يصدر قاضي الجماعة بقرطبة حكمه .

ولقد تأثرت ظاهرة الطلاق في المجتمع القرطبي خلال القرن الخامس الهجري تأثرا بينا بأحوال المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية طوال ذلك القرن .

---

(250) المرجع السابق 86 .

(251) المرجع السابق 104 .

(252) المرجع السابق 101 .

(253) المرجع السابق 104 .

ففي الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري وهي فترة الفتنة (399 هـ ــ 422 هـ)/ 1008 ــ 1031 م ، أعتقد أنه قلت فيها حالاتِ الطلاق إن لم تكن قد ندرت ، نتيجة للأحوال السيئة وحالات القتل والتشريد والقلق وما تبع ذلك من ظروف نفسية سيئة ، عاناها أفراد المجتمع القرطبي في تلك الفترة ، فعلت على مشاكلهم الخاصة داخل البيت ، تلك المشاكل التي كانت كثيرا ما تؤدي إلى الطلاق لولا الظروف الخارجية التي كانت تستحوذ على كل تفكيره ومشاكله .

أما فترة الاستقرار التي تلتها وهو عهد بني جهور ثم عهد بني عباد وأخيرا المرابطين ، فأعتقد أنه نتيجة للاستقرار السياسي الذي ساد البلاد وما تبعه من اطمئنان نفسي لأفراد المجتمع القرطبي ، وما تلى ذلك من ازدهار اقتصادي أدى إلى زيادة حالات الطلاق في تلك الفترة . ولقد وضحنا في الفصل السابق زيادة حالات الزواج في تلك الفترة ذاتها نتيجة للعوامل السياسية والاقتصادية السابق دراستها .

ونحن لا نستطيع تحديد معدل الطلاق بالنسبة لحالات الزواج المرتفعة في تلك الفترة ذاتها ، ولكن نرى بوجه عام أنه ارتفعت نسبة الطلاق ولكنها بالطبع لا تعادل نسبة الزواج المرتفعة .

ولقد كان للأهل دور كبير في فض الخلافات الزوجية الطارئة التي تتعرض لها الأسرة ، قبل أن تتعاظم تلك المشكلة ويزداد حجمها وتضطر الزوجة إلى عرضها على قاضي الجماعة بقرطبة ، الذي كان هو أيضا حريصا على ذلك بجمع الشمل وتضييق هوة الخلاف بين الزوجين ، وذلك عن طريق إرسال حكمين واحد من أهلها والآخر من أهله .

وعندما شكت ابنة تمام زوجها أحمد بن غانم وأرسلت للقاضي بذلك قال الفقيه المشاور محمد بن لبابة : لا يجوز لأحد الحكم بغير الحكمين (254) .

(254) ابن سهل 117 .

وبمراجعة قضايا الطلاق التي أوردها ابن سهل في أحكامه في القرن الخامس الهجري ، نرى أن قاضي قرطبة كان متساهلا في إقرار الطلاق وإعلانه للزوجة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن حالات كثيرة من الزواج كانت مشروطة ، وعند مخالفة هذا الشرط يحق للزوجة طلب الطلاق فورا أو تطليق نفسها .

وفي مسألة الزوجة التي غاب عنها زوجها قال القاضي : تحلف الزوجة ــ إذا أرادت تطليق نفسها منه بعدم النفقة ــ أنه ما ترك عندها شيئا ولا أرسل إليها بشرا وقد شهد لها بذلك الشهود (255) .

وكان أحيانا يشرط الرجل لزوجته أنه إن غاب عنها فأمرها بيدها (256) ، أي أنها تطلق نفسها .

ولقد أورد لنا ابن سهل قضية طريفة حدثت بطليطلة 453 هـ/ 1061 م ، واستفتى ابن الحشا قاضي طليطلة في هذه القضية فقهاء قرطبة ابن عتاب وابن القطان وهي « في مسألة ابن الغاسل في الحكم عليه لزوجته بطلاق أخرى تزوجها عليها بغير موضعها » ، وكمل الحكم في تلك القضية سنة 455 هـ/ 1063 م أي استغرق نظرها سنتين ، والأحداث باختصار هي أنه في سنة 453 هـ/ 1061 م تزوج ابن الغاسل امرأة بطليطلة اسمها عزيزة ، وشرط لها في صداقها أن بيدها أمر الداخلة عليها بنكاح ، تطلقها إن شاءت ونهض إلى قلعة رباح ونكح بها امرأة اسمها شمس في نصف المحرم سنة 453 هـ/ 1061 م فبلغ ذلك عزيزة التي أثبتت الشرط عند قاضي طليطلة وطلقته ثلاثا من شمس ، وأبلغ قاضي قلعة رباح لتنفيذ الحكم والتفريق بينهما فاعترض الزوج عليه . فرجع إلى طليطلة وغاب فيها ستة أشهر فطلقت شمس نفسها منه ثلاثا ، لأن بعقدها شرط أنه متى غاب عنها طائعا أو مكرها أكثر من ستة أشهر فأمرها بيدها تطلق بأي الطلاق شاءت (257) .

---

(255) ابن سهل 98 .

(256) المرجع السابق 100 .

(257) ابن سهل 120 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

من أحداث تلك القضية نستنتج أنه ربما كانت هناك بعض قضايا الطلاق التي تستغرق سنوات طويلة حتى يصدر فيها الحكم ، فلقد استغرقت تلك القضية سنتين من 453 هـ/ إلى 455 هـ/1061 ـ 1063 ـ م ليكمل الحكم ، كذلك يظهر بوضوح أنه ربما تكون الشروط التي يسجلها الزوج على نفسه لزوجته في عقد الزواج راجعة لعدم الثقة في الزوج ولأنه كان من الممكن أن ينتقل بسهولة بين ممالك الطوائف ويتزوج في كل قطر يذهب إليه .

ولنا أن نستنتج كذلك أنه بدون تلك الشروط التي تدون في عقود الزواج ربما كانت تلك الزيجات لا تتم .

كذلك نرى أن الأحكام التي كانت تصدر في مكان ما يبلغ بها صاحب الشأن إذا علم مكان إقامته عن طريق قاضي تلك الجهة .

كما أن في ذلك دلالة على قوة شخصية المرأة الأندلسية وعلى تمسكها بكافة حقوقها وقدرتها على الدفاع عن هذه الحقوق مستندة إلى السلطة القضائية القائمة .

وفي حالة الزوج الذي كانت تنتابه حالة عصبية تؤدي إلى أنه لا يعلم ولا يعقل بما يقول وأثناء ذلك يطلق زوجته ثلاثا ، فأفتى ابن عتاب وابن القطان « بأن يبقى مع زوجته على ما كان عليه » (258) وذلك لأنه كان لا يعي ما يقول .

وكانت تحدث حالات طلاق حتى ولو كانت الزوجة حاملا . وسأل قاضي قرطبة الفقيه ابن عتاب عن المطلقة الحامل أو المرضع هل لها خدمة على الزوج إن كانت عنده مخدومة قبل الطلاق (259) فقال : « لا خدمة لها لأن المرضع لها أجرة الرضاع وكذلك الحامل لا خدمة لها وعليها خدمة نفسها ، قال ويحتمل أن تزاد المرضع في الأجرة لاشتغالها بالولد وبما تتكلفه من مؤنته » . ولقد تعرض ابن

(258) ابن سهل 109 .

(259) المرجع السابق نفس الصفحة .

سهل في نوازله في باب الحضانة والنفقة واختلاف الزوجين في متاع البيت لكثير من هذه الأمور ورأى فقهاء قرطبة فيها (260) .

وكانت الخلافات الزوجية تؤدي أحيانا إلى قتل الزوج زوجته طمعا في ميراثها ، ودليلنا على ذلك ما أورده ابن سهل في نوازله ، فقد قتل ابن فطيس زوجه رحمة ابنة عبد الرحمن بن عبد الله بن شهيد في سنة 462 هـ (261)/ 1069 م بسبب الميراث .

وإذا كان الزوج غائبا عن قرطبة عند حدوث الطلاق وكان يقيم في مدينة أخرى ومكان إقامته فيها معروفا ، كان قاضي قرطبة يخطره بذلك عن طريق قاضي الجهة التي يسكن فيها ، (262) وكان أحيانا يطلق الزوج زوجته وتعلم به ثم يرجعها مرةأخرى إلى عصمته في غيابها ولا يخطرها بذلك ولا تعلم به ، فتتزوج المرأة بعد تمام عدتها من رجل آخر وفي مثل تلك القضية كان حكم قاضي قرطبة : « تبقى في عصمة الزوج الثاني ويبطل ارتجاع الأول لها » (263) . وكانت الخلافات الزوجية قد تؤدي أحيانا إلى أن يجوع الزوج زوجته ويضربها الأمر الذي يضطرها إلى الهرب من منزل الزوجية وتظنّ أن ذلك فرقه .

ولقد سأل ابن القاسم (264) صاحب الشرطة بقرطبة قاضي الجماعة بقرطبة في تلك القضية : « رجلان كلاهما يدعى أنه تزوج امرأة وهي تزعم أنهما طلقاها » ، وأحداث هذه القضية أن امرأة زعمت أن زوجها أضرّ بها فهجرت الزوجية وظنت أن ذلك فرقة (وبذلك تكون قد طلقت منه) وتزوجت آخر طلقها أيضا . وكان رد قاضي الجماعة لابن القاسم صاحب الشرطة بقرطبة هو : سؤال الأول إن كانت له بينة أنها زوجته فيردها إليه بعد أن يحلف أنه ما طلقها ولا يطأها

(260) ابن سهل 103 .
(261) المرجع السابق 388 ، 389 .
(262) نفس المرجع السابق 120 .
(263) ابن سهل 120 .
(264) الصلة ترجمة 1102 ص 478 توفي 411 هـ /1020م .

بعد استبراء رحمها بثلاث حيض ، وإن لم تكن له بينة فلا يقبل قوله ولا إقرارها بأنها امرأته وفرق بينهما ، وبسؤال الآخر إن كان له بينة ردت إليه ويحلف أنه ما طلقها ولا صالحها إذا قامت له بينة على أصل النكاح ، وإن لم تكن فرق بينهما ولتكون أولى بنفسها تنكح من أحبت (265) .

ولقد كان هناك من الأشخاص من يدعى أنه لم يطلق زوجته بالرغم من أنه حلف عليها بأنها طالق ، بحجة أن له جارية بنفس اسم زوجته وأنه كان يعنيها ، وكان لفقهاء قرطبة رأيهم في ذلك فأيد ابن عتاب قول مالك بأنها تطلق (266) .

ويرى ابن عبد الرؤوف بأن يؤدب من يحلف بالطلاق أو بطلاق الثلاث ، ولكننا نرى أن قاضي الجماعة لم يكن يلتزم بذلك وهناك من يحلف بهذه الأيمان .

قال ابن عون الله « والرقيق وغيرهما » ، وقد بلغني عن عكاشة بن ناصر أنه حلف بطلاق نسائه أنه لا يقاتل مع شنجول لأنه زنديق متلاعب ليس من الإسلام في شيء . ويرى ابن عبد الرؤوف أنه لا يكون الرجل محللا لغيره فإن فعل عوقب والمرأة والبينة والذي عقد النكاح ، (267) ولكننا لم نر في نوازل ابن سهل قضايا من هذا النوع ـــ وكذلك يؤمر الموثقون بأن لا يعقدوا مراجعة رجل طلق امرأته طلاق خلع أو تمليك وهي حامل منه قد أثقلت أو دخلت في ستة أشهر من حملها لأنها مريضة ونكاح المريض لا يجوز (268) . ولم نر في نوازل ابن سهل نماذج لتلك الحالة . ويرى ابن عبد الرؤوف أن يؤمر الزوج إذا وجد بالزوجة عيبا أن يمسك عن وطئها والتلذذ بها ، ويخير بين الإمساك أو الترك فإن اختار الترك رجع بالمهر على الولي العاقد لنكاحها (269) .

---

(265) ابن سهل 78 .

(266) المرجع السابق 124 .

(267) ابن عبد الرؤوف 82 .

(268) المرجع السابق نفس الصفحة .

(269) ابن عبد الرؤوف 81 .

ولم نر في نوازل ابن سهل قضايا عرضت على قاضي الجماعة بقرطبة لمثل تلك الحالات .

وأضاف كذلك ابن عبد الرؤوف بأن يؤدب من يضرب زوجته ضربا مبرحا على حسب ما يظهر عليها من ذلك ، إلا أن يكون ضربه إياها على مضجعها (270) ، ولم نر أيضا في نوازل ابن سهل قضايا رفعتها زوجة تطلب الطلاق من زوجها لضربه إياها .

مشهد الشـارع

كان المشهد العام للشارع في قرطبة لا يختلف عنه في المدن الأندلسية في الأيام التي تسبق الأعياد المختلفة ، فهي تعطى للمارة فرصة للتسرية والتنزه إلى جانب الهدف الأساسي من قضاء حاجيات الناس وشراء مستلزماتهم الخاصة ، ففي الأماكن المجاورة للقيساريات وسوق الملابس كنا نجد الباعة يتجاذبون العملاء ، وكان الازدحام يبلغ أشده ساعة العصر حيث تسمع أصوات مزايدات الدلالين المرتفع (271) .

وفي ميادين قرطبة نجد القادمين لقضاء حوائجهم من المدن الأندلسية وأهل البادية (الريف) ملتئمين في دوائر حول الممثلين الهزليين (المهرجين) الذين كانوا يرتدون زي الفلاحين ، مقلدين حركاتهم حينما كانوا يأتون إلى مدينة قرطبة لأول مرة ، وكانت كتب الحسبة تنهاهم عن مثل هذا الاستخفاف بالنساء وجهال الرجال (272) . وكان ابن عبد الرؤوف يسميهم أهل التخييل ، وهم ماهرون في بعض الألعاب السحرية التي تحتاج إلى خفة اليد وسرعة الحركة ويرى منعهم من ممارسة هذه الألعاب (273) .

(270) نفس المرجع 83 .

(271) L. Provencal Hist. Esp. Musl. Vol. III, p. 438.

(272) السقطي 67 .

(273) ابن عبد الرؤوف 51 .

ومشهد آخر لا يبعد عن السابق ، فنجد دقات الطبول تدعو العامة إلى الحواة وإذ كان ابن عبدون يعارض وجودهم في الشوارع ، ويرى منعهم وإخراجهم من البلد وأن يؤدبوا حيث وجدوا ولا يتركوا يمشون بين المسلمين ولا في الأعراس ، (274) ذلك أنهم كانوا يسيرون أمام موكب العروس عارضين ألعابهم ، ولعل الحكمة في منعهم من ذلك ألا يلهوا الناس عن أعمالهم ومصالحهم .

وكان هناك الزجالون الذين يمشون بين الناس في الأسواق والشوارع منشدين أزجالهم ، ويرى ابن عبد الرؤوف منعهم في وقت الجهاد ووقت الحج ، إلا إذا كانت أزجالهم في هذا المعنى . (275) .

ونجد هناك الراقصين والمغنين والملهين وعارضي الظلال الصينية (الخياليين) و«الحاسبين» الذين يقرأون الغيب ، (276) ، وإن كان ابن عبدون يرى منعهم ، (277) وهناك القصّاصين الذي كانوا يقرأون بصوت مرتفع فصولا من السيرة النبوية أو قصصا تحكى ما كان يدور في الأوساط الشعبية من « عجائب » أو حكايات مكشوفة ، (278) وإن كان ابن عبد الرؤوف يرى منعهم من الكلام في السيرة النبوية لجهلهم بها فأنه لم يكن يرى حرجا في أن يقصوا أخبار الملوك وبني إسرائيل (279) .

وفي الزحام يندس السقاؤون الذين يبيعون المياه وبائعو البخور ممسكين بمباخرهم التي ينبعث منها الدخان ، وإن كان ابن عبدون يرى منعهم (280) .

---

(274) ابن عبدون 51 .

(275) ابن عبد الرؤوف 113 .

(276) L. Provencal. op. cit. p. 439.

(277) ابن عبدون 50 .

(278) L. Provencal. op. cit. p. 439.

(279) ابن عبد الرؤوف 113 .

(280) ابن عبدون 51 .

وكان الشارع لا يخلو من بائعي الدوامات (281) والصور (282) وبيعها للصبيان بالرغم من كره الفقهاء لعمل تلك الأشياء ، وكذلك يشاهد الشباب والصبيان وهم يلعبون لعبة اللطمة والمقرع بالرغم من كره ابن عبدون لذلك (283) .

وكان مشهد الشارع لا يخلو من مشاجرات تقع دائما بين بعض الناس ، فترى وتسمع ضربات الرأس والأكتاف والسباب ، وهذا يختلف عن مشهد الناس في شوارع إشبيلية التي كان أهلها يتمازحون بأقبح ما يكون من السب ، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا (284) .

ولقد كان ذلك مدعاة لتجمع المارة في الطريق ، وعندئذ يندس بعض محترفي السرقة بينهم فتسمع صرخات ممن اكتشف سرقة خافظته (285) .

وكان ظهور الشرطة من الفرسان مدعاة لعودة النظام واختفاء هذا التجمهر .

وكان التسول عادة مستقبحة في الشوارع ، وبالرغم من ذلك لا يخلو الطريق من مشهد المتسولين الذين يستجدون الناس ، ولكن لا نجد سائلا إلا أن يكون صاحب عذر (286) .

وكان مشهد السوق والشارع لا يخلو ممن يتحايلون بحيل مختلفة للكسب بدون جهد ومشقة ، كالذي يصيح بوجع الحصا والذي يظهر أنه مقعد ، والذين يقرحون أيديهم ويوهمون الناس أن ذلك كله بلاء نزل بهم .

---

(281) أحكام السوق 117 ، المجيلدي 64 .

(282) أحكام السوق هامش 117 الدوامة : (بضم الدال وتشديد الواو) . هي لعبة من لعب الصبيان تشبه الخذروف تلف بسير أو بخيط . ثم تقذف إلى الأرض وتدور .

(283) ابن عبدون 52 .

(284) نفح الطيب 199/4 .

(285) L. Provencal. Hist. Esp. Musl. Vol. III, p. 440.

(286) الذخيرة 75/2/1 حيث يصف الفقيه أبو عبد الله محمد بن مسعود اللص الذي قابله في طريق قرطبة . نفح الطيب 205/1 .

وهذا كله لكسب عطف الناس عليهم حتى يجزلوا لهم العطاء ، ويرى ابن عبد الرؤوف أن يقوم المحتسب بتأديب أصحاب هذه الحيل (287) إذا ثبت ذلك . ولم نر في كتب الحسبة نصا صريحا لمنع التسول وتأديب المتسولين المحتاجين .

وكان باب العطارين بقرطبة مجمع النساء (288) ، وذلك لشرائهن حاجياتهن الخاصة من عطور وزيوت وصابون وتوابل وبخور ، وترى المعجبين بالنساء يتابعونهن بالسير خلفهن مع ترديد بعض الألفاظ والكلمات على سبيل المداعبة .

وكان بعض النساء يعتبرن هذا العمل فضيحة لهن ، وقد تضطر المرأة أن تتكلم مع الشاب الذي يتبعها وتحاول إقناعه بعدم تتبع خطاها (289) خوفا من أن يراها أحد من أقاربها ، وكثيرا ما كانت تضلله إذا طلب منها معرفة مكان مسكنها أو اسمها كاملا أو متى يراها مرة أخرى (290) .

وفي يوم الجمعة بعد انتهاء الصلاة في المسجد الجامع يبدأ خروج النساء لزيارة المقابر ، وكانت الطرق المؤدية إليها مزدحمة بالجنسين ، وكان هناك الشباب المتأنقون الذين يرتدون أفخر ما عندهم من ثياب ويغازلون النساء الوحيدات ولا يتورعون عن توجيه الألفاظ الخارجة إليهن دون حياء (291) .

ولم يعجب هذا المشهد ابن عبدون ، فرأى « أنه يجب على المحتسب والقاضي الجد في منع مثل هذه الأفعال » (292) ومنع الشبان من التعرض للنساء في هذه الطرق .

(287) ابن عبد الرؤوف 113 .

(288) طوق الحمامة 22 .

(289) طوق الحمامة 23 .

(290) المرجع السابق نفس الصفحة .

(291) L. Provencal. po. cit. p. 440

(292) ابن عبدون 27 .

وعندما تغيب الشمس ويأتي الظلام تخلو الشوارع من المارة إلا من أصوات خطوات الجنود أو من العائدين المتأخرين أو بعض الشبان المنحرفين المتأهبين لسلب المارة دون أي شعور بالذنب (293) .

وكان العساس يلاحظ الشارع ليلا للمحافظة على أمن الناس وسلامتهم ، فكان السير ممنوعا بعد وقت محدد من الليل ، ومن وجد في الطريق في ساعة متأخّرة ليلا فإن صاحب الشرطة يحقق معه ، لذلك كان من يتأخر عن داره ليلا يرى نفسه مضطرا إلى المبيت في غير منزله تجنبا لذلك (294) .

ولقد كان بعض النساء يقضين وقت فراغهن بمتابعة مشهد الشارع من أماكن خاصة بمنازلهن كالشراجيب وإمضاء الوقت بمشاهدة الرائحين والغادين (295) .

وكان بعض النساء يتابعن الطريق بالوقوف على أبواب منازلهن في الأزقة مكشوفات الوجه ، (296) ويرى ابن عبد الرؤوف « منع النساء من الوقوف على أبواب الدور لما فيه من الكشف وعدم الاستتار » (297) .

وكان مشهد الشارع لا يخلو من الذين يشغلون الطريق بالجلوس فيه أو طرح الأزبال والجيف أو البيع فيها ، فقد نهى ابن عبد الرؤوف عن غربلة القمح في الأسواق والمحاجّ الضيقة (298) فتضيقها ، وقد رأت كتب الحسبة منع تلك الأفعال التي يتسبب بعضها في أذى المارة (299) .

ولقد كان الحاكم يهتم بالطريق ويأمر بتوسيعه إذا كان ضيقا ، فقد رأينا الخليفة الحكم المستنصر يأمر صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بتوسيع المحجة

(293) L. Provencal. op. cit, p. 440

(294) طوق الحمامة 143 .

(295) طوق الحمامة والشراجيب الشرف البارزة من البيوت وهي تشبه ما يعرف في مصر باسم « المشربية » .

(296) طوق الحمامة 120 .

(297) ابن عبد الرؤوف 113 .

(298) المرجع السابق 88 .

(299) ابن عبد الرؤوف 110 ، الجرسيفي 122 .

العظمى بسوق قرطبة ، لضيقها عن مخترق الناس وازدحامهم فيها وهدم الحوانيت المتحيفة لعرضها المضيقة لسبيلها (300) .

وكان الشارع لا يخلو من الكتبة العموميين ويسميهم السقطي « كتاب الشارع » ، والناس مجتمعون حولهم لكتابة شكاواه وخطاباتهم ، وكان يُحَرَّمُ عليهم كتابة سب أحد أو هجره أو ما يتضمن سعاية للسلطان (301) .

لقد شهدت شوارع قرطبة في القرن الخامس الهجري أحداثا هامة كانت لها آثارها المختلفة على قرطبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وعلى سبيل المثال مشهد خروج العسكر للغزو .

ففي سنة 395 هـ/ 1004 م خرج عبد الملك المظفر إلى جليقية وسارت العساكر ، وقد اصطف لها النظارة من أهل قرطبة ومن طرأ إليها من الجهات في خلائق لا يحصيهم إلا الذي أحصى آجالهم وأرزاقهم (302) .

وفي سنة 398 هـ/ 1007 م كان الوزير عيسى بن سعيد وزير المظفر عبد الملك مكروها من أهل قرطبة ، ومن أقبح ما فعله في الطريق في بعض ركباته من داره إلى الزاهرة يومئذ أن أهل قرطبة كانوا يناولونه شكاواهم وهو يجمعها في كفه ، حتى ضاقت عنها فرمى بها جملة في الخندق والناس ينظرون إليه فتحدثوا بقبحه (303) .

وقد شهدت شوارع قرطبة أحداث الفتنة ومآسيها ، فذكر ابن عذارى نقلا عن إبراهيم بن القاسم أنه تم على أيدي بضعة عشر رجلا من أراذل العامة حجامين وفرانين وكنافين ونيالين فتح قرطبة وهدم مدينة الزّهراء .

---

(300) ابن حيان : المقتبس ، الحجى ص 71 .

(301) السقطي 68 .

(302) ابن عذاري 11/3 .

(303) ابن عذارى 28/3 .

وخُلع خليفة قديم من الولاية وهو هشام بن الحكم ونُصب خليفة لم يتقدم له عهد ولا وقع عليه اختيار وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وتم كل ذلك في نصف نهار واعتبر الكاتب أن ذلك من أعجب ما رأى من عبر الدنيا (304) .

وشهدت قرطبة مصرع صاحب مدينتها عبد الله بن عمر ورفع رأسه على رمح (305) ومر به في شوارع المدينة ، وتم ذلك بيد رجال المهدي . وشهد باب السدة بقرطبة جثّة شنجول رمزا رفعه المهدي لأهل قرطبة على إنهاء عهد العامريين ، وكان المهدي قد أمر بشق بطنه وتحنيطه بعقاقير تحفظه ، وركب رأسه على جسده وكسى قميصا وسراويل وأخرج وسير على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصب رأس ابن غومس على خشبة دونها إلى جانبها (306) .

وحين تم الأمر لمحمد المهدي شهدت شوارع قرطبة الأفراح ، وسر أهل قرطبة بولايته سرورا عظيما وأحدثوا برحابها وأرباضها ولائم وأعراسا ، (307) وداموا على ذلك أيّاما تباعا وهم ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاهي راجين تمام أملهم وانتظام أمرهم (308) .

وشهدت شوارع قرطبة عمليات القتل المتبادلة بين أهل قرطبة والبربر (309) ، مدى استخفاف أهل قرطبة بالإسلام في فترة الفتنة ، فقد حدث في أعظم شوارع قرطبة أن وقف نصراني وسب النبيء عليه السّلام فلم يكلمه أحد ، فقال رجل من المسلمين غيرةً للنبيء : ألا تنكرون ما تسمعون ؟ أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك (310) .

(304) ابن عذارى 74/3 .
(305) ابن عذارى 56/3 .
(306) ابن عذارى 73/3 .
(307) ابن عذارى 74/3 ، أعمال الأعلام 112 .
(308) ابن عذارى 74/3 .
(309) المرجع السابق 81/3 .
(310) ابن عذارى 98/3 .

وشهدت شوارع قرطبة رحيل الإفرنج الذين كانوا يمدون المهدي عنها ، فكان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر همّ حتى كان بعضهم يلقى بعضا فيعزيه كما يعزي من فقد أهله وماله أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول البربر إليهم (311) .

وشهد الناس في قرطبة أثناء الفتنة أيضا إحراق سوق السرادق (312) وسوق الخشابين (313) ، وقتل القرطبيين لابن بكر رسول واضح للبربر واحتزُّوا رأسه وطافوا به الشوارع على رمح (314) ، ثم عمليات الحفر بالطريق وذلك حين أمر ابن عبد الجبار بحفر خندق حول السرادق خوفا من البربر (315) .

وتمّت عمليات حفر أخرى حول مدينة قرطبة على أفواه الأرباض وكانت أكوام التراب والحجارة على الجانبين (316) .

وخرج عامة قرطبة ــ بعد هزيمة المستعين ــ إلى الزهراء فنهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر وقتلوا من وجدوا بها منهم (317) .

ولما جاء عيد الفطر سنة 401 هـ/ 1010 م لم يقدر أحد من القرطبيين أن يخرج إلى المصلى وصلوا في الجامع جزعا وخوفا ، وفي نفس العام شهدت قرطبة سيلا سببه فيضان نهرها ، فأدى إلى هدم نحو ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر وقتل الآلاف ردما وغرقا ، وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم وهدم أكثر السور وردم كثير من الخندق ، وأقام هذا السيل ثلاثة أيام (318) .

---

(311) المرجع السابق 99/3 .

(312) ابن عذارى 80/3 .

(313) ابن عذارى 107/3 .

(314) المرجع السابق 104/3 .

(315) ابن عذارى 87/3 .

(316) المرجع السابق 87/3 ، 99 .

(317) المرجع السابق 95/3 .

(318) ابن عذارى 105/3 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وفي سنة 402 هـ/ 1011 م نزل البربر بغربي الوادي فحدثت معركة بين خمسة من كبار فرسان البربر وبين سبعين فارسا من أهل قرطبة وراء خندق، وقتل في هذه المعركة عدد كبير من القرطبيين وجرح القائد البربري حباسة بن ماكسن ولما عرفت شخصيته قتلوه وقطعوه قطعا وتهادوا لحمه فأكلوه (319).

وهذا الحدث يبين لنا مدى كره القرطبيين لحباسة لشجاعته ولما أنزل بهم من قتل.

شهدت شوارع قرطبة خروج الجند على واضح وقتله واحتزوا رأسه وطافوا به البلد (320)، وذلك حين فشل في محاربة البربر وفك حصارهم لقرطبة وألقوا به في الموضع الذي طرح فيه جثّة ابن عبد الجبار ونهبت دوره وخزانته وألفيت أمواله ميسرة ورحاله مشدودة.

وفي سنة 403 هـ حين تم للبربر هزيمة القرطبيين ودخلوهم قرطبة أتى إلى حبوس بن ماكسن رجل قرطبي وعرفه بقاتل أخيه، فركب في بعض أصحابه فاستخرجه وقتله واضرم داره نارا وحرقها، ووجد له مالا فأخذه ومن جملة ما وجد له أربع عشرة جارية وفرشا كثيرا وسلاحا وافرا واستخرج أخاه فما وجد إلا عظامه وقد أكل لحمه (321). وكان لهذا المشهد أثره على القرطبيين الذين نظروا إلى حبوس نظرة المغش عليهم من الموت، فخافه الناس وهرب كثير منهم وأسلموا ديارهم وأموالهم واستولى عليها البربر.

وفي سنة 407 هـ/ 1016 م تم لعلي بن حمود دخول قرطبة، فقتل سليمان وأخاه عبد الرحمن وأباهما الشيخ، وشاهد أهل قرطبة رؤوسهم في طست ومن ينادي عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد (322). وفي أول عهده شاهد أهل قرطبة محاولته لإقرار العدل وتهدئة الأحوال، إذ أمر علي بن حمود بضرب عنق

(319) ابن عذارى 112/3.
(320) أعمال الأعلام 118.
(321) ابن عذارى 115/3.
(322) ابن عذارى 117/3، أعمال الأعلام 121.

أحد البرابرة على حمل عنب قال : أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر بقتله وطيف برأسه بسائر البلد (323) .

وفي آخر عهد علي بن حمود قل ظهور القرطبيين في الشوارع نهارا وخلت أسواقهم ، فإذا دنا المساء انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم ، (324) وكان وصف ابن حزم لهذا المشهد : « عاد نهارها تبعا لليلها في الهدوء والاستيحاش » (325).وحين قتل علي بن حمود 408/ 1017 م بيد صقالبة القصر شاهد أهل قرطبة مقتل صبيين منهما قتلا وصلبا على جسر قرطبة (326) .

وصف ابن حزم مشهد الدور ببلاط مغيث في الجانب الغربي لقرطبة وتأثير الفتنة عليها : « وقد امّحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى ، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعابا مفزعة بعد الأمن ومأوى للذئاب ومعازف للفيلان وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ويجلو المهموم حسن منظرها حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وترك عواقب أهلها (327) .

تلك كانت صورة قرطبة كما رآها شاهد عيان ورواها لابن حزم .

وشاهد أهل قرطبة في عهد المستكفى 415 هـ/ 1024 م خراب قصور الناصر وطمس أعلام قصر الزاهرة (328) .

---

(323) ابن عذارى 121/3 .

(324) ابن عذارى 123/3 .

(325) أعمال الأعلام 106 ، 107 ، طوق الحمامة 94 .

(326) ابن عذارى 122/3 ، أعمال الأعلام 129 .

(327) طوق الحمامة 94 ، أعمال الأعلام 106 ، 107 .

(328) ابن عذارى 142/3 .

كما شهدوا موكب جيش قرطبة لاستقبال المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية في ذي الحجة سنة 420 هـ/ 1029 م ، وعندما قرر شيوخ قرطبة إلغاء الخلافة كان القرطبيون يشاهدون ويسمعون المنادين في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد من بني أمية في قرطبة ولا يكنفهم أحد (329) .

وشهدت شوارع قرطبة أيضا نهب العامة لقصر عبد الملك بن جهور (330) بعد استيلاء ابن عباد على قرطبة .

وكان مشهد خروج الشيخ أبي الوليد بن جهور ومعه أولاده وجواريه من قرطبة إلى جزيرة شلطيش (331) مشهدا حزينا ، فقد كان محمولا بين عدلي تبن على ظهر زاملة قد أركب خلفه من يمسكه (332) .

وقال ابن بسام : « إن هذا المشهد أقر عيون الحاسدين » (333) . وحين وصل الشيخ إلى وسط القنطرة رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل في الدعاء إلى الله فكان مما حفظ عنه قوله : « اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا » (334) .

وشهدت قرطبة هجوم ابن عكاشة ودخوله داعيا لابن ذي النون الذي دخلها في أبهة وعظمة ، وأخذ بيعة أهلها في خمس بقين من جمادى الآخرة سنة 467 هـ/ (335) 1074 م .

وكان مقتل ابن عكاشة على قنطرة قرطبة بيد يهودي من رجال قرطبة (336) ، وعادت قرطبة إلى حكم ابن عباد مرة أخرى بعد وفاة ابن ذي النون ومقتل ابن عكاشة في ذي القعدة 467 هـ » (337) .

(329) ابن عذارى 152/3 .
(330) المرجع السابق 260/3 .
(331) أعمال الأعلام ص 150 « شلطيش جزيرة في نهر إشبيلية » .
(332) أعمال الأعلام 151 .
(333) ابن عذارى 258/3 .
(334) ابن عذارى 258/3 ، أعمال الأعلام 151 .
(335) أعمال الأعلام 158 .
(336) المرجع السابق 159 .
(337) المرجع السابق 159 .

الأعياد والمواسم والاحتفالات

كان المجتمع القرطبي يهتم كثيرا بالاحتفال بمختلف الأعياد ، فالاحتفال بعيد الفطر يبدأ مع هلال شوال ونهاية صوم رمضان الذي كان يصومه كل أفراد الأسرة البالغين .

ويصف بروفنسال مشهد الشوارع بعد الإفطار خلال شهر رمضان فيقول إنها كانت تعج بالحيوية ، وتظل المتاجر مفتوحة لوقت متأخر من الليل والباعة الجائلون والحلوانية وباعة المشروبات المثلجة يجتهدون في إرضاء عملائهم (338) ، وفي ليلة 27 رمضان تكون جميع المساجد مضاءة غاصة .

ويرى الطرطوشي أنه من البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس في هذا اليوم على ابتياع الحلوى ، (339) أما بدء عيد الفطر فيذكر ابن حيان أن تحديده كان من اختصاص قضاة كور الأندلس وأهل الشورى الذين كان عليهم التحقق من رؤية هلال شوال معلنين بدء عيد الفطر ، وأحيانا كان بدء عيد الفطر يتفاوت في كور الأندلس المختلفة ففي أحداث سنة 360 هـ/ 970 م أفطر الناس في أكثر كور الأندلس وفي العدوة يوم الخميس ، بينما أفطر أهل قرطبة ومن جاورها يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من يوليو (340) .

وقد كان الناس يهنيء بعضهم بعضا بمقدم العيد ، وكان الشعراء ينشدون الشعر بين يدي حكامهم مهنئيهم بهذا العيد (341) ومهنئين المسلمين به .

---

(338) L. Provenca, Hist. Esp. Musl. Vol. III, p. 436

(339) الحوادث والبدع 140 .

(340) المقتبس تحقيق الحجى 28 .

(341) النفح 76/3 ، 400 ، ديوان ابن دراج تحقيق د. محمود مكي : قصيدة في عيد الفطر ص 554 — 561 ، قصيدة أخرى ص 188 — 194 .

أما عيد الأضحى : الذي يأتي في العاشر من ذي الحجة فقد كان فرصة للاحتفال والتأنق في المطاعم والمشارب واتخاذ الزينة على تفاوت المستويات المعيشية ، فقد كانت كل أسرة فقيرة أو غنية تحرص على تقديم الأضحية خروفا على الأقل ، وقد جرى التقليد على شراء الأضحية قبل النحر بيوم أو يومين ، (342) وكان يحدث أن يشترى الشخص أضحية ثم يجدها عجفاء فيريد ردها للبائع بحجة أن هذا عيب فيها فيرى ابن دحون وغيره « أنهما لم يريا له رجوعا بقيمة عيب ولا رد ، لأنه مما يستوي فيه علم البائع والمشتري من العيوب الباطنة » (343) . وقد أيد هذه الفتوى ابن القطان وابن عتاب (344) .

ولقد كان هذا العيد بالنسبة للأسرة القيرة يسبب للآباء الكثير من الضيق المالي ، ومع ذلك فإنهم كانوا لا يرون بأسا في أن يستدينوا ليشتروا الأضحية ويشتروا الملابس الجديدة للزوجة والأولاد قبل العيد ببضعة أيام (345) .

ويرى الطّرطوشي أن الناس يتنافسون في الضحية للافتخار لا للسنة ولا لطلب الأجر بل لإقامة الدنيا (346) .

أما أصحاب البيوتات الأندلسية الذين يملكون الإقطاعات فإنهم يتلقون من مزارعهم في هذه المناسبة الدجاج والبيض والخضرويات بالإضافة إلى كبش سمين .

ويتميز العيدان بصلاة جماعية في المصلى الواقع خارج مدينة قرطبة ، يؤمه القاضي أو صاحب الصلاة ، وكان كل الرجال يجتمعون لصلاة الجماعة وكذلك النساء ، إلا أنه في فترة الفتنة البربرية في سنة 401 هـ/ 1010 لم يستطع أهل قرطبة الخروج إلى المصلى وصلوا في الجامع خوفا وجزعا (347) ، ولعل ذلك

---

(342) ابن عبد الرؤوف 110 .

(343) ابن سهل ورقه 177 .

(344) المرجع السابق نفس الورقة .

(345) Op. cit, p. 437

(346) الحوادث والبدع 142 .

(347) ابن عذارى 107/3 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

تكرر مرات عديدة طوال فترة الفتنة القرطبية 399 ــ 422 هـ/ 1008 ــ 1030 م .

أما في عهد بني جهور وبنيّ عباد والمرابطين فقد رجعت العادات إلى ما كانت عليه من قبل .

وبعد الصلاة ينتشر الناس مهنئين بعضهم بعضا ، ثم يبدأ العيد في بهجة وسرور .

ويذكر ابن حيان أن من العادات المتبعة في عيد الفطر في ظل الخلافة الأموية بعد انقضاء صلاة العيد ، جلوس الخليفة لاستقبال المهنئين ، ويصف لنا مثلا مجلسا للخليفة المستنصر في محراب المجلس الشرقي (348) من قصر الزهراء ومعه ولي عهده بعد صلاة عيد الفطر في سنة 363 هـ/ 973 م (349) .

وأحيانا أخرى يجلس في المجلس الغربي من دار الروضة (350) ومعه الوزراء والكتاب ورجالات الدولة بنظام مرتب حوله ، (351) ويأتي الشعراء والخطباء منشدين أشعارهم ومهنئين بالعيد ، (352) ويأتي أصحاب البيوتات الأندلسية وقضاة الكور والموالي والقبائل والوفود مهنئين .

---

(348) هو أحد أجنحة قصر الزهراء ، وربما كان المجلس الذي يقيم فيه الخليفة الاحتفالات والاستقبالات الرسمية . انظر : ابن حيان ، المقتبس تحقيق الحجى ص 28 هامش 2 .

(349) المقتبس تحقيق الحجى 28 .

(350) نفس المرجع 229 .

(351) نفس المرجع 230 .

(352) نفس المرجع 31 ، 82 ، 86 ، 156 ، 167 ، 231 ، 233 ، ديوان ابن دراج القسطلي تحقيق د. محمود مكي الطبعة الاولى 961 دمشق ص 416 ــ 423 . يهنىء الشاعر المنصور بن أبي عامر في أضحى 382ه / 5 فبراير سنة 992م ــ وقصيدة أخرى له ص 405 ــ 407 ، وقصيدة أخرى يهنىء فيها منذر بن يحى ص 188 ــ 194 . وقصيدة أخرى يمدح ابن زيدون المعتمد في أضحى 455 ديوان ابن زيدون ص 109 ــ 116 .

ولم يكن الاحتفال بعيد الأضحى على طول القرن الخامس ليختلف عن ذلك ، (353) على أننا لا نستطيع الجزم بأن مثل تلك الاحتفالات والعادات كانت متبعة في أوائل هذا القرن ، نظرا لظروف الفتنة البربرية التي استمرت من 399 إلى 422 هـ التي كانت سائدة في قرطبة ، وإن كانت تقتصر على دعوة رجالات قرطبة إلى القصر الخليفي وينشد الشعراء بين يدي الخليفة مهنئين إياه بهذا العيد ، فلقد أنشد ابن دراج قصيدة مهنئا المستعين بعيد الفطر سنة 403 هـ (354) .

أما في ظل أسرة بني جهور وبني عياد والمرابطين فإنّي أتصور استمرار تلك العادات ، من جلوس الحاكم وحضور رجالات دولته للتهنئة ، ولكن تلك المجالس لم تبلغ بالطبع فخامة مجالس الخلافة وأبهتها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

ويرى ابن عبدون « ألا يمشي الرجال والنساء في أيام العيد على طريق واحد عند جواز النهر » (355) .

وكذلك الطرطوشي يرى أنه من البدع خروج الرجال جميعا أو أشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة (356) .

كذلك لم يختلف الناس في أي عصر من العصور عن الاحتفال بعيدين وثنيين معروفين تحت اسم النيروز (357) أو المهرجان كالعجم ، (358) ويرى الطرطوشي أنه من البدع الاحتفال بأول يناير بابتياع الحلوى والفواكه كالعجم (359) .

(353) المرجع السابق 59 ، 96 ، 136 ، 184 .

(354) ديوان ابن دراج 59 — 66 قصيدة ابن دراج مهنئا المظفر منذر بن يحى 259 — 267 .

(355) ابن عبدون 47 .

(356) الطرطوشي 141 .

(357) الذخيرة 47/1/4 .

(358) op. cit, p. 437

(359) الطرطوشي 140 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

وإقامة العنصرة (360) وخميس أبريل (361) بشراء المجبنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة .

وكان المستعربون أكثر ارتباطا من المسلمين بهذه الأعياد ، التي كانت أكثر ثباتا من الأعياد الاسلامية ، لأنها كانت تقع دائما في فصل محدد ذلك لارتباطها بالتقويم الجولياني ، والذي كان سائدا في شبه الجزيرة الأندلسية في تحديد فصول السنة الزراعية ، (362) وكانت النصرانيات يذهبن إلى الكنيسة للصلاة في أعيادهن (363) .

لقد كان من العادات المتبعة في القرن الخامس الهجري في قرطبة الاحتفال بحفلات الختان ، وهي امتداد لما شاع في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر ، حين ختن أولاده وختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء عددا لا يحصى ، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار خمسمائة ألف دينار ، «وهذه مكرمة مخلدة ومنه مقلدة » (364) .

والختان سنة في الذكور واجبة ، والخفاض في النساء مكرمة (365) . وكان يقوم بعملية الختان الأطباء والطبيبات ، ويرى ابن عبدون أن يجبر القسيسون على الختان كما كان يفعل معهم المعتضد بن عباد ، فإنهم متبعون بزعمه لسنة عيسى — عليه السلام — وعيسى قد اختتن ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه ، (366) وكان الشعراء يهنئون الحكّام في تلك المناسبات التي كانت تقام فيها الولائم ويدعى

(360) المرجع السابق هامش 141 « مازالت تعرف الى يومنا بهذا الاسم ، وتعرف أيضا باسم المهرجان ويحتفل بها في 24 يونيه » .

(361) الطرطوشي هامش 141 ، الخطط المقريزيّة عن أعياد النصارى 264/1 — 267 .

(362) تستكمل الحاشية .

(363) ابن عبدون 48 .

(364) نفح الطيب 128/2 .

(365) ابن أبي زيد القيرواني ، الرسالة 160 ، 304 .

(366) ابن عبدون 49 .

إليها رجال الحكومة وأصحاب البيوتات القرطبية . وللشاعر ابن دراج قصيدة في إعذار ابن المظفر عبد الملك (367) وهو محمد أبو عامر بن عبد الملك ، وتاريخ تلك القصيدة بين سنتي 392 ، 398 هـ (368) ، وقد شهد هذا الإعذار الخليفة هشام المؤيد . ومن إعذارات الطبقة الحاكمة التي حفلت بها المراجع إعذار ابن ذي النون ، فقد أورد ابن حيان وصفا طريفا لإعذار المأمون بن ذي النون لحفيده ، فحدد مراسم استقبال المدعوين وعملية ختان الحفيد وختان أطفال كثيرة من بني جنسه معه ، ووصف أيضا ابن حيان موائد الأطعمة المختلفة الأصناف ومجالس الأنس والطرب في تلك المناسبة (369) .

وإذا كانت الطبقة الموسرة تهتم بتلك الاحتفالات فإن طبقة العامة كانت تحتفل بها أيضا ، ولكن احتفالاتهم كانت لا يتخللها مظاهر الأبهة والثراء والولائم الفخمة والموسيقى والغناء التي رأيناها ، أما حفلات الزواج فقد سبق لنا الكلام عنها (370) .

وسائل اللهو والطرب

على الرغم من أن الصيد كان إحدى الهوايات المستحبة للخليفة الأندلسي وحاشيته وكبار رجالات الدولة ، فليس معنى ذلك أنه كان مقتصرا على هذه الطبقة بل شاركت في هذه الهواية جميع الطبقات ، وكان منهم الذين يتكسبون من تلك المهنة ويبيعون صيدهم

(367) ديوان ابن دراج تحقيق د. محمود مكي ص 30 — 32 .
(368) المرجع السابق هامش 30 .
(369) انظر ابن بسام ، الذخيرة 99/1/4 — 109 .
(370) انظر فصل الزواج .

وكانت هواية الصيد موجهة إلى أنواع من الطيور ، مثل الحجل والرشام (نوع من الحمام البري) وكذلك أنواع من الطيور الجارحة التي ذكر المقرى أنها أكثر من أن تحصى (371) ، ومن الحيوان مثل الأرانب البرية والوز الوحشي والبط والكركي والغزال والأيل (372) وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما اختصت به البيئة الأندلسية ، مثل الحيوان المعروف باسم اللب وهو أكبر بقليل من الذئب (373) .

وبالطبع كانت تلك الطيور والحيوانات تذبح وتزال جلودها أو ريشها وتنظف ثم تطبخ أو تباع .

وكانت طريقة الصيد باستخدام الفخ أو بمطاردة الكلاب (374) للفريسة أو استخدام الصقور التي كانت تربى في مناطق كثيرة من شبه الجزيرة الأندلسية بناحية لبلة وناحية أشبونة المشهورة بصقورها التي لا يوازيها في هذا المجال أي شيء آخر في الانقضاض على الفريسة ، (375) وقد كانت الكلاب تكتشف أماكن الخنزير البري والأيل فتطاردها ومن ثم تصطاد باستخدام الحربة .

وكان يحيى بن حمود يسلك سبيل والده علي بن حمود في الفروسية وحب ركض الخيل والخروج للقنص (376) .

ومن ألعاب التسلية : لعبة البولو (الصولجان) التي كانت لها شعبية كبيرة (377) في نفس الوقت بالشرق الإسلامي .

---

(371) نفح الطيب : 185/1 .

(372) الأيل : الوعل الذكر وهو التيس الجبلي .

(373) «أهدى نصراني الى المعتمد كلب صيد» ، انظر نفح الطيب 63/5 .

(374) L.Provencal, Hist. Esp. Musl. Vol III, p. 442

(375) المرجع السابق نفس الصفحة

(376) ابن عذارى 132/3 .

(377) op. cit, p. 443

وكانت تنظم معارك للحيوانات في ميدان على شكل دائري ، منها ما كان يدور بين ثور وكلب ، وربما كان في أمثال هذه الرياضيات نواة لمصارعة الثيران الّتي ازدهرت في إسبانيا فيما بعد (378)

وسباق الخيل وفن الفروسية تفشى بعد ازدياد هجرة الفرسان البرابرة في نهاية القرن الرابع وطوال القرن الخامس الهجري من المغرب إلى الأندلس ، ويرى ابن أبي زيد القيرواني « أنه لابأس بالسبق بالخيل وإن أخرج المتسابقان شيئا يكون بينهما محللا يأخذه الفائز الأول منهما » (379) . وهناك شعر لأحد الشعراء في جذوة المقتبس في وصف حلبة سباق الخيل (*) . ولقد فاز فرسا المعتمد بن عباد بالمركز الأول في التسابق بين خيل ندمائه (380) .

ولعبة الشطرنج : نقلت إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بفضل المغني زرياب وبعض النازحين من العراق ، وبفضله انتشرت هذه اللعبة وقد أورد ابن حيان نصا تحدث فيه عن غرام أهل قرطبة بهذه اللعبة منذ أيام الأمير محمد (381) .

وذكر صاحب الذخيرة عن إبن حيان أن عبد الملك المظفر تمسك بمن كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة وكان منهم « الشطرنجي » ، فقدرهم على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الفوز بصحبته (382) ، وكان من شدة كلف أهل قرطبة بهذه اللعبة أن كان اللاعبان يستغرقان أحيانا النهار كله وبعض الليل جالسين أمام رقعة الشطرنج غير مهتمين بطعام ولا غيره (383) ، وكان الوزير

---

(378) op. cit. loc, cit.

(379) الرسالة 324 .

* هما بيتان لمحمد بن محمود القبري في ترجمته في جذوة المقتبس ص 93 (رقم 150) .

(380) نفح الطيب 142/5 .

(381) ابن حيان ، المقتبس تحقيق مكي ص 180 — 182 .

(382) الذخيرة 60/4/1 .

(383) الذخيرة 177/2/1 .

الشاعر أبوبكر بن عمار (384) ماهرا في لعبة الشطرنج ، واستغل ذكاءه في هذه اللعبة بأن منع ألفونسو السادس ملك قشتالة ـــ الذي كان أيضا ماهرا في هذه اللعبة ـــ من التوغل في أراضي المسلمين والرجوع إلى بلاده بعد أن انتصر عليه في هذه اللعبة بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وتفصيل هذه القصة أوردها لنا عبد الواحد المراكشي في المعجب ، (385) وكانت سفرة الشطرنج التي عملها ابن عمار في غاية من الإتقان والإبداع ، ولم يكن عند ملك مثلها وكانت صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب (386) .

وأصبح هناك لاعبون محترفون ، وتفننوا في عمل الرقعات من الخشب النفيس ومن العاج المذهب ، (387) لكن ابن عبدون نهى عن هذه اللعبة إذا كانت تؤدي على سبيل القمار فإنها حرام وتشغل عن الفرائض (388) .

ويرى صاحب الرسالة أنه لا يجوز اللعب بالشطرنج ، ولابأس بأن يسلم على من يلعب بها ويكره الجلوس إلى من يلعب بها والنظر إليهم (389) .

لعبة النرد : كانت من ألعاب الحظ (القمار) وهي محرمة في الشرع الإسلامي ، إلا أن هذا التحريم لم يكن ينفذ تنفيذا تاما في قرطبة . أما عن أنواع هذه الألعاب فإننا لم نعثر على تفاصيل كثيرة عنها (390) . وهي تلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجرا وفصين ، فكانت لعبة تدور على الصدفة والاتفاق (391) . وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة ، فيحكى أن

---

(384) انظر ترجمته في قلائد المقيان ص 93 ـــ 110 ، المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب 169 ـــ 189 .

(385) المعجب 178 ـــ 180 .

(386) المرجع السابق 178 .

(387) op. cit, p. 443

(388) ابن عبدون 53 .

(389) ابن أبي زيد القيرواني : الرسالة ص 324 .

(390) op. cit, p. 444

(391) أدم متز : الحضارة الاسلامية 252/2 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

رجلا لاعب آخر فغلبه فأخذ منه عشرين دينارا ، (392) ولكن ابن عبدون نهى عن لعب النرد والقرق والأزلام على سبيل القمار فإنها حرام وتشغل عن الفرائض ، (393) ونهى كذلك ابن أبي زيد القيرواني عن اللعب بالنرد ويكره الجلوس إلى من يلعب بها والنظر إليها (394) .

ثم سباق الحمام : الذي شغف به بعض ملوك الطوائف ورجال دولتهم ووزرائهم ، وهو فن (المطيرات) ، وكان لتلك الطيور رموز متعارف عليها ولدينا نماذج كثيرة من هذه النصوص الأدبية الخاصة بالطيور وأوصافها في ديوان ابن زيدون وخصوصا في مساجلاته مع المعتمد ابن عباد (395) . ولم تذكر المراجع الأندلسية أن تلك اللعبة كانت منتشرة في قرطبة في القرن الخامس الهجري ، وإن كانت منتشرة في الشرق وأولع الناس بها رغم إنكار الفقهاء لها ، وزاد انتشارها في مصر في القرن الخامس الهجري . وكان يستخدم الحمام في المراسلات الحربية ، «فطير الراضي حماما إلى أبيه بذلك فأذنه بتركها والارتحال عنها إلى رندة ففعل » (396) . وطير ابن عباد من ساحة القتال في معركة الزلاقة الحمام إلى ولده الرشيد حاملا أخبار النصر في المعركة (397) .

ولعبة اللطمة والمقرع والعصى : (398) كانت تمارس بين الشباب بالرغم من نهي ابن عبدون وغيره الشبان والصبيان عن ممارستها لأن ذلك ينذر بالنفاق والهرجْ (399) .

---

(392) المرجع السابق 253/2 .

(393) ابن عبدون 53 .

(394) الرسالة : ص 324 .

(395) راجع ديوان ابن زيدون تحقيق محمد سيد كيلاني القاهرة 1965 ص 136 — 146 .

(396) وذلك أثناء حصار القائد اللمتوني داوود بن عائشة للجزيرة الخضراء عند مقدم المرابطين للأندلس ، انظر الحلة السيراء 100/2 والتبيان 102 — 103 .

(397) وفيات الأعيان 118/7 .

(398) ابن عبدون 52 ، ابن عبد الرؤوف 124 .

(399) ابن عبدون 52 .

ويرى ابن عبد الرؤوف أن يؤمر الناس بتعلم النشاب والرماية والسباحة ولا حرج عليهم في ذلك (400) .

لهو الطبقة الموسرة :

كانت الحياة الخاصة لخلفاء فترة الفتنة القرطبية تحفل بأنواع الملاهي المختلفة ، ويذكر على سبيل المثال أن الخليفة محمد بن عبد الجبار أظهر الخلاعة والضعف ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، واستعمل له مائة بوق للزمر ، ومائة عود للضرب ، واشترى له صقلبيا كان يتعشقه ، ومن النساء جارية يقال لها بستان وأخرى اسمها واجد . وكان لا يفيق من سكر ولا يتورع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي (401) ، حتى قال فيه الشعراء شعرا يشمئزون فيه من سلوكه ونومه بين الخنثين (402) . ولقد كانت بقرطبة جملة من الفتيان المجابيب ــ وهم من الصقالبة ــ ممن أخذ بأوفر نصيب من الآداب (403) .

وخليفة آخر هو محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله قال عنه ابن القطان «كان أسير الشهوة عاهر الخلوة » (404) ، وعندما عزم على الهروب من قرطبة لبس ثياب الغانيات منتقبا بين امرأتين لم يميز منهن ، وخرج من قرطبة ومات بأقلبيح (405) ولقد كان صاحب أكل وشرب وجماع (406) .

---

(400) ابن عبد الرؤوف 113 .

(401) البيان المغرب 80/3 ــ 99 .

(402) المرجع السابق 80/3 ، نفح الطيب 111/2 .

وقال فيه الشعراء شعرا كثيرا منه قول أحدهم :

أمير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يجمش ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيها ... ضعيف العقل شيئا غير زين

انظر البيان المغرب 80/3 .

(403) نفح الطيب 81/4 .

(404) اللبيان المغرب 141/3 .

(405) المرجع السابق 142/3 .

(406) المرجع السابق نفس الصفحة .

أما آخر خلفاء بني أمية وهو هشام بن محمد المعتمد بالله فقد أعد له وزيره الحائك من القينات والملهيات والشهوات (407) ليلهو بهن ويترك له تدبير الأمر .

تلك كانت حال بعض خلفاء الفتنة القرطبية ولهوهم .

وفي عصر بني جهور وهو عصر الاستقرار لم تعد قرطبة كما كانت سابقا موردا عظيما لتجارة الملهيات من الجواري ، ولكن سمعتها السابقة في هذه التجارة جعلت ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى تلك الملهيات يرسلون إلى قرطبة رسلهم للبحث والتنقيب عن الأوصاف التي يبغونها من الجواري . ويقول ابن حيان « إنه في شوال من سنة 442 هـ ورد على أبي الوليد بن جهور إلى قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن ــ وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ ــ فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما له » (408) وأضاف ابن حيان «إنه في هذا العام أيضا بعث المعتضد بن عباد رسوله إلى قرطبة لشراء قينة ابن الرميمي ــ بعد وفاة صاحبها الوزير القرطبي ــ لما وصفت له بالحذق في صنعتها » (409) .

وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه في سنة 403 هـ/ 1061 م ورد عليه من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة (410) تلك كانت قرطبة في عهد بني جهور ، بقيت لها بعض الشهرة في الطرب واللهو ، وإن كانت لم تبلغ شهرتها في القرن الرابع الهجري ، ففي القرن الخامس الهجري كانت قصور ملوك الطوائف تعج بالمغنيات والراقصات ومجالس اللهو والطرب وتنافس قرطبة ، ولقد

---

(407) المرجع السابق 149/3 .

(408) المرجع السابق 212/3 .

(409) المرجع السابق نفس الصفحة .

(410) المرجع السابق 250/3 .

أسهبت المراجع في وصف مجالس أنس المعتمد بن عباد التي كانت لا تخلو من الشراب والغلمان والجواري المغنيات والراقصات ، وكانت تعقد تلك المجالس في القصور والضياع المزروعة بالأزهار والرّياحين بالسهلة غربي قرطبة (411) لتضفي على المجالس ذكاء عبيرها (412) .

ولقد كان انشغال الظافر بن المعتمد حاكم قرطبة ووزيره ابن مرتين باللهو والشراب سببا في فتح ابن عكاشة لمدينة قرطبة وقتله إياهم (413) .

وعندما عزم المعتمد على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية خرج معهن ليشيعهن من أول الليل إلى الصبح فودعهن ورجع (414) .

ولقد كان ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري في الأندلس مشتغلين بشرب الخمر واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان (415) ، ولنضرب مثلا بما ذكره المؤرخون عن ابن زرين صاحب السهلة ، قال ابن عذارى في ذكر دولة بني زرين شرق الأندلس « إن هذيل بن لب بن زرين البربري تولى من سنة 403 ـ 436 هـ/ 1012 م ـ 1044 م » كان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات واقتناء القينات ، واشترى جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار ، وأنه كذلك اشترى كثيرا من الجواري المحسنات المشهورات بالتجويد ، طلبهن من كل جهة فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الأندلس (416) .

وأثناء الخلافات الدائرة بين ملوك الطوائف ومحاربة بعضهم بعضا ، كان الجنود أثناء ذلك لا يتركون فرصة في «ارتياد الفتيات وطراد الملذات » (417) .

---

(411) طوق الحمامة 66 ، الحلة السيراء 54/2 .

(412) نفح الطيب 62/5 ، 154/2 ، 155 ، 156 .

(413) أعمال الأعلام 151 ، 158 .

(414) نفح الطيب 8/6 ، 14 ، 15 ، 16 ، وفيات الأعيان 25/5 .

(415) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس 77 .

(416) ابن عذارى 308/3 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

ولقد أوردت لنا المراجع دور أديرة النصارى ومنتزهات قرطبة في اللهو (418) .

لقد كانت للفتنة القرطبية أثرها على هلاك بعض الملهيين المشهورين بقرطبة ، فذكر صاحب الذخيرة عن بعض الظرفاء : هلك أثناء الفتنة أخلاط من « كل طبقة حتى من أهل الباطل فإنها ألصقت بالصميم في قتل قنبوط الملهى وزربوط المغني ونمطها فهيهات أن يخلق الدهر مثلهما » (419) .

ووقف الفقهاء موقفا متشددا من إباحة الفسق ، ولكن بالرغم من ذلك كانت ممارسته شيئا مألوفا بالنسبة لغالبية الناس على جميع طبقاتهم ، وإن كان يشوبه التستر والحرص ، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم يحكى لنا كثيرا من قصص اللهو ، منها أن عبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الحريري « صار حديثا للسمار وتصاغ فيه الأشعار لأنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعا في الحصول على بغيته من فتى عشقه » (420) .

«وكان ابن الأصفر مريضا بعشق عجيب فتى الوزير أبي عمر أحمد بن جدير ، وكان يأتي إليه في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة ، تاركا الصلاة

---

(417) قلائد العقبان 21 .

(418) أديرة النصارى ودورها في اللهو بقرطبة ، ويراجع في ذلك النص الخاص بابن شهيد الأندلس — راجع الديوان ص 115 — 116 ، الذخيرة 222/1/1 ، مطمح ص 19 ، المغرب 81/1 ، نفح الطيب 66/2 — 67 .
كذلك المنتزهات التي يذكرها الفتح بن خاقان في القلائد ومجالس اللهو) فيها وأنشد أبياتا من جملتها :

سايـرتهم والليـل غفـل ثوبـه حتى تبـدى للنواظـر معلمـا
فوقـفت ثم مودعـا وتسلـمت مني يد الإصباح تلك الأنجمـا

(419) الذخيرة 31/1/1 .

(420) طوق الحمامة ص 130 .

في مسجد مسرور الذي كان يسكن فيه حتى أخذه الحرس أكثر من مرة في الليل بعد الانصراف عن صلاة العشاء ، وكان الفتى يغضب ويقوم إليه فيوجعه ضربا ويلطم خديه وعينيه فيسر بذلك » (421) .

وكان أحمد بن فتح وهو من أبناء الكتاب صار حديثا للسمار لعشقه فتى يسمى إبراهيم بن أحمد (422) .

ولقد كان بعض الرجال لا يطيق الصبر على المحبوبة ، فكان أبو عامر محمد بن عامر ينفق عشرات الألوف من الدنانير في امتلاك الجواري ويتمتع بهن ثم يبيعهن بأبخس الأثمان (423) .

وكان بعض الرجال يبيع الجارية فيكتشف حبه وولعه بها وأنه لا يستطيع الحياة بدونها ، فيحاول استردادها بأي ثمن حتى إن أندلسيا أقدم على الانتحار عندما فشل في استرداد جاريته التي باعها (424) .

ولقد أورد ابن حزم بعض قصص من فقدوا عقولهم نتيجة لهذا الحب (425) .

وروى أن إحدى بنات القواد وقعت في حب أحد الفتيان لدرجة الجنون (426) .

ولقد كانت علاقة الحب بين الفتى والفتاة تحاط بالسرية التامة ، ويتحايلان لذلك بشتى الوسائل حتى لا يفتضح أمرهما ، وإن كانت مثل تلك العلاقة غير مرغوب فيها من ولي الأمر (427) أو صاحب الجارية ، الذي كان يعاقبها

---

(421) طوق الحمامة 44 .
(422) المرجع السابق 41 .
(423) المرجع السابق 73 .
(424) المرجع السابق 120 ، 121 .
(425) المرجع السابق 104 .
(426) المرجع السابق نفس الصفحة .
(427) المرجع السابق 66 .

بالضرب الشسديد والإيذاء إذا علم أن هناك علاقة حب بين جاريته وأحد الشبان (428) ، ومع ذلك لا تبوح الجارية بشيء (429) .

وكانت تضرب المواعيد لتلك اللقاءات ويتراسلون بالخطابات (430) .

وأماكن اللقاءات عديدة : في المنتزهات في قرطبة أو الجلوس أو المشي على ضفاف النهر الكبير بقرطبة أو ركوب القوارب والسير في النهر ، حتى إن ابن عبدون يرى «قطع النزاهات للنساء والخلاع في الوادي واجب فإنهن متبرجات » ،(431) وكذلك « يمنع النساء من الجلوس صيفا على ضفة الوادي إذا ظهر الرجال فيه » (432) .

وإن كان الجرسيفي يرى منع خروج النساء للنزهات إلا مع زوج أو ذي محرم (433) .

وكان يحدث أحيانا أن يصل العاشق إلى محبوبته ليلا أو نهارا لرؤيتها والتحدث معها ، (434) محتالا في ذلك بشتى الحيل . « وكان العاشقان يتهاديان خصل الشعر المبخرة بالعنبر والمرشوشة بماء الورد وقد جمعت في أصلها بالمصطكى وبالشمع الابيض المصفى ولفت في تطاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك ليكون تذكره عند البين » (435) .

وكان شرب الخمر في قرطبة أمرا لا غرابة فيه ، وقد حاول ابن جهور منع القرطبيين من شربها وكسر دنان الخمر ، فمدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون في قصيدة له واصفا إياه (436) بأنه حامي الدين .

---

(428) طوق الحمامة 49 .

(429) طوق الحمامة 49 .

(430) المرجع السابق 24 ، 84 .

(431) ابن عبدون 57 .

(432) ابن عبدون 46 .

(433) الجرسيفي 121 .

(434) طوق الحمامة ص 60 .

(435) طوق الحمامة 96 .

(436) الذخيرة 364/1/1 : ابن زيدون يستهدي المعتضد خمرا ، راجع ديوان ابن زيدون ص 120 — 121 .

ولقد حفلت المراجع الأدبية بأشعار الأدباء وعشقهم ولهوهم ، ففي أشعار ابن زيدون الكثير من الغزل بولادة (437) مما يدل على الحرية في العلاقات بين الرجال والنساء على نحو لم يكن متوفرا في القرن السابق . وكان بخارج قرطبة القصر الفارسي الذي ذكره الوزير أبو الوليد بن زيدون في قصيدة له يصف فيها منتزهات قرطبة ، وكان له فيه ذكريات جميلة (438) .

ولقد أبدع الشعراء والكتاب في تصوير عشقهم وشغفهم بالغلمان والجواري شعرا (439) .

وكان التغزل باحدى بنات الخلفاء مدعاة للسخط على الشاعر وعلى آل بيته ، ففي القرن الرابع الهجري قتل أحمد بن مغيث واستؤصل آل مغيث وانقرض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضال ، وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء ، (440) وكذلك أمر المنصور بن أبي عامر بقتل جارية غنت شعرا فيه غزل بصبح أم المؤيد (441) .

ولم نر أثرا ، لهذا التشدد في القرن الخامس الهجري ، وكان لبعض أغنياء قرطبة والولايات الأندلسية منازلهم التي تحيط بها البساتين (442) وبيوتهم الخاصة في ضواحي قرطبة يمارسون فيها لهوهم .

وكانت لهم الضياع على سفح جبل قرطبة ، ويملكها أصحاب البيوتات الميسورون في قرطبة ، فلقد توجه يوما الأديب أبو بكر بن هذيل إلى ضيعته بسفح جبل قرطبة فصادف أبا بكر بن القوطية وكانت له أيضا هناك ضيعة (443) فسأله : من أين أقبلت ؟ فكان رد ابن القوطية :

---

(437) نفح الطيب 256/4 ، 257 ، 258 ، 259 .

(438) نفح الطيب 19/2 .

(439) نفح الطيب 157/2 ، 158 ، 159 و 302/4 ، 203 .

(440) طوق الحمامة 38 .

(441) المرجع السابق نفس الصفحة .

(442) طوق الحمامة 109 .

(443) نفح الطيب 74/4 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

من منزل تعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا(444)

وقال ابن حيان إن الوزير ابن السقاء اتّخذ دارا آخر « للخلوة بالغلمان ، وأكثر الناس القول في هذه الدار وسموها « دار اللذة » ، وكان يجيئها عند فراغه من أحكامه فيقضي بها راحته ، فإذا جاء الليل عاد إلى دار سكناه التي فيها أهله » (445) .

لقد كان بقرطبة أماكن مصرح بها لقضاء المتعة الجنسية فيها ، وأعتقد أن المستعربين هم الذين كانوا يديرون تلك الأماكن ، وكانت الحكومة تجبي منهم الضرائب على ممارسة تجارة الجنس .

ولقد أورد ابن عبدون هذا النص : « يجب أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق والتحلي للنساء بزينتهن » (446) .

من هذا النص نستنتج أنه كانت هناك فنادق خاصة تسمى دور الخراج للدعارة ، تتجمّع فيها الجواري المختلفات الأجناس والأشكال ، وبالطبع كان الزائر يرى الجارية التي تعجبه قبل ممارسة الجنس معها ويدفع نظير ذلك المبلغ المحدد له ، وأعتقد أن هؤلاء النساء كانت تجبى منهن ضريبة تسمى ضريبة دور الخراج .

وكان غالبية زوار هذه الدور من سكان الريف والتجار العابرين بقرطبة والوافدين عليها لقضاء حاجاتهم الخاصة لمدد قصيرة .

ويرى بروفنسال أن كلمة دار البنات الموجودة في ابن عذارى هي دار للدعارة موجودة في قرطبة ، (447) ولعله استنتج ذلك لأن لفظ دار البنات قيل في

---

(444) الفتاك : جمع فاتك وأراد به اللاهي المحب للبطالة واللهو بدليل مقابلة النساك .

(445) الذخيرة 190/4/1 .

(446) ابن عبدون 51 .

(447) L.Provencal. op. cit, p.445

معرض الكلام عن الفتنة البربرية في قرطبة ، وأن أهل قرطبة نهبوا ديار البربر وهتكوا حريمهم وسبوا نساءهم وباعوهن في دار البنات (448) . وأعتقد أن هذا اللفظ لا يحتمل هذا التأويل الذي وقع فيه بروفنسال ، فلعل هذه الدار كانت دارا لبيع الرقيق ، وفي اعتقادي أن ذلك أقرب إلى الصواب .

الموسيقى والطرب

كانت الآلات الموسيقية معروفة في الأندلس قبل القرن الخامس الهجري ، فنجد منها البوق (449) والكير (450) والمزهر (451) والعود (452) والطنبور (453) والدف (454) .

ولقد ذكر مؤرخو زرياب إبداعه في الفن الموسيقي وكيف استطاعت الموسيقى الأندلسية بسرعة أن تحقق على يده طابعها الذاتي (455) .

(448) ابن عذارى 81/3 .

(449) البوق : آلة مجوفة مستطيلة ينفخ فيها ويزمر ، وهذه الكلمة معربة عن اللاتينية Buccina وقد اختفظت الإسبانية بهذه الكلمة العربية بهذه الصورة albogue انظر
Dozy : supplément... I, p.128 — 129
، أحكام السوق . تحقيق د. محمود مكي ص 119 هامش 3

(450) الكير : هو الطبل معرب عن اللاتينية Corus,Caurus
أحكام السوق : نفس الصفحة هامش 4 .

(451) المزهر : هو الدف الكبير Dozy : supplément, I,p. 609
Dozy : supplement. II, p. 437 — 438
أحكام السوق : نفس الصفحة هامش 5 .

(452) العود : من آلات العزف المعروفة ، وقد بقيت هذه الكلمة في الإسبانية بهذه الصيغة (Laud) وقد ادخل العرب هذه الآلة في الأندلس في القرن الثامن الميلادي ومنها انتشرت في سائر بلاد أوربا .
انظر أحكام السوق نفس الصفحة هامش 6 .

(453) الطنبور من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار ، وقد بقيت هذه الكلمة في الإسبانية بهذه الصورة (Tambor)
انظر أحكام السّوق ــ نفس الصّفحة هامش 7

(454) الدف من آلات الموسيقى وقد احتفظ بهذا اللفظ في الإسبانية بهاتين الصورتين adufe, adufre
انظر أحكام السوق ص 120 هامش 1 .

(455) د. محمود الحفني : زرياب ، سلسلة أعلام العرب رقم 4 ص 140 .

وكان تجديده في الموسيقى بحاجة إلى خلق ألوان جديدة من الشعر تساير هذا التطور ، وقد تم له ذلك ، فكان اختراع الموشحات والأزجال استجابة لهذا الفن الجديد ، وكان من ثمار مدرسته ومن طليعة هذه النهضة مقدم ابن معافى القبري وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وغيرهما ممن ساهم في ابتكار وتدعيم ما استحدث من تلك الموشحات (456) .

ومن بين المهتمين بالتأليف في الموسيقى في القرن الخامس الهجري أسلم بن عبد العزيز (457) صاحب التاليف في طرائق غناء زرياب وأخباره ، وهو ديوان عجيب جدا ، وذكر ابن حزم أن أسرته كانت تسكن الجانب الغربي من قرطبة (458) .

واستطاع تلاميذ زرياب أن ينقلوا هذا الفن إلى أكثر بقاع الأندلس (459) .
ولقد استجابت طبيعة الأندلسيين إلى فن الموسيقى ، فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءا من ثقافة الشعب ، حتى لنجد الفلاح في حقله والعامل في مصنعه والفقير في كوخه لا يقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء (460) .

وكان من آثار مدرسة زرياب أن أصبح للخلفاء وأصحاب البيوتات الميسورة شغف خاص بالغناء ، حتى لقد مارسه الكثير منهم على سبيل الهواية لا الاحتراف . وكانت مجالس ولادة بنت الخليفة المستكفى واجادتها لأصول الغناء وعلو مكانتها مساوية لمجالس علية بنت المهدي في المشرق (661) ، وكان سليمان المستعين يضرب بالطنبور في حداثته (462) .

---

(456) د. محمود الحفني : المرجع السابق 140 .
(457) هو أسلم بن أحمد بن سعيد ابن القاضي أسلم بن عبد العزيز : انظر ترجمته في جذوة المقتبس رقم 321 ص 162 — 163 .
(458) طوق الحمامة 116 .
(459) د. محمود الحفني ، المرجع السابق 137 .
(460) المرجع السابق 138 .
(461) المرجع السابق 139 .
(462) جمهرة أنساب العرب 102 .

ولقد خلف زرياب أكثر من عشرة آلاف لحن (463) ، وكان المذهب المالكي أشد المذاهب الفقهية في تحريم آلات الموسيقى (464) ، وإذا كان يحيى بن عمر قد تساهل في الدف المدوّر والكير فإنّ بعض الفقهاء حرّموا هذين أيضا إلا ما كان من الدف العربي الذي هو شبه الغربال خاصة واختلف في الكير .

ويصرح ابن فرحون بأنه ينبغي تأديب من يبيع آلات اللهو ويفسخ البيع وتكسر الآلات ، (465) إلا أنه يجدر بنا أن نذكر أن هذا التحريم كان أمرا نظريا أكثر منه واقعيا في كثير من الأحيان (466) .

ولقد استمر انتعاش الموسيقى والغناء في رحاب الخلافة والحجابة .

وكانت مجالس المنصور بن أبي عامر الغنائية تضم الوزراء والندماء ، وكان الطرب يستفزهم حتى يتهايجوا ويرقصوا .

وقد حدثنا بعض المؤرخين عن مجلس من هذه المجالس ، كان وزراء المنصور فيه يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد ، وكان مصابا بنقرس أقعده عن القيام فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس فجعل يرقص وهو متوكىء عليه ويرتجل شعرا يسر منه الحاضرون (467) .

أما في القرن الخامس الهجري فقد اهتم ملوك الطوائف بالموسيقى والغناء بوجه عام ، إلا أن إشبيلية أحرزت في هذا الفن قصب السبق ، قال ابن رشد :

« حينما كان يموت عالم في إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ، ترسل إلى قرطبة وإن مات موسيقى في عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التي ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع » (468) .

---

(463) د. الحفني : المرجع السابق 177 .
(464) أحكام السوق 119 هامش 2 .
(465) أحكام السوق ص 119 هامش 2 نقلا من تبصرة الحكام 1/2 ، 2 .
(466) أحكام السوق ص 119 هامش 2 .
(467) نفح الطيب 243/4 .
(468) إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة 41 ، د. محمود الحفني 137 .

وكان وادي إشبيلية لا يخلو من مسرة « وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر » (469) .

وكان أهل بلنسية أيضا من المعجبين بالغناء والموسيقى ، ويتفاخر أهلها بكثرة الأغاني ، يقولون « عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك ، وقد أخبرت أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة وأما دون الألف فكثيرات » (470) .

فيرى ابن عبد الرؤوف بمنع كل ذلك كالعود وغيره

أما ابن حزم فيقول في رسالة مراتب العلوم في معنى الموسيقى : « منها ما درس رسمه ودرست أعلامه ، ومن ذلك علم الموسيقى وأصنافها الثلاثة : فإن الأوائل يصفون أنه كان منها ما يشجع الجبناء وهو اللوى ، ونوع ثان يسخى البخلاء وأظنه الطنيني ، ونوع ثالث : يؤلف بين النفوس وينفر وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة » (471) .

معنى هذا أن الموسيقى في قرطبة في القرن الخامس الهجري ـــ بشهادة ابن حزم ـــ لم تكن بنفس المستوى القديم في تأديتها للطرب وإشباعها لرغبات أولئك الكلاسيكيين ، ولعل ذلك يرجع إلى ندوة المجددين في الفن الموسيقى بالطريقة التي تعجب ابن حزم .

أما حفلات الغناء والطرب فقد أسرفت المراجع في وصفها ، منها ما ذكره صاحب حديقة الأفراح فقد وصف لنا أحد مجالس الطرب قال :

«كنت بمالقة 406 هـ/ 1015 م ، واعتللت مرة ولزمت فراشي وسهرت طول الليل لما بي من آلام ، وإذا بي أسمع أوتار العيدان والطنابير من كل ناحية ، وتختلط الأصوات بالغناء مما زاد ألمي وإن كانت نفسي تعاف سماع تلك الضروب ، ثم سمعت ما أنست له نفسي وارتاحت حتى خيل إليّ أن أرض المنزل ارتفعت بي ،

(469) نفح الطيب 199/4 .

(470) العذري 18 .

(471) رسائل ابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ص 60 (ط. الخانجي ، بدون تاريخ)

وأن حيطانه تدور حولي ، فلم يملك نفسه إلا أن قام واتجه إلى مصدر الصوت ، فكان في وسط بستان فيه نحو من عشرين رجلا قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة وجواري قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو ومزامير يحركنها والجارية جالسة ناحية وعودها في حجرها ، وكل يرمقها ببصره ويوعيها سمعه وهي تغني » (472) .

وحينما رأى الأديب هذا المشهد كان تأثيره عليه شديدا حتى إنه حفظ أشعار الجارية التي كانت تتغنى بها وقال : « يشهد الله كأنما أنشطت من عقال ، وكأن لم يكن بي ألم ! » (473) .

ولقد ارتبطت حفلات الغناء والموسيقى بمجالس اللهو والطرب التي كانت منتشرة في ممالك الطوائف المختلفة .

ووصف ابن بسام حفلا للمعتصم بن صمادح فقال :

« اصطبح المعتصم بن صمادح يوما مع ندمائه ، فأبرز لهم وصيفة مهدومة متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر أيضا هناك لاعب مصري ساحر فكان لعبه حسنا ، فارتجل أبو عبد الله بن الحداد قصيدة في هذا المشهد :

وأسمعتنا لاحنا فاتنا وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان فننظر ما يذهل الناظرا
فظاهرها ينثني باطنا وباطنها ينثني ظاهرا

بهذا العرض نرى أن خلفاء قرطبة خلال فترة الفتنة القرطبية في الربع الأول من القرن الخامس الهجري ، كانت مجالس الموسيقى والطرب لا تنفصل عن مجالس الشراب واللهو ، فهي مكملة لها ولم تكن فترة الفتنة القرطبية حائلا دون انتشار هذه المجالس .

---

(472) أحمد الشرواني : حديقة الأفراح لإزالة الأتراح ص 127 القاهرة 1302م.

(473) المرجع السابق ص 128 .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

أما عهد الجهاورة وبني عباد والمرابطين فلم تكن قرطبة منطقة جذب فنى ، بل عظمت إشبيلية في هذا القرن وأخذت المكانة التي كانت من قبل لقرطبة في القرن الرابع الهجري .

وكان أصحاب البيوتات القرطبية الميسورة يعملون على الاستمتاع والطرب بتلك المجالس .

وبعد فهذه صورة للحياة الاجتماعية في قرطبة في القرن الخامس الهجري مما أمكن استخلاصه من المراجع .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

فهرس قرطبة الاسلامية

تقديم 5

المقدّمة 11

الفصل الأول : خطط قرطبة وأبرز معالمها في القرن الخامس الهجري 17

تخطيط المدينة 18

القصور والمنتزهات 20

الدّور 25

الحمّامات 29

وسائل المواصلات والنقل في المدينة 34

موارد المياه والسقاية 37

المساجد 39

المقابر 53

الكنائس 72

أسوار قرطبة وأبوابها 74

الفصل الثاني : الحياة الاقتصادية في قرطبة في القرن الخامس الهجري 80

السياسة الاقتصادية 81

التجارة 97

الأسواق 127

الصّناعة 152
النظم المالية 172
مستوى المعيشة 223
الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية في قرطبة 233
عناصر المجتمع القرطبي 234
الحياة العامة في قرطبة 269

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين